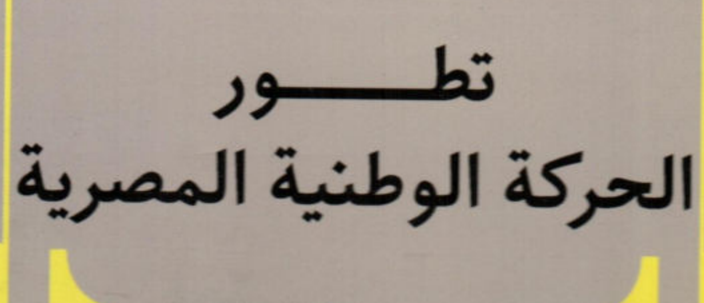


تطور الحركة الوطنية المصرية

شهدي عطية الشافعي

فكر

المحروسة

تطوُّر الحركة الوطنية المصرية

1882 - 1956

شُهدي عطية الشافعي

تقديم/ شعبان يوسف

عنوان الكتاب: تطوُّر الحركة الوطنية المصرية
المؤلف: شُهدي عطية الشافعي



قطعة رقم 7399 ش28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف: -28432157 02 002

facebook/almahrosacenter
twiter: @almahrosacenter
www.mahrousaeg.com
e.mail: info@mahrousaeg.com
e.mail: mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع : ١٧٧٦٠ / ٢٠١٨
الترقيم الدولي: 978-977-313-736-6

تطوُّر الحركة الوطنية المصرية

1882 - 1956

شُهدي عطية الشافعي

تقديم/ شعبان يوسف

الطبعة الأولى 2018



فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الشافعي، شهدي عطية

تطور الحركة الوطنية المصرية 1882 - 1956/ شهدي عطة الافعي؛ تقديم شعبان يوسف._

ط1.-القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية، 2018.

ص264؛ 17 × 24

تدمك 6-736-313-977-978

1 - مصر السياسية الأحوال

2 - مصر تاريخ- العصر الحديث- الاحتلال البريطاني (1882 - 1956)

أ- يوسف شعبان (مقدم)

ب- العنوان

320.962

رقم الإيداع: ١٧٧٦٠ / ٢٠١٨

المحتويات

مقدمة

شُهدي عطية الشافعي
المثقف الثوري والشهيد

لم يكن الاغتيال الذي تعرَّض له المثقف والمُناضل والشهيد شُهدي عطية الشافعي في 15 يونيو 1960، حدثاً طارئاً في مسلسل الطُّغيان الذي أصاب المُناضلين الاشتراكيين على مدى سنوات كثيرة قبلَ وبعدَ هذا التاريخ، ولكن يظلُّ اغتيالُ شُهدي عطية هو بؤرة ومركز ذلك الطُّغيان، حيث تمَّ تعذيب الرجلِ والتَّنكيلُ به، ومحاولةُ إذلاله لإثبات أنَّ السُّلطةَ التي تحكم هي التي تأمر وتَنْهَى، ولا صوتَ يعلو على صوتها، وهذا التنكيل والتعذيب له تاريخٌ طويلٌ، ليس منذُ اندلاع ثورةِ الضُّباطِ في 23 يوليو 1952، ولكن مِن قبلِها.

وإذا كانت هُناك قُوى قد تعرَّضتْ للتنكيل والإبعاد والتعذيب حتى القتل، فالاشتراكيون هم أول هذه القُوى المُسْتَهْدَفة؛ وذلك لأنَّ هؤلاء الاشتراكيين هم النقيضُ الجِذْري دوماً لأيِّ سلطة مُستبِدة ومُسْتَغِلة، ومنذ أنْ بدأت الحركة الشيوعية في مصر في عقد العشرينات، طرحتْ برنامجاً قويًّا ومُتماسكاً بعد قيامِ ثورة 1919، واشتداد الحركة الوطنية الديمقراطية، ونشرتْ جريدةُ الأهرام برنامجَ

الحـزب الاشـتراكي الأول في مـصر، بتاريـخ 14 فبرايـر 1921، وكان أولَ مَطالِبـه جـلاءُ الجنـود الانجليـز عـن مـصر والسـودان، وعـدمُ الاعـتراف للغاصب بـأي مركـز ممتـاز، وعـدمُ الاعـتراف بالمُعاهـدات والاتفاقـاتِ التـي أجريـتْ خِلْسـةً مِـن الشـعبِ وعـلى كُـرْهٍ مِنـه".

وعندمـا يطـرح الحـزب هاتـين النقطتـين في مواجهـة المُسـتعمر الانجليـزي، فهـو يحـرج السـلطات التـي لم تسـتطعْ طـرحَ مبـدأ الجـلاء المُطلـق عن البـلاد، ولكنَّ السـلطةَ اختـارتْ آنـذاك طريـقَ المفاوضـات، ومِـن ثـمَّ فلابُـد أنْ تعمـل تلـك السـلطةُ عـلى التخلـص مِـن مثـل هـذه القُـوى التـي تطـرح أفـكاراً وتوجهـاتٍ نقيضـةً تمامـاً، وليسـتْ بديلـة فحسـب، فالجـلاء التـامُّ دون مُراوغـات، هـو مبـدأ الاشـتراكيين، والمفاوضـاتُ كانـتْ سـلوكَ السـلطات في ذلـك الوقت.وبالطَّبـع طالـب البرنامـج بتعديـل الدسـتور وقانـون الانتخابـات، حتـى تصبـحَ الأمـةُ مَصـدرَ السُّـلطةِ الحقيقيـة، وطالـب البرنامـج بإلغـاء القوانـين الاسـتثنائية والرجعيـة، مثـل قانـون الاجتـماع والأحـزاب وكافـة القوانـين التـي تعطِّـل الحُريـات في البـلاد.

ثـمَّ طـرح البرنامـجُ بعـضَ نقـاطٍ تتعلـق بالنضـال العُـمالي، مثـل الاعـتراف بهيئـات العُـمال رسـميًا بحقِّهـا في الدفـاع اقتصاديًـا وسياسـيًّا واجتماعيًّـا عـن مصالحهـا، ثـمَّ تنظيـم العُـمال غـير المُنظمـين وتقويـة المُنظمـين وضمُّهـم في اتحـادات، وتأليـف تعاونيـات للإنتـاج والتوزيـع، وتمثيـل العُـمال وفقـراءِ الفلاحـين تمثيـلاً صحيحـاً في البرلمـان، واسـتطرد البرنامـج في طـرح كل مَـا يُناقـض السـلطاتِ الحاكمـةَ كلِّهـا، الملـك والحكومـة والاحتـلال، لذلـك ناصبـتْ كلُّ تلـك السـلطاتِ العـداءَ السَّـافِرَ مـع هـؤلاء المُقْلقـين، الذيـن لا رادِع لهـم سـوى التنكيـل بهـم، ومطاردتهـم، وتصفيـة تنظيمهـم الثـوري.

وتطـوَّر الأمـر فيـما بعـد ذلـك، ليصبـح الاشـتراكيون هـم أصحـاب الطـرح النقيـض للاسـتبداد والاحتـلال والاسـتغلال دومـاً، وكانـتْ ثـورة 1935 التـي طالبـتْ بالدسـتور الـذي عطَّلـه الانجليـز، وكانـتْ أداتـه في مـصر العُمـلاء وعنـاصر الرجعيـة، وجـاءتْ معاهـدةُ 1936 مُخيِّبـةً للآمـال، فيواصـل الشـيوعيون دورهـم أثنـاء الحـرب العالميـة الثانيـة، ومـع نشـوبِ تلـك الحـرب عـام 1936، ينجـح الشـيوعيون في تشـكيل نـواةِ تنظيـمٍ لهـم، ويواصلـون ذلـك وصـولاً إلى أعـوام 1945 و1946، وتلـك السـنوات التـي شـهدتْ أشرسَ نضـالات الشـيوعيين في مـصر قبـل ثـورة 23 يوليـو، وكان شُـهدي

عطيـة أحـدَ أبطـال تلـك الفـترة، إذ صَـاغ برنامجـاً شـديدَ الانضبـاط في عـام 1945 مـع مجموعـةِ زُمـلاءٍ لـه، تحـت عنـوان: أهدافنـا الوطنيـة، وتَرْجَـمَ عديـداً مِـن الكتـب المهمـة، منهـا الاشـتراكية العلميـة والخياليـة لفردريـك إنجلـز، وشـارك بقـوةٍ وبمهـارة وبـدورٍ بـارزٍ وتقدمـيٍّ في نـشر الفكـر الاشـتراكي،كما أنـه كان مُهتـما بالطليعـةِ الشـبابيةِ آنـذاك، هـؤلاء الشـباب الذيـن كانـوا في طليعـة الحركـة الوطنيـة الجماهيريـة، والتـي ظلّـتْ تنمـو وتتصاعـد وتُديـر المَعـاركَ الكُبْرَى مـع مختلـفِ قـوى الرجعيـة والفسـاد والاحتـلال، وكان شُـهدي يقـود هـؤلاء الشـبابَ بنفسِـه، ويرسُـم لهـم سياسـةَ المقاومـة، ويعمـل عـلى تثقيفهـم، وهـو الحاصـلُ عـلى درجـةِ الماجسـتير مِـن انجلـترا، وسـاهم في تأسـيس دارِ الأبحـاث العلميـة، تلـك الـدَّارُ التـي تكوَّنـت فيهـا طاقـاتٌ بحثيـةٌ ونضاليـة، وأصـدرتْ عـدداً لا بـأس بـه مِـن الأبحـاث المُهمـة، وكانـتْ تُقيـم نـدوةً أسـبوعيةً، وكان شُـهدي الفـارسَ الأولَ في هـذه النـدواتِ.

ولم يكتـف شُـهدي بتلـك الأدوار التثقيفيـة والحركيـة، ولكنـه لعـب دوراً مُهـمًّا ومحوريًّا في تأسـيس اللجنـة التحضيريـة للجنـة الوطنيـة للطلبـة في صيـف عـام 1945، تلـك اللجنـةُ التـي ضمَّـتْ في إهابِهـا خـيرةَ شـباب الحركـة الوطنيـة والاشـتراكية، وهـم جـمال غـالي، وسـعد زهـران، وجـمال شـلبي، وعبـد المنعـم الغـزالي، ومحمـد الجنـدي، وفاطمـة زكي، ولطيفـة الزيـات، وكان هـؤلاء هـم الذيـن يقـودون الجَامعـةَ بشـكلٍ كاسِـح، وذلـك في مواجهـة عنـاصر الإخـوان المسـلمين، وعنـاصر مِـن حـزب الوفـد، ولم تكـن اللجنـةُ الوطنيـةُ فقـط هـي التـي تقـود، ولكـن كانـت حشـود مِـن طـلّاب كليّـات الطـبِّ والعلـوم والآداب والتجـارة في مواجهـة الأحـداث، وكان كُتَيِّـبُ "أهدافنـا الوطنيـة" بمثابـةِ الدليـل القاطـع عـلى جديّـة الحركـة، وكذلـك الكِتـاب النَّقيـض لـكلِّ الخِطابـات اليَمِينِيَّـةِ التـي كانـتْ مطروحـةً في السـاحةِ السياسـيةِ آنـذاك.

وبالطبـع لم ترتـح السـلطاتُ لهـذا القائـد الصَّلـب والمثقَّـف والأصيـل، فأصـدر إسـماعيل صدقـي "جـلّادُ الشـعب" أمـراً باعتقالـه، واسـتطاع شُـهدي أنْ يَهْـرُب ويَخْتفـي عــن أعـين البوليـس السـياسي، وقصـة الهـروب أو الاختفـاء ملحمـة في حـدِّ ذاتِهـا، وعندمـا عـاد مِـن مخبئـه، عـاد كذلـك إلى قيـادةِ الحركـةِ الوطنيـةِ، وصـدرتْ جريـدةُ "الجماهـير" عـام 1947 برئاسـةِ تحريـر محمـود النبـوي، وكان شُـهدي يُحـرر مُعظـمَ المـادةِ التحريريـةِ فيهـا، وكتـب شُـهدي سلسـلةَ مقـالاتٍ قويـة، اسـتطاعتْ أنْ تصنـع حِـراكاً عارِمـاً في الحركـةِ الوطنيـةِ واليَسـارِيةِ، ولذلـك تـمَّ اعتقالُـه في أواخـر عـام 1948،

وتقديمُـه للمُحاكمـة، وصَـدَرَ عليـه حكـمٌ بالحبـس سـبعَ سـنوات بالأشـغال الشـاقة، وخـرج عـام 1955، أي بعـد قيـام ثـورة 23 يوليـو 1952، والتـي وجـد شُـهدي فيهـا كثيراً مـما كان يُنـادي مِـن تحريـر الوطـن مـن الاسـتعمار، والتخلص مِـن الإقطـاع وجبروتِـه، وبعـد خروجـه مِـن السـجن شـارك شُـهدي في تحريـر جريـدةِ المسـاء، ولابُـد أنْ أذكـر بهـذه المُناسـبة أنَّـه كان يكتـبُ مقـالاتٍ مهمـةً وتاريخيـةً باسـمٍ مُسـتعار وهـو "أحمـد نـصر"، وذلـك عـلى مسـئوليةِ الراحـل الدكتـور رفعـت السـعيد والكاتـب الـروائي صُنـع اللـه ابراهيـم، عندمـا سـألتهما عـن مَـن يكـون أحمـد نـصر هـذا الـذي يكتـب مقـالاتٍ سـاطعةً هكـذا؟ فاتفـق كلٌّ مِنهـما بأنـه شُـهدي عطيـة الشـافعي، وكان هنـاك تشـديدٌ مِـن السـلطات عـلى عـدم إدراجِ اسـم شُـهدي عطيـة الشـافعي في أي مطبوعـةٍ مـن المجـلَّات والصحـف السـيّارة، ولذلـك نـشرتْ لـه جريـدة المسـاء روايتَـه الفاتنـةَ "حـارة أمِّ الحُسـينى" دونَ توقيـع، وزعـم المُحـرِّرُ بـأنَّ مؤلِّـف الروايـة هـو الـذي أراد إنـكار اسـمه، ونُـشِرت الروايـةُ عـلى عـدة حلقـات في الأعـدادِ الأولى مِـن الجريـدة، وكان هـذا الاحتفـاءُ يليـق بالروايـةِ أولاً، وصاحبِهـا ثانيـاً، حيـث إنَّ الروايـة لم تكـن مجـرد قصـة كتبهـا مثقـف كبـير، أو مُناضـل عَتيـد، لـه شـأن خـاصٌّ وكبـير في الحيـاة السياسـية، بـل كانـت روايـةً مكتملـةَ الأركان الفنيـة، رغـم أنهـا كُتبـت باللهجـة العاميـة، ولكن شُـهدي عطيـة كان لـه تاريـخ أدبيٌّ قديـم، حيـث إنـه نـشر قِصصـاً بديعـة في مُقتبـل عمـرِه، حيـث نـشرتْ لـه مجلـةُ "مجلَّتـي" التـي كان يـرأس تحريرهـا أحمـد الصـاوي محمـد عـام 1936، وشـارك في مسـابقات أدبيـة مرموقـة، وكان المحكِّمـون عـلى مسـتويات أدبيـة كبـيرة، مِـن طـراز د/ طـه حسـين ومحمـود تيمـور وتوفيـق الحكيـم وغيرهـم، وحصـل عـلى تقديـراتٍ عاليـة جـدًّا في التَّحكيـم.

ولم تكـن هـذه هـي المُشـاركات الأولى، ولا الوحيـدة في مجـال الأدب، بـل ظهـرتْ بواكـير كتاباتـه النقديـة المبـشرة في مجلـة "الرسـالة"، والتـي كان يـرأس تحريرهـا الأديـب أحمـد حسـن الزيـات عـام 1933، فنقـرأ دراسـات عـن الكاتـب الانجليـزى ه. ج. ويلـز، ثـمَّ يكتـب دراسـةً أُخـرى عـن الكاتـب الـروسي تولسـتوي، ولم تكـن دوافِعـه بسـيطة، ولكنـه كان يعمـل عـلى البحـث عـن رؤيـة فلسـفية عنـد هـؤلاء الكُتَّـاب، ولم يكـن عمـرُه آنـذاك تجـاوز الواحـد والعشريـن، لقـد ولـد عـام 1912، أي بعـد نجيـب محفـوظ بعـامٍ واحـد، ولـولا أنْ اختطفـه البحـث العلمـي والأكاديمـي، لـكان أحـدَ أدبائنـا الكبـار، ولقـد اسـتمر في كتاباتـه النقديـة، فيكتـب دراسـةً بديعـةً عـن توفيـق الحكيـم، وللأسـفِ لم تُجمـع هـذه الكتابـاتُ النقديـةُ والقصصيـةُ في كِتـاب، ولم تُنـشر

لـه مِـن آثـاره الأدبيـةِ سـوى روايتـه "حـارة أمِّ الحُسـينى"، بمناسـبة مـرور خمسـين عامـاً علـى اغتيالـه عـام 2010، وصـدرتْ عـن المجلـس الأعـلى للثقافـة، عندمـا كان الأسـتاذ حلمـي النَّمْنَـم مديـراً عامًّـا للنـشر، وقـد أقيمـتْ نـدوةٌ مُوسَّـعةٌ في المجلـس حضرهـا عـددٌ كبـير مـن رفاقـه الذيـن عـاصروا المرحلـة، ورافقـوه في المُعتقـلات العديـدة، وعـلى رأسـهم الراحـل د/ فخـري لبيـب، والراحـل د/ أحمـد القصـير، كـما جـاءتْ ابنتُـه حنـان لحضـورِ هـذه المناسـبة، وألقـت كلمـةً مؤثـرة في الاحتفـال.

لم يكـن شُـهدي عطيـة الشـافعي عـلى خلافـات مـع النظـام الوطنـي النـاصري، بـل سـنُلاحظ أنَّ هـذا الكِتـابَ "تطـور الحركـة الوطنيـة"، والـذي صـدرتْ طبعتـه الأولى عـام 1957عـن الـدار المصريـة للطباعـة والنـشر، يعمـل عـلى قـراءة السـنوات الخمسـة التـي كانـت قـد مـرّت عـلى الثـورة، وكان شُـهدي كـمَا سـنتعرّف عـلى ذلـك في الكِتـابِ، يـرى بـأنَّ القُـوى الوطنيـة عليهـا أنْ تُشـارك أحـلام وخطـوات الثـورة بقيـادة الزعيـم جـمال عبـد النـاصر، وأفصـح أكـثر مِـن مـرَّةٍ بـأنَّ جـمال عبـد النـاصر ليـس رئيـسَ جمهوريـةٍ فحسـب، بـل هـو القائـد المؤهَّـلُ لقيـادة المنطقـةِ العربيـة بأسرِهـا، وهـذا الأمـر ليـس مديحـاً، بقـدرِ مَـا هـو رؤيـةٌ موضوعيـةٌ، دلّـل عليهـا شُـهدي عطيـة الشـافعي بالأرقـام والوثائـق، والمعـارك التـي خاضتهـا الثـورة منـذ قيامهـا ضـدَّ الإقطـاع والاسـتعمار، مِـمَّا كبّدهـا متاعـبَ شـاقةً، كادت تَطَـالُ الرئيـسَ عبـد النـاصر نفسَـه، ولم تكـن حـرب 1956، والشـهيرة بالعـدوان الثُّـلاثي عـلى مـصر، إلا نتيجـة للمعـارك التي خاضتهـا الثـورةُ آنذاك.

وفي مـارس عـام 1956 كتـب شُـهدي كِتابـاً مُهـمًّا، صـدر عـن دارِ الفكـرِ، وكان عنوانـه "مـاذا تريـد أمريـكا مِـن الـشرق الأوسـط"، وكتـب مقدمتَـه الناقـد والمُفكِّـرُ محمـود أمـين العـالم، وقـال العـالم ضمـن مقدمتِـه: "إنَّ معركتنـا اليـوم هـي معركـةٌ ضـدَّ الاسـتعمار ومشروعاتـه العسـكرية والاقتصاديـة.. هـي معركـة مِـن أجـل تدعيـم اسـتقلالنا الوطنـي وحمايـة قضيـة السـلام، ومِـن خـلال هـذه المعركـةِ النبيلةِ، سـيتحقَّق لشـعوبِنا العربيـةِ مَاتصبـو إليـه مِـن رفاهيـة وديمقراطيـة وتقـدُّم"، واسـتطرد قائـلاً: " ولهـذا كنـتُ سـعيداً عندمـا تفضلـتْ دارُ الفكـر، فطلبـتْ منـي أنْ أُقـدِّم لهـذا الكِتاب... فمؤلِّفُـه الأسـتاذ شُـهدي عطيـة مِـن طليعـةِ مُفكِّرينـا الأحـرار، ولـه تاريـخٌ مُضـئ في تاريخِنـا الوطنـي الحديـث..".

ولابُـد أنْ أنـوّه أنَّ الدكتـور أنـور عبـد الملـك كان قـد تنـاول كِتـابَ "تطـور الحركـة الوطنيـة" لشُـهدي عطيـة في جريـدة المسـاء بالدراسـة والنقـد والتَّحليـل، وذلـك بتاريـخ

16 مايـو 1957، أي بعـد صـدورِ الكِتـابِ مبـاشرةً، وعَمِـلَ عـلى إضـاءة جوانـبَ كثـيرةٍ فيـه، ولكنـه أعـاد نـشرَ هـذه الدراسـةِ في كتابـه "دراسـات في الثقافـة الوطنيـة"، والـذي صـدر في ينايـر 1967 عـن دار الطليعـة ببـيروت، وفجّـر مفاجـأةً مِـن الـوزن الثقيـل، ربمـا لم يتداولْهـا أحـدٌ مِـن قبـل ذلـك ومِـن بعـد، ومِـن المعـروف أنَّ علاقـةَ شُـهدي عطيـة وأنـور عبـد الملـك السياسـية والإنسـانية، كانـتْ مِـن أعمـق وأصـدق العلاقـات، ولذلـك فـما يقولـه عبـد الملـك عـن شُـهدي، يصبـح في مسـتوى الوثيقـة، حيـث قـال في هامـشٍ جـاء في كِتابِـه، وأنـا أنْقُـل الهامـشَ كامـلاً لضرورتِـه: " صـدر الكِتـابُ في ينايـر 1957، دون اسـمٍ لـدارِ نـشرٍ، عـن مطبعـةِ الـدار المصريـة للطباعـة والنـشر والتوزيـع ، شـارع سـامي بالقاهـرة، وللحـقِّ والتاريـخِ يجـب توضيـحُ بعـضِ الأمـور، كان شُـهدي موضوعـاً تحـتَ الرقابـةِ البوليسـية اليوميـةِ آنـذاك، بعـد قضـاء عقوبـةِ ثمـاني سـنواتٍ مِـن الأشـغال الشـاقة، كان يريـد أنْ يدفـعَ بهـذا الكِتـابِ إلى النـشرِ بسرعـةٍ، بعـد معركـةِ السـويس، ليكـون برنامجـاً للجبهـةِ بـين الجيـشِ والشَّـعب، وقـد طالعـتُ معـه مخطـوطَ الكتـابِ بعنايـةٍ، وأشـهدُ بـأنَّ الرقابـة قـد حذفـتْ مايقـرب مِـن ثمانـين صفحـةً قبـلَ السَّـماح بالنـشر: مِـن هُنـا كانـت فجـوات لم يسـتطعْ شُـهدي أنْ يتداركَهـا، إذ لقـي حتفَـه في المُعتقـل، يـوم 15 يونيـو 1960".

هـذه شـهادةٌ تدلّـل عـلى أنَّ النظـامَ آنـذاك لم يكـن مطمئنـاً مـع أصدقائـه، طالمـا أنَّ خِلافـاً بينـه وبينهـم، فرغـم أنَّ شُـهدي عطيـة في كتابـه هـذا، كان قـد أشـاد بالأبعـادِ الوطنيـةِ للنظـام المـصري آنـذاك، لكنـه لم يتخـلّ عـن رؤيتـه العلميـة الماركسـية للتطـور الـذي سـلكته الحركـةُ الوطنيـة منـذ الثـورة العُرابيـة، وحلّـل في دراسـته الأبعـادَ الاجتماعيـة والديمقراطيـة التـي كانـت تتميـز بهـا كافـةُ الطبقـات المُتصارعـة، سـلباً وإيجابـاً، ولكـن كـما قـال أنـور عبـد الملـك، فالكِتـابُ كان يـؤازر السـلطةَ قلبـاً وقالبـاً، وكان الكِتـاب بمثابـةِ البرنامـج الوطنـي الـذي صاغَـه شُـهدي عطيـة ليكـون "بروفـة" للتحالـفِ الوطنـي القَـادم، وهـذا مـا سـنلاحظه في الفصـل الأخـير مِـن الكتـاب، وجـاء تحـتَ عنـوان "الغـد".

ولكـن لا تـأتي الريـاح بمـا تشـتهي السـفنُ، ففـي عـام 1958، بـدأت السـلطة تعمـل عـلى تضييـق الخنـاق عـلى اليَسَـاريين، بعدمـا حدثـتْ خلافـاتٌ بـين النظـام والشـيوعيين، عندمـا لاحـظ النظـام بـأنَّ الشـيوعيين راحـوا لتأييـد عبـد الكريـم قاسـم في العـراق، ومِـن ثـمَّ راحـت السـلطة لتطـارد الشـيوعيين بـضراوة، وبـدأت حمـلات

القبض عليهم في 31 ديسمبر 1958، لتستمر التغريبةُ خمسَ سنوات، ويستشهد شُهدي في أوردي أبو زعبل، وكان قد أرسل رسالةَ تأييد شبه مُطلق إلى جمال عبد الناصر قبلَ اغتياله بعدةِ شهور، وبالتحديد في سبتمبر 1959، وفي يوم الثلاثاء الموافق 8 مارس 1960 عندما مَثُلَ أمامَ محكمة أمن الدولة العليا في الأسكندرية، ألقى شُهدي كلمةً افتتاحية استهلها بقوله: "واجبُ كلِّ وطنيٍّ أنْ يؤيد هذا الحكم، هذا واجب وطنيٌّ مخلص، والتأييد صادر لا عن مطمع ولا عن خوف، ولم أطلب أبداً ثمناً لهذا التأييد، وقمتُ بالواجبِ مِن كلِّ أعماقي كمواطن مُخلص شريف، ولا عن رهبة ولا عن خوف، وسبق اعتقالي والحكم بالأشغال الشاقة، وجاء لي والدي وقال: ممكن السعيُ إلى تخفيف الحكم، فقلتُ له: السجن أحبُّ إليَّ مِن أعمال الجُبناء...".

ويستطرد شُهدي في شجاعة بطولية لطرح رؤيته دون أحقاد، ودون لفٍ أو دوران، ولكن أيدي الطُّغاة لم ترحمه، ولم تكفّ بعد ذلك عن التطاول على كل المُناضلين الذين أيدوا النظام، والذين لم يُأيِّدوه، وهكذا راح شُهدي عطية ضحيةَ حفنةِ مُستبدين وقَتَلَة، وربَّما يكون قد حدث ذلك بعيداً عن أعين القيادة السياسية، ولكنْ قتلُ شُهدي عطية ورفاقِه سيظلّ وصمةَ عارٍ في جبين السلطة آنذاك.

شعبان يوسف

تمهيد

لا نقصِد بهذا الكِتاب تأريخاً للحركة الوطنية المصرية، فهذه مَهَمَّةٌ لا يستطيع الاضطلاع بها فردٌ واحد.

وقد آن لنا أنْ يقوم معهدٌ قوميٌّ بأسره، يمْلك مِن المال والجُهد ما يستطيع به أنْ يؤرخ للحركة الوطنية تأريخاً كاملاً مِن وجهة نظر الجماهير لا الحُكَّام، ومِن وجهة نظر الشعب، لا المُلوك والوزراء.

وإنَّما يكتفي هذا الكِتاب بدراسة المعالم الرئيسية للحركة الوطنية في تطوُّرها منذ 1882 إلى يومنا هذا.

ولنا منهج واضح في هذه الدراسة، منهج على قِوامِه أنَّ تاريخ التطور الاجتماعي هو- أولاً وقبل كلِّ شيءٍ- تاريخ للشعوب.

وإنَّ التاريخ لا يمكن أنْ يكون عِلماً حقًّا، إذ قَصَرَ نفسَه على دراسة أعمال الملوك وقواد الجيوش، وأخبار الغُزاة، وتفاصيل المفاوضات والمُعاهدات.

نعم، إنَّ الزعماء والقادة دورهم مُهمٌّ في التاريخ، ولكنهم لا يستطيعون أنْ يلعبوا هذا الدور إلا بمقدار ما يمثلون مصالح شعوبهم، إلا بمقدار إدراكهم لقوانين

التطـور للمجتمـع، إلا بمقـدار مَـا يمثِّلـون قـوة متقدمـة قـد تهيـأ لهـا ظـروف النضـج، بحيـث تسـتطيع أنْ تسـيرِ بالمجتمـع خطـوةً إلى الأمـام.

ومـع هـذا يسـتمر المحـرك الحقيقـيُّ للتاريـخ هـو الشـعوب، وتحركاتهـا، وثوراتهـا، وتنظيماتهـا، ولا نعنـي بهـا هـذه التحـركاتِ العفويـةَ الطارئـة، التـي مـا إنْ تَهُـب حتـى تخمـد، إنَّمـا هـذه التحـركات العميقـة المنتظمـة التـي تعبِّر عـن أنَّ نِظامـاً اقتصاديًـا وسياسـيًّا مُعينـاً أصبـح لا يَصْلُـح للبقـاء، أصبـح مُعرْقِـلاً لتَقَـدُّمِ القُـوى الإنتاجيـة، أصبـح مُحطِّـماً لمسـتوى المعيشـة للشـعب وثقافتـه، ومِـن ثـمَّ يتعـين وجود نظـامٍ آخرَ سـياسي، ونظـام آخـر اقتصـادي، تَهُـبُّ الملايـين بقيـادةِ زعمائهـم مِـن أجـل تحقيقـه.

هذا هو المنهج السائد في هذا الكِتاب.

وقـد حاولنـا في هـذا الكتـاب ألا نفـرِّط في التحليـل، وألا نفـرِّط في الوقـت نفسـه في سرد الوقائـع، وذلـك بـأنْ نجمـع مـا بـين التحليـل وعـرض الوقائـع، والتحليـل يتطلَّـب عـرضَ البواعـث الاقتصاديـة والسياسـية والعسـكرية، والتحليـل أيضـاً يتطلَّـب دراسـة نقـاط القـوة ونقـاط الضعـف، واسـتخلاص الـدروس مِـن تاريخنـا الوطنـي.

ولكـنْ هـذا الكِتـابُ لم يُكتـبْ ليكـون مجـرد دراسـة، أو مجـرد تفسـير لتاريخنـا، أو مجـرد عظـة وعِـبرة، وإنَّمـا كُتـب وهـو يضـع عينـه عـلى المسـتقبل، يضـع عينـه عـلى تحديـد الخطـوط العامـة لهـذا المسـتقبل، وأنْ يسـتفيد مـن خـبرة المـاضي والخـبرة العالميـة ليضـع الخطـوط العامـة التـي يمكـن أن يسـير عليهـا الشـعب في كفاحـه الدائـب ضـدَّ الاسـتعمار وضـدَّ الإقطـاع، وضـدَّ الاحتـكار، ومـن أجـل رفـع مسـتواه المـادي والثقـافي، ومـن أجـل حريتـه وديمقراطيتـه.

ونحـن نعـترف أنَّ هـذا الكِتـاب ليـس إلا محاولـة في تطبيـق المنهـج العلمـي عـلى دراسـة تاريخنـا، وهـو شـأنُ كلِّ محاولـة - وخاصـة إذا كانـت المحاولـة الأولى - لـن يخلـو مِـن أخطـاء، ولـن يخلـو مِـن تقصير، ولـن يخلـو مِـن تفسـير غـير سـليم، ولا شـكَّ أنْ يشـوبه كثـير مِـن النواقـص.

ولهـذا، فنحـن نرحـب بـكلِّ نقـد، نرحـب بـكلِّ تصحيـح، نرحـب حتـى بأوجـه النظـر المُخالفـة لرأينـا، حتـى نسـتطيع أنْ نسـتكمل هـذا النقـص في الطَّبعـات التاليـة.

ونحـن لا نقتـصر عـلى الترحيـب بالنقـد فحسـب، وإنمـا نُلِحُّ في طلـب هـذا النقـد إلحاحـاً شـديداً.

ونرجـو أنْ يشـجعنا القـارئ في مـصر والسـودان وسـوريا ولبنـان، وكلِّ مـكان في الـشرق العـربي، عـلى اسـتكمال مَـا في هـذا الكِتـاب مِـن نواقـصَ كثـيرةٍ.

المؤلِّف

ديسمبر 1956

الفصل الأول
الاستعمار والسيطرة الاقتصادية - 1882

•احتلالٌ مشؤومٌ:

في الساعة السابعة مِن صباح يوم الثلاثاء 11 يوليو عام 1882، أعطى الأميرال سيمور إشارةَ الضرب، فأطلق الأسطول الإنجليزيُّ أول قذيفة على قِلاعنا المصرية في الإسكندرية،فكان ذلك إذاناً ببدء الاحتلال الإنجليزي البغيض.

وفي الساعة التاسعة من صباح يوم الأربعاء 13 يونيو عام 1956، رحل آخرُ جندي إنجليزي عن منطقة القنال.

أربعة وسبعون عاماً من الاحتلال الأجنبي لبلادنا.

وأربعة وسبعون عاماً مِن الكفاح الشعبي ضدَّ هذا الاحتلال.

*تحطيم الصّناعات:

فماذا كانتْ خطة الاستعمار بالنسبة لاقتصادنا القومي ؟

كانتْ أولاً: تحطيم صناعتنا القائمة، فقد أغلق أبواب المصانع الحكومية ومنها: مصنع الورق ببولاق، دار صكّ النقود، فأصبحت نقودنا تُصكُّ في إنجلترا، كما باع مَغَازلَ القطن ومصانعَ النسيج التي كانت باقيةً منذ عهد محمد علي، وعطّل الترسانة لصبِّ المدافع وصنع البنادق والذخائر، وباع البواخر النيلية بأرخص الأثمان، وعطّل الحوض البحري لإصلاح السفن.

وكانتْ خطة الاستعمار ثانياً: تحطيم الحِرف الصغيرة، حتى تَحُلَّ سلَعُه الإنجليزية محلَّ المصنوعات المحلية حتى بين أفراد الجماهير الكادحة، فكان أنْ شرَّد - كما يقول الدكتور لهيطة - مائتي ألف مِن صِغار الحرفيين، بما فرضه عليهم مِن ضرائب باهظة وقوانين جائرة.

ثالثاً: كما حطَّم الاستعمار الاكتفاءَ الذاتي في الريف، فأجدادنا يذكرون كم كان يمتلئ ريفُنا بالصناعات المنزلية، كم مغازل ومناسج يدوية، سُرعان ما تحطمت في ظل الاحتلال.

ولم يكن تحطم الحِرف، والصناعات المنزلية أمراً ضارًّا في حدِّ ذاته، فهي تمثِّل نوعاً من الاقتصاد متخلِّفاً بالنسبة للصناعة الحديثة. ولكنْ بشرط أنْ تحلَّ محلَّ هذه الحِرف صناعةٌ مصرية متقدِّمة.

ولكن هذا ما حاربه الاستعمار الإنجليزي كلَّ الحرب، فقد قالها كُرومر حاكم مصر إذ ذاك: إنه ليكون ضارًّا بمصالح كلٍّ مِن إنجلترا ومصر تشجيعُ أية صناعة قُطنية محمية في مصر.

لقد قال روذستين في عام 1910: إن الإنجليز في الثماني والعشرين سنة التي حكموا فيها مصر، لم يكتفوا بعد إنشائهم ولو صناعة واحدة فحسب، بل قتلوا بالفعل كلَّ ما مِن شأنه أنْ يعود ببعض التقدُّم الصناعي.

لقد كان رؤساء المصالح الحكومية مِن الإنجليز يفضِّلون شراء السِّلع البريطانية، بل كان المكتب الرئيسي لمُشتريات الحكومة المصرية قائماً في لندن وليس في القاهرة! وموظَّفوه فإنجليز وليسوا بمصريين!

وفتـح الاسـتعمار أبـواب الجـمارك المصريـة عـلى مِصْراعيهـا للسـلع الأجنبيـة، لا لتحطِّـم كلَّ صناعـة قائمـة فحسـب، بـل ولتحطـم كلَّ صناعـة يمكـنْ أنْ تقـوم.

لقـد قالهـا ملـنر: إنَّ السـوق المصريـة هامـة لتصريـف البضائـع الإنجليزيـة، بسـبب المنافسـة المتزايـدة لبضائعنـا في التجـارة الدوليـة!

بـل أخـذ الاسـتعمارُ يحـارب الصناعـة المصريـة بالوسـائل الفكريـة، فأصبحـتْ صِبيـة المـدارس تتلقـن أولَ مَـا تتلقـن، أنَّ مـصر بلـدٌ زراعيـة، وأنهـا لا يمكـن أنْ تكـون صناعيـة، بسـبب عـدم وجـود الفحـم والحديـد بهـا!

وقـد اعـترف كرومـر بنتيجـة سياسـته هـذه في تقريـر لـه يقـول: مَـن يُقـارن الحالـة الراهنـة بالحالـة التـي كانـت منـذ 15 سـنة، يـرى فرقـاً ضخـماً؛ فالشـوارع التـي كانـت مُكتظَّـة بدكاكـين أربـاب الصناعـات والحِـرف مِـن غزّالـين وخيّاطـين وصبّاغـين وخيّامـين وصانعـي أحذيـة، قـد أصبحـتْ مزدحمـة بالقهـاوي والدكاكـين المليئـة بالبضائـع الأوروبيـة؛ أمَّـا الصانـع المـصريُّ، فقـد تضـاءل شـأنُه، وانحطـت كفاءتُـه عـلى مـرِّ الزمن، وفسـد لديـه الـذوق الفنـي الـذي طالمـا أخـرج في العـصر القديـم المُعجـزاتِ في مفاخـر الصناعـة.

نعـم! المقاهـي والبضائـع الأوروبيـة بـدلاً مِـن المصنوعـات المصريـة! ثـم ينـسَى كرومـر السـبب: السياسـة الاسـتعمارية المُناهضـة لنشـأة صناعـة مصريـة!

وإنْ كانـتْ نشـأتْ بعـضُ صناعـات، فهـي هـذه الصناعـات التـي لا مفـرَّ منهـا، كـشركات الميـاه والنـور اللازمـة لتحقيـق الرفاهيـة للأجانـب المُقيمـين في مـصر والمُترفـين مـن المصريـين، أو بعـض الصناعـات التـي كان لابـد منهـا لمصلحـة المُسْـتعْمِر نفسـه، كالمَحالِـج والمَكابِـس، إذ أنَّ نقـل القُطـن غـير المحلـوج أو مكبـوس إنَّمـا يمثِّـل عبئـاً كبـيراً في نقلهـا البحـري، أو مـدِّ خطـوط حديديـة جديـدة، والسـكك الحديديـة التـي أنشـأها المُسـتعمِرون إنمـا قـد أُنشـئت أساسـاً لخدمـة نقـل القطـن إلى الموانـئ، لا لتسـهيل النقـل والتجـارة الداخليـة، فقـد لاحـظ الدُّكْتـوران: الشربينـي وشريـف أنَّ شـبكة السـكك الحديديـة إلى يومنـا هـذا لا زالـتْ قـاصرة عـلى الـوادي الضيـق للنيـل، بشـكل يـوازي مَجـرى النهـر، مجتهـدة أنْ تربـط البـلاد بموانـئ التصديـر، فليسـت هنـاك شـبكة في عـرض البـلاد تربـط الريـف بالمـدن.

وقد اجتهد الاستعمار أن تكون كلُّ الشركات التي أنشأها أو سمح بها، شركاتٍ أجنبية أساساً، حتى أصبح النشاط الاقتصادي يتركّز - كما يقول صبحي وحيدة - في يد العناصر الأجنبية التي تموّل وتشرِف عليه، فيما عدا الأعمال البسيطة، وأصبحتْ الثروة المنقولة، مُعظمها، في يد هؤلاء الأجانب، بينما انكمش المصريون في نطاق الزراعة.

*مزرعة قطنية رخيصة:

لقد أراد الاستعمار أنْ تكون مصر مزرعةً قطنية، تمدُّ مصانعَه في إنجلترا بالقطن المصري بأرخص الأسعار، فنرى أنَّ المساحة المزروعة قطناً قد زادتْ مِن نصف مليون فدان عام 1871 إلى 1.700.000 فدان في عام 1913 وارتفعت نسبة صادرات القطن من 70% من جملة الصادرات عام 1870 أيام إسماعيل إلى 93% فيما بين 1910 - 1914.

وقد استولى الاستعمار على القطن المصري بأرخص الأسعار. ويكفي أنْ نقارن ما بين صادرات عام 1870 وعام 1898. ففي عام 1870 صدَّرتْ مصر قطناً مقداره ثلاثة ملايين وربع مليون قنطار قيمتها ثمانيةُ ملايين وربع مليون جنيه، وفي عام 1898 بلغ مِقدار ما صدَّرته مصر 6 ملايين قنطار قيمتها ثمانية ملايين ونصف مليون جنيه.. أي ضعف المِقدار من القطن مُقابل نفس الكمية من النقود!

وبينما كانت مصر تصدّر إلى الخارج من المنسوجات في عام 1870 ما قيمته 62 ألف جُنيه، إذا بها تستورد مِن المنسوجات ما قيمته تسعة ملايين ونصف مليون جنيه عام 1916. وبينما كانتْ مصر تصدِّر إلى الخارج من المواد الغذائية ما يُقدَّر بمليونين من الجنيهات عام 1870، أصبحت تستورد مِن المواد الغذائية ما قيمته ستة ملايين مِن الجنيهات عام 1916.

* القطن على حسابِ المواد الغذائية غذاءُ الشعب.

* القطن على حساب الصناعة المصرية كِساءُ الشعب.

* ثمَّ ضعف الكمية مِن القطن لقاء نفس الكمية من النقود.

* ثمَّ اعتماد الاقتصاد المصري كلُّه على محصول واحد إذا هبطت أثمانُه اهتز كِيان الاقتصاد بأسْرِه.

* وهكذا أصبحتْ مصر مزرعةً قطنيةً رخيصةً.

* وهكذا كانتْ سياسة الاستعمار.

*الرطلَ الكاملَ مِن اللحم:

كما كانت سياسة الاستعمار المالية في مصر قائمةً على أنْ تؤدي مصر أرباح الديون التي اقترضتْها كاملة.

لقد أقرضنا الاستعمار 100 مليون جنيه، لم تنتفعْ مصر مِنها في شكلٍ مشروعات بأكثر مِن خمسين مليون في أحسن الأحوال، وذهب الباقي هباءً، في شكل سمسرة، أو عمولة، أو تبذير من جانب إسماعيل.

أتدري كم تقاضَى منا الاستعمار مقابل الخمسين مليون هذه، أرباحاً لها وفوائد، لقد بلغ مجموعها 250 مليون جنيه، فيما بين 1876 و 1943.

ومع كلِّ ما دفعناه فقد استمر الدَّينُ الأصلي حتى 1944، قرابة 87 مليوناً مِن الجنيهات! اشتريناها نحن بأموالنا بموجِب قانون التحويل الذي صدر في سبتمبر عام 1943.

إنَّ شيلوك الإنجليزي لم يتقاض منَّا الرطلَ الكامل مِن اللحم فحسب، وإنما تقاضاه أيضاً مِن الدم، دمُ الملايين مِن الفلاحين والعمال!

*أعلى رِبْحٍ ممكن:

وقد أراد الاستعمار أنْ تكون مصر مَصْدَرَ ربحٍ لرؤوس أمواله، أعلى ربح ممكن.. فقد بلغ ما وظَّفه مِن أموال أجنبية في بلادنا 250 مليون جنيه وفق تقديرٍ صادرٍ في سنة 1913... كانتْ تبلغ أرباحها في العام الواحد 25 مليون جنيه، تذهبُ معظمُها إلى جيوب المُمَوِّلين في الخارج لا مصر.

أتدري أنَّ قرابة مائة مليون من هذه الأموال كانتْ موظَّفة أساسيًّا في شركات الرهن العقاري وما شابهها! مائة مليون مهمتُها سرقة الفلاح الصغير والمالك المتوسط والكبير بما تفرضُه من فوائد فادحة تنتهي في أكثر الأحيان إلى المُصادرة، حتى لقد بلغتْ الأطيان المرهونة أوائل 1891 أكثر مِن مليون وثلث مليون فدان!

وبلغت الرُّهونات على هذه الأطيان كما قدَّرها كرساكي 51 مليون جنيه بخلاف القروض التي يعْقدها المُرابون ومعظمهم من الأجانب.ثمَّ المائة والخمسون مليوناً الباقية! مَا شأنها ؟. توظَّف معظمها في تمويل القطن وحَلْج وكبْس القطن وتصدير القطن... ثمَّ بعض المرافق العامة مِن نور ومياه للسادة المُتْرفين.

هذا في الوقت الذي اجتهد فيه الاستعمار أنْ يربط نقدنا بالعملة الأجنبية، فكان الغِطاء للبنكنوت المصري مكوَّناً أساساً من أذونات الخزانة البريطانية وسندات الحرب البريطانية. وكان البنك الأهلي المصري اسماً، البريطاني فعلاً، يوظف أكثر من 70% من أصوله أوراقاً مالية، غالبيتها الساحقة مؤلَّفة من سَندات الحكومة البريطانية، فكانت أيَّةُ هِزَّةٍ تصيب الاقتصادَ البريطاني لها ردُّ فعلها بلا مُبرر على اقتصادنا.

هكذا كانتْ سياسة الاستعمار البريطانية.

* مصرُ مزرعة قطنية رخيصة.

* وسوق لسلع الاستعمار الاحتكارية.

* ومَوْرِد ربح فاحش، أعلى ربح ممكن لرؤوس أمواله المُصدَّرة، ثمَّ الرطل الكامل من اللحم والدم، مقابل الديون التي أقرضها.

وهكذا كانت سياسة الرأسمالية التي تطوَّرت إلى مرحلة الاحتكار. مرحلة الاستعمار.. سياستها في كلِّ مكان استطاعت أنْ تحتله أو تسيطر عليه سياسيًّا أو اقتصاديًّا.

الفصل الثاني
الاستعمار والسيطرة السياسية

•الحاكمُ بأمره:

وكما أصبح للاستعمار السيطرةُ الاقتصادية، فقد أمستْ له السيطرة السياسية أيضاً، فالمُعتمِد البريطاني هو الحاكم بأمره، والدستور الذي فاز به الشعب عام 1882 قد حُطِّم، والبرلمان المُنتخَب قد ألغِي، وأصبحتْ مصر بلا برلمان أو دستور.

كما حطَّم الاستعمارُ الجيشَ المصري، فجرَّد جميع الضباط الذين اشتركوا في الثورة العُرابية من رتبة ملازم ثانٍ إلى يوزباشي من رتبهم. وحُوكِم كبار الضباط بجريمة العصيان... العصيان ضدَّ التدخل الاستعماري والاحتلال! وكوَّن جيشاً هزيلاً بقيادة ضُباط إنجليز ليكون أداةً مسخّرة في يد الاحتلال ضدَّ شعب مصر وضدّ شعب السودان. كما سيطر الإنجليز على البوليس، فأصبح له ضُباط ومُفتش عام كلُّهم من الإنجليز.

وأصبحت السيطرة للإنجليز في كل شيئ. المستشار المالي إنجليزي، والمستشار القضائي إنجليزي، والمستشار في وزارة المَعارف وسكرتيرُها العام إنجليزي، والمستشار في وزارة الداخلية إنجليزي، بل والنائب العام أصبح إنجليزيًا هو الآخر!

لقد زاد عدد الموظَّفين البريطانيين من 100 موظف أوائل سنة الاحتلال إلى 1600 في عام 1919!

كما قلّ نصيبُ المصريين في الوظائف الكبيرة من 27.8% سنة 1905 إلى 23.1% سنة 1920، أي أقلُّ من الرُّبْع!! في الوقت الذي زاد فيه عددُ الموظَّفين البريطانيين في هذه الوظائف مِن 42.2% إلى 59.3% فيما بين 19.5 - 1920!

وأصبحت الوزارة المصرية تأتمِرُ بأمر الإنجليز، مجرَّد "نمر" توضع على مسرحِ السياسة المصرية، فقد أرسل وزير خارجية إنجلترا برقيتَه المشهورَة في 4 يناير سنة 1884.

"ما دام الاحتلال البريطاني قائماً في مصر فلابد مِن اتِّباع النصائح التي تُرسِلها حكومة جلالة الملكة (ملكة إنجلترا) إلى الخديو... ويجب على الوزراء والمديرين المصريين أنْ يكونوا على بيِّنة مِن أنَّ الحكومة البريطانية تصرُّ على اتِّباع السياسة التي تراها. ومن الضروري أنْ يتخلَّى عن منصبه كلُّ وزير أو مدير لا يسير وفقاً لهذه السياسة... وإذا اقتضى الأمرُ استبدال أحد الوزراء فهناك مِن المصريين مَن على استعداد لتنفيذ الأوامر التي يُصْدرها إليهم الخديو، بناءً على نصائح حكومة جلالة الملكة.

وهكذا انحدرتْ هذه الفئة من المصريين.

*سندُ الاستعمار:

وكان سَنَدُ الاستعمار هُم فئةُ كبار مُلاك الأرض، طبقة الإقطاعيين الذين يستغلون الفلاحين عن طريق إيجار الأرض... لقد ارتفع في ظلِّ الاحتلال عدد المُلاك الذين يملكون أكثر من 50 فداناً من 11.220 مالكاً سنة 1894 إلى 12.480 مالكاً سنة 1914، وزادتْ أملاكُهم مِن 1.997.000 فداناً في سنة 1894 إلى 2.397.000 فداناً في سنة 1914.

ومِن هؤلاء جند الاستعمار الوزراء! ومِن هؤلاء كان مَا يُسمَّى بالذَّوات والكُبراء!

وهؤلاء هم الذين وصفهم محمد فريد بقوله: لو كان ذواتُنا وكُبراؤنا مِن ذوي الشَّرف وأصحاب النخوة لامتنعوا عن قبول الوظائف العالية بهذه الحالة، ولكنَّ

الـكلَّ يَغَـارُ عـلى مَاهيَّتِـه وأُبَّهتِـه أكـثر مـما يَغَـارُ عـلى اسـمِه واسـتقلال وطنـه. وكيـف يكونـون غـير ذلـك وهـم الذيـن سـاعدوا الإنجليـز عـلى احتـلالِ بلادهـم، ويسـاعدونهم الآن عـلى إكـمالِ ضمِّهـا لأملاكِهـم".

وهكذا كان الإقطاعيون في مصر سندَ الاحتلالِ ودعامة الحكم الأجنبي...

وهكـذا بلغـتْ المَهانـةُ بالحُكـم في مـصر، المُعْتمِـد البريطـاني والموظفـون الإنجليـز عـلى رأسِ البـلاد. ومِـن ورائهـم عـددٌ ضخـم مِـن الأجانـب الذيـن يتمتعـون بالامتيـازاتِ الأجنبيـة التـي كانـت تخـوِّل لهـم قتـلَ المـصري دونَ عِقـاب. وربـح أكـبر ربـح ممكـن دون أنْ يجـرؤ أحـدٌ عـلى فـرض ضريبـة واحـدة، ثـمَّ تهريـب أرباحهـم خـارج مـصر، ثـمَّ الاسـتهتار بـكلِّ قانـون، واللعِـب بـكلِّ نظـام تحـتَ حمايـةِ قَنَاصِلهـم.. فهـم فـوقَ القانـون وفـوقَ النظـام.

*ثقافة مصر:

وكـما حطَّـم الاسـتعمار اقتصـاد مـصر، وحريـة مـصر، وكرامـة الحُكـم فيهـا، فقـد حطَّـم ثقافتَنـا.. تحـوَّل التعليـمُ إلى كَتاتيـب؛ لقـد أصبـح التدريـس حتـى في المـدارس الابتدائيـة في بعـض المـواد باللغـةِ الإنجليزيـة! ولم يكـن هـمُّ المـدارس المصريـة إلا تخريـجَ الكَتَبَـةِ لدواويـن الحكومـةِ.

واسْـتَبْعَد الاسـتعمارُ مِـن التعليـم دراسـةَ التاريـخ القومـي، وهبـط مسـتوى التعليـم الثانـوي، فأصبـح يُعـادل بوجـهِ التقريـبِ التعليـمَ الابتـدائي في فرنسـا، كـما يقـول ناظـرُ مدرسـة الحقـوق المصريـة الفرنـسي.

ولقـد كان أقـلُّ مـا أُنْفِـق عـلى التعليـم في الخمسـةِ والعشريـن سـنةً الأولى مـن عهـد الاحتـلال 2.800.000 جنيـه مِـن ميزانيـة بلغـتْ في نفـس الفـترة 258 مليـون، أي بنسـبة 1% فقـط مِـن ميزانيـة الحكومـة، ولم تـزدْ نسـبة مَـا يُنفـق عـلى التعليـم أكـثر مِـن 3% مـن ميزانيـة الحكومـة بـأي حـال... بـل أُلغيـتْ المجَّانيـةُ وزيـدتْ مَصْرُوفـات المـدارس الثانويـة.

وأُغلقـتْ الجرائـد الوطنيـة، إذ صُـودِرت "مـرآة الـشرق"، وجريـدة "الزمـان" و "السـفير"، وحُـرِّم عـلى مجلـةِ "العـروة الوثقـى" أنْ تدخـل مـصر، ولم يبـق إلا صحـفٌ تُمجِّـد الاحتـلال.

لقـد ظهـرتْ "الأهـرام" في 29 سـبتمبر سـنة 1882"حاملـةً عـلى العـاصي عُـرابي ورِفاقِـه البُغـاة" نـاشرةً صـورةً في صدْرهـا للجـنرال ولسـلي قائـد الحملـة الإنجليزيـة عـلى مـصر!

واسـتقبلتْ صحيفـة "الوطـن" الاحتـلال اسـتقبالاً مُنقطـع النَّظـير. فتراهـا تقـول في أحـد أعدادهـا: "إنَّ جريـدة الوطـن دون غيرهـا طَالمـا وافقـتْ عـلى سياسـةِ إنجلـتر، ونـشرتْ مآثـرَ أهلِهـا ومـكارِمَ أخلاقهـم"!

هكذا بلغ الانحِدار بالثقافةِ الوطنية والصُّحُفِ المَحلية!

الفصلُ الثالث
انبعاث الحركة الوطنية

•معارضة هزيلة:

رحَّب الإقطاعيون المصريون - وعلى رأسهم الخديو - بالاحتلال الإنجليزي، لقد أصدر توفيق أمراً في 14 أغسطس 1882 قائلاً:

"وليكن معلوماً .. أنَّ أمير الأسطول الإنجليزي، وقائد الجيوش البريطانية العام إنَّما أتيا إلى مصر لإعادة الأمن والنظام إليها، ومِن ثمَّ قد سمحنا لهما باحتلال جميع الأمكنة التي يَريان في احتلالها ما يساعد على قمع العصيان!

وعاد توفيق إلى القاهرة يوم 25 سبتمبر سنة 1882 تُحيطه حِرابُ خمسة آلاف جندي بريطاني، ويجلس على يَسَاره في مَرْكَبَتِه المُذهَّبة الدوق أوف كنوت، وأمامَه الجنرال ونسلى قائد الحملة، والسير إدوارد مالت!

وارتفعت في مشربيات البيوت الأرستوقراطية الزغاريد!

وكان الإقطاعيون ينتظرون كلَّ الخير على يد قوات الاحتلال، كانوا ينتظرون مشاركةً لبريطانيا في حُكم مصر، ولكنَّ الاستعمار أبى إلا أنْ ينفرد بالحُكم، وأبى إلا أنْ يكون له كلُّ النفوذ السياسي، حتى ليقول الرافعي: إنَّ محمد سلطان باشا وهو

مِـن كبـار الخونـة الذيـن طعنـوا الثـورةَ العُرابيـة مِـن الخلـف، وسـار عـلى رأس قـوات الاحتـلال يدلُّهـم عـلى الطريـق، وقـد نَـدِمَ عـلى موقفـه في الحـرب العُرابيـة وانضمامـه إلى الإنجليـز، ومسـاعدته لهـم عـلى التغلغـل في البـلاد، وشـعر بنقمـة النـاس عليـه، فنـزل بـه مـرضٌ ألـحَّ عليـه.

ومِن ثمَّ بدأتْ بعض المعارضة مِن جانب الإقطاعيين.

وفي الوقـت نفسـه كان الاسـتعمار الفرنـسي حاقـداً عـلى الاسـتعمار الإنجليـزي أنْ انفـرد بالسـيطرة عـلى مـصر .. ولهـذا بـدأتْ أموالـه تُغْـدَق عـلى الصُّحُـف .

وبـدأتْ الأهـرام تنحـرف كـما يقـول الدكتـور إبراهيـم عبـده، عـن الاحتـلال ودُعاتـه منـذ سـنة 1884، وأخـذتْ تنـشر مـآسي مـصر، فتقـول عـلى لسـان صحيفـة بريطانيـة: يلـوح أنَّ مـصر في الحـاضر أسـوأ منهـا يـوم تـولى الإنجليـز إدارةَ السياسـة المصريـة، وتنعَـى عـلى مَـن وافـق عـلى إخـلاء السـودان بنـاءً عـلى أوامـر الإنجليـز، وتنـشر حديثـاً لمديـر الأهـرام مـع ولسـن عـن حالـة مـصر، فـإذا مَـا سـأله ولسـن عـن حـالِ البـلاد أجابـه بأنهـا سـيئة بفِعَـال أبنـاء بلدتـه.

ويرحـب الإقطاعيـون بهـذه المعارضـة الصحفيـة مِـن جانـب الأهـرام، فتنـشر الأهـرام في 4 أغسـطس سـنة 1884 خطابـاً مِـن علـماء ووزراء ونـواب شُـورَى وغيرهـم مِـن الإسـكندرية يمدحـون لهـا مواقِفَهـا مِـن مصالـح مـصر.

وتنـال الأهـرامُ مِـن أجـل هـذا بِـرَّ الدولـة العثمانيـة بهـا وعطـفَ فرنسـا. فـإذا مـا عطَّلتهـا الحكومـة المصريـة شـهراً احتجَّـتْ القنصليـة الفرنسـية.

وهكـذا كانـتْ خطَّـة الإقطاعيـن الاسـتعانة بنفـوذ فرنسـا والاسـتعانة بتركيـا مِـن أجـل الفـوز ببعـض النفـوذ السـياسي في حُكـم مـصر.

ومـات توفيـق، وتـولى عبـاس، فاشـتدتْ المعارضـة الإقطاعيـة، فقـد وجـد عبـاس الشـاب أنـه لا يَملـك ولا يَحكُـم وإنَّ الأمـرَ كلَّـه بيـد كرومـر.

وإليـك مـا يقولـه لطفـي السـيد في حديـثٍ لـه: لقـد كُنـا سـبعةً فكوَّنَّـا جمعيـةً سريـة تحـت رعايـة الخديـو عبـاس. وكانـتْ الكلمـة في تحريـر مـصر يومئـذ في أوروبـا عـلى العمـوم وفرنسـا عـلى الخصـوص. ومـن أجـل هـذا تقـرَّر أنْ أُوفَـد إلى سـويسرا للحصـول عـلى الجنسـية السـويسرية حتـى أعـودَ إلى مـصر وأقـوم بتحريـر صحيفـة تحميهـا الامتيـازاتُ الأجنبيـة!

ولم يَعُدْ يكفي الإقطاعيين معارضةُ الأهرام الضعيفةُ الهزيلةُ، فكان أنْ قامتْ جريدة المؤيد في ديسمبر عام 1888 لصاحبِها الشيخ علي يوسف. وتكوّن حول الجريدة شبْهُ حزبٍ، حزبُ السَّراي، إذ كان التناقض قد بلغ أشده ما بين عباس وكرومر، بل وما بين رياض رئيس الوزراء وبين كرومر.

ولكنَّ الاستعمار الإنجليزي كان الأقوى عسكريًّا واقتصاديًّا، فلم تستطع المعارضة الفرنسية أنْ تستمر طويلاً.. وتمَّ الاتفاق بين الاستعماريين في 8 إبريل سنة 1904 على ألا تُعرقل فرنسا عملَ إنجلترا في مصر، وعلى ألا تُعرقل إنجلترا عملَ فرنسا في مراكش!

إنه التقسيم لمناطق النفوذ بين حِفْنةٍ مِن الدول الاستعمارية الكُبرى.

وسُرعان مَا خَفَتَ صوتُ الأهرام. بل خَفَتَ صوتُ المُؤيد. أستغفر الله! لم يَخْفُتْ فحسب، ولكنَّ صاحبَها الشيخ على يوسف ذهب في زيارة إلى لندن ليقول: إنَّ لوندرة كعبةُ المصريين السياسية!

ولم يجِفْ حِبرُ الاتفاق الودي بين إنجلترا وفرنسا، حتى نجد رياض باشا، رئيس وزراء مصر ذاك الزمان، يقوم في احتفال في 23 مايو عام 1904 ليقول: جناب المُحْتشم، اللورد كرومر، أعتذر اليوم عن الحضور في هذا الحفل والكلُّ يعلم مَا له مِن المقام الأرفع والنفوذ الشامل في هذه البلاد! وبالأخصِّ ما له مِن اليد الطولَى في كلِّ ما له مساسٌ بالمصالح والمنافع العمومية، فهو اليد الفعَّالة! وقد شملتنا، وهي التي كانتْ لنا مِعْواناً.

كلمات تنزيَّن بالخيانة، ويفوحُ منها نَتَنُ الصَّديد! قالها رياض أمام عباس خديو مصر نفسه، فلم يغضب عباس، ولم ينسحِب، ولم يحتج!

لقد انزوى الكبار والذوات، وعلى رأسهم عباس، وآثروا الانضواءَ تحت لواء الاحتلال والتسليم التامِّ للإنجليز.

واشتدتْ الحركة الوطنية كما سنرى، وبرز الحزبُ الوطني، تحت قيادة مصطفى كامل، فماذا صنع الإقطاعيون!

لقد أخرجوا صحيفة تُسمَّى الجريدة، وظهر حزبٌ سمَّى نفسَه بحزب الأمة. فتكوّن كما قال لطفي السيد أحد زعمائه من كِبار البلاد وأعيانِها وأذكيائها.

ومِن أهم مؤسسيه محمود سليمان باشا، وحسن باشا عبد الرازق، مِن كبار مُلاك الأرض ومن أصدقاء الاحتلال.

وماذا كان برنامج حزب الأمة ؟ تحقيق الأماني الوطنية باتفاق يتمُّ بين الاحتلال وبين الأعيان المصريين وحدهم، وحدهم! ولماذا ؟ لأنَّ هؤلاء الأعيان هم أصحاب المصالح الحقيقية، وهم يرضون بالقليل، والقليل جدًّا مِمَّا يتفضل به الاحتلال، حتى تتوافر الكفايات للحُكم الذاتي.

وما هو الحُكم الذاتي ؟ هو حُكم الأعيان في ظلِّ الاحتلال!

فالحزبُ يقول في جريدته: لسنا نطلب الاعترافَ باستقلال حكومتِنا المصرية؛ لأنَّ استقلالَها ثابتٌ معترفٌ به بالمُعاهدات الدولية! ولكن الذي نُطالب به هو استرداد حقوق الأمة الطبيعية، بأنْ تكون لها في مصر كلُّ السلطة التشريعية تدريجيًّا، أمَّا الاحتلال الإنجليزي فإنَّه قوة أتتْ بها ظروف سياسية مُرتَّبة، وتذهب إلى ظروفٍ سياسية مُرتَّبة كذلك.

ومَا هي الأمة في نظر كِبار المُلاك هؤلاء، الذين يطالبون لها بالسُّلطة التشريعية ؟ إنَّ الأمة لا تتكوَّن مِن الأفراد، بل تتكوَّن مِن العائلات، والأعيان هم رؤساء الأمة الطبيعيون؛ لأنَّهم رؤساء العائلات! كأن ليس في الأمة رؤساء عائلات فقيرة عاملة وكادحة!

وكيف السبيل حتى لتحقيق هذه المَطالب الإصلاحية التافهة؟ إنَّها الطرق السلمية المشروعة التي لا تمسُّ مصلحة الأجانب، ولا تجعل للإنجليز ذريعة جديدة لتثبيت مركزِهم في مصر.

أمَّا التَّطرف مِن جانب الجمهور فالحزبُ لا يوافِق عليه؛ لأنَّه يؤدي إلى العِناد والقسوة من جانب الاحتلال القوي! ولأنَّنا نظلم الإنجليز إذا لم نعترفْ بالتحسين المادي والإداري الذي وصل إلى مصر في عهد الاحتلال!

التحسين المادي! لم يصلْ إلى مصر! ولكن وصل إلى كبار الملاك هؤلاء، لقد زادوا عدداً، كما زادتْ أراضيهم اتساعاً!

هذه النِّعمة، سنسمعها مرةً أُخرى في 1922 من حزب الأحرار الدستوريين، حزب أصحاب المصالح الحقيقية، حزب عدم إغضاب الإنجليز، والتفاهم معهم بأي شكل. نفسُ الرجال بل نفس الطبقة ونفس العقلية! وإنْ اختلفتْ الظروف!

*قيادةُ الحركة الوطنية:

لم تظهر قيادة الحركة الوطنية كشيئ مستقل بارز أولَ الأمر، إنما ظهرت أولَ ما ظهرت خلال المعارضة التي قام بها الإقطاعيون. لقد ظهر صوت مصطفى كامل أولَ ما ظهر على صفحات جريدة الأهرام، وكان مصطفى كامل أحدَ أعضاء الجمعية السِّرية التي أشار إليها لطفي السيد، والتي كانتْ تعمل تحت رعاية الخديو عباس، وكانت الاتصالات وثيقة أولَ الأمر بين مصطفى كامل والخديو عباس. ولهذا تأثر أسلوب القيادة الجديدة للحركة الوطنية بأسلوب المعارضة الإقطاعية، فكان مصطفى كامل يعلِّق كبيرَ الأمل على مساعدة فرنسا، وكان يرجو كثيراً مِن الخير على يد تركيا، وكان مركزُ الثقل في دعايته الوطنية أولَ الأمر في الخارج لا في مصر، في فرنسا وسويسرا ولندن واستانبول، لا في القاهرة!

ولكن صوت القيادة الجديدة للحركة الوطنية بدأ يتمايز عندما تراجع الاستعمار الفرنسي أمام قوة الاستعمار الإنجليزي. وعندما أخذ عباس والكُبراء والذَّوات يتراجعون عن المعارضةِ ويستسلمون.

وقالها مصطفى كامل في حديث له: إنَّنا لم نيأس ولن نيأس أبداً من مستقبل الوطن العزيز.. ولكنَّنا يائسون كلَّ اليأس مِن أي تعْضِيدٍ يأتينا مِن أوروبا، وأصبحنا نوجه هِمَّتنا ونشاطنا لتعليم الأمة وتربيتِها بإنشاء المدارس في أنحائها، حيث ينشأ الشباب على أشرف المبادئ الوطنية .. ويتعلَّمون مِن الصِّغر تاريخ العظمة السالفة ويُربَّون على الثقة بالمستقبل.

لقد بدأ مركز الثقل لقيادة الحركة الوطنية في دعايتها يتَّجه إلى الشعب المصري لا أوروبا، وليس مصادفة أنْ تظهر جريدة اللواء، جريدة مصطفى كامل في يناير سنة 1899، وليس مُصادفة أنْ تنشأ مدرسة مصطفى كامل عام 1899 لتخريج رجال خلائقُهم محبة الوطن والارتباط بعضهم ببعض والتفاني في خدمة البلاد.

ليس مُصادفة كلُّ هذا، إذ أنَّ هذين الحَادثين لم يتمَّا إلا بعد حادثة فاشودة أواخر عام 1898، حين تراجع الاستعمار الفرنسي أمام الاستعمار الإنجليزي، وحين انسحب من فاشودة في أقصى السودان. وحين أخذ الخديو ومعه الكُبراء والذوات في التراجع هم الآخرون عن معارضة الاحتلال الإنجليزي.

وأخـذ منـبر القيـادة للحركـة الوطنيـة يـزداد وضوحـاً، فلـم يقتـصر عـلى الدعـوة للجـلاء، وإنَّمـا امتـد إلى المُطالبـة بالدسـتور، فكتـب مصطفـى كامـل في أكتوبـر سـنة 1900: إنَّ هـذه البـلاد في حاجـة إلى مجلـس نيـابي يكـون له السـلطة التشريعيـة الكُبرَى، فـلا يُسَـنُّ قانـونٌ بغـير إرادتـه. إنَّ بقـاء السـلطة المطلقـة في يـد رجـل واحـد سـواءٌ كان مصريًـا أو أجنبيًّـا يـضرُّ بالبـلاد ويجـرُّ عليهـا الوبـال.

إذاً فقـد بـدأ انفصـال قيـادة الحركـة الوطنيـة عـن المعارضـة الإقطاعيـة، وعـن الخديـو... وأصبحـتْ موجَّهـةً ضـدَّ الاحتـلال والإقطـاع معـاً.. وبـدأ مصطفـى كامـل يخاطِـب الطبقـة التـي يمثِّلهـا بـكلام واضـح صريـح فيقـول: متـى تخلَّصـتْ التجـارة مِـن المَلَـلِ الـذي يُسـبِّبه لهـا الاحتـلال الإنجليـزي فسـتفتح لنـا آفاقـاً ذهبيـة.. ومتـى تخلَّصـتْ الصِّناعـة مِـن العوائـق التـي يخلقهـا لهـا الاحتـلال في الجـمارك.. فسـترقَى الصناعـة الأهليـة وتعـود فائـدة رُقيِّهـا عـلى أبنـاء مـصر. كـما تُـصرح جريـدة اللـواء، في عددهـا الأول الصـادر في 2 ينايـر سـنة 1900 قائلـة: إنَّ خطـة الجريـدة هـي ترقيـة التجـارة والصناعـة.

وفي 30 أكتوبـر سـنة 1900 تكتـب اللـواء: إنَّ الاهتـمام بالصناعـات يخلـق روح الصناعـة، وهـو بـلا مِـراءٍ أسْـمَى خدمـة تقـدَّم إليهـا وأكـبر سـعادة تجهَّـز لرجـال الغـد.

وهكـذا كانـتْ القيـادة الجديـدة للحركـة الوطنيـة، قيـادةً تمثِّـل المثقفـين الذيـن يعـبِّرون عــن التُّجـار الذيــن أصابهـم الضيـقُ بسـببِ سـيطرة الاحتـلال، والصناعـة الناشـئة التـي كان الاسـتعمار يحـاول تحطيمَهـا بكافـة الأسـاليب.. ثـمَّ أثريـاء الريـف الذيـن كانـوا يضرُّهـم كلٌّ مـن الاسـتعمار والإقطـاع.

وزادت القطيعـة بـين قيـادة الحركـة الوطنيـة ومُمثـلي الإقطـاع، إثـر اتفـاق إنجلـترا وفرنسـا عـلى اقتسـام كلٍّ مِـن مـصر ومراكـش عـام 1904، فيرتفـع صـوت مصطفـى كامـل مُغْضَبـاً: لقـد استسـلمتْ حكومتنـا للاحتـلال استسـلاماً أبعـد عنهـا كلَّ مُحـبٍّ لهـا.. كلَّـما كـبُرتْ همـوم الوطـن وعظمـت مصائبُـه، نحـن نخاطـب الأمـة ونوجِّـه مسـاعينا إليهـا.

*تنظيمٌ وتحريكٌ:

ولم تكتـف قيـادة الحركـة الوطنيـة بالخُطَـب والحمَـلات الصحفيـة، إنَّمـا بـدأتْ بالتنظيـم للشـباب المُثقـف في سـنة 1905، وذلـك بإنشـاء نـادي المـدارس العُليـا الـذي كان يجمـع مـا بـين طلبـة هـذه المـدارس وخريجيهـا.

وحـين أضْرَبَ طلبـةُ كليـة الحقـوق، ضيقـاً بالنظـام الاسـتبدادي الـذي وضعـه لهـم دنلـوب الإنجليـزي، اتَّجـه الطلبـة نحـو جريـدة اللـواء واتَّخذوهـا لسـانَ حالهـم، وكان أنْ اتَّصـل الطـلاب بالحركـة الوطنيـة، وبـدأ تشـبُّعهم بالمبـادئ الاسـتقلالية، لقـد أصبحوا جنـودَ اللـواء، ومصطفـى كامـل.

دنشواي:

قـد كانـت مجـزرة دنشـواي إيذانـاً باشـتعال الحركـة الوطنيـة. فـمَا هـي مجـزرةُ دنشـواي؟

بِضْـعُ ضبـاط مـن الإنجليـز يصطـادون الحـمام، في أجـران القمـح، فتصيـب رصاصاتُهـم الطائشـة امـرأة، فتسـقط غارقـةً في دمائهـا، وتشـتعل النـار في الجُـرن، ويُقْبِـل الرجـال والنسـاء صائحـين: الخواجـة قتـل المـرأة، الخواجـة حـرق الجـرن، وأطلـق الإنجليـز النـار عـلى الجميـع، فأصابـوا شـيخ الخفـر الـذي جـاء يُنقِذهـم، وحمـل الفلاحـون عـلى الضُّبـاط الإنجليـز بالطـوب والعِصي الغليظـة، وكان أنْ أُصيـب إنجليـزي بكسرٍ في ذراعـه، وجُـرِح آخـران، ومـات ثالـث وهـو في الطريـق إثـرَ إصابتـه بضربـة شـمس.

وهـبَّ الاحتـلال مُزمجـراً، ونصـبَ المشـانق قبـل أنْ تُعقـد المُحاكمـة! وشُـكِّلتْ محكمـة برئاسـة بطـرس غـالي وزيـر الحقَّانيـة، وعضويـة إنجليزيـين وعضويـة فتحـي زغلـول رئيـس محكمـة مـصر الابتدائيـة.

وصـدر الحُكـم بإعـدام حسـن عـلي محفوظ، شـيخ طاعـن في السـنِّ يبلغ الخامسـة والسـبعين، ويونـس حسـن سـليم، والسـيد عيـسى سـالم، ومحمـد درويـش زهـران.. ثـمَّ الحُكـم بالأشـغال الشـاقة عـلى عـدد كبـير.

ونُفِّـذ الحُكـم عـلى مـرأى مـن أهـل المشـنوقين بـين ولولـة النسـاء وصُراخ الأطفـال ولعنـات الرجـال: لعنـةُ اللـه عـلى الظَّالمـين.

وحَزِنت مصرُ كلُّها.

وارتفع صوت مصطفى كامل في صحف أوروبا يكشف عن فظاعة الاحتلال.

لقد تركتْ مجزرة دنشواي جُرْحاً غائراً، لم تغفره مصر، ولن تغفره للاحتلال البغيض.

وكان أنْ اشتدَّ ساعدُ الحركة الوطنية.

*الحزب الوطنيّ:

أخذت الحركة الوطنية تنظِّم صفوفَها، وأُعلن عن تكوين الحزب الوطني في 10 أكتوبر سنة 1907.

وارتفع صوت مصطفى كامل في خطبة الافتتاح واضحاً: لقد قُطِع الأمل مِن العون الأجنبي، لقد قُطِع الأمل في الكبار والذوات، لقد انقطع ما بينه وبين الخديو، ولم يبق إلا الشعب.

فهو يقول: إنَّ العُزلة التي صرنا إليها بعثت فينا روحاً جديدة.. إنَّ الأمم لا تنهض إلا بنفسها، ولا تسترد استقلالَها إلا بمجهوداتها.. ليخرج مِن الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد للمُطالبة بالحق الوطني والحرية الأهلية والاستقلال المُقدس.

كما أصبح واضحاً لدى قيادة الحركة الوطنية أنَّ تحقيق الديمقراطية الحقة في ظلِّ الاحتلال أمر مستحيل، إذ يقول مصطفى كامل: باطلاً يعتقد البُسطاء أنَّ الإنجليز يَقْبلون مَنْحَ أهلِها حكومة دستورية، إنَّ إعطاء المصريين مجلساً نيابيًّا حقيقيًّا لا صورة يُراد بها السخرية وذرُّ الرِّمال في العيون، هو تجريد للاحتلال من كل سلطة.

هذا في الوقت الذي خضع فيه الخديو عباس وكبار المُلاك للاحتلال البريطاني، واكتفوا بالمطالبة بإصلاحات هزيلة لا تُغيِّر مِن جوهر الاحتلال، ولا تمنحنا استقلالاً ولا ديمقراطية، ومِن ثمَّ أصبحتْ الأمةُ في جانب، والاحتلال والإقطاع في جانب آخر.

•محمد فريد

وتابع محمد فريد زعامةَ الحركة الوطنية إثرَ موت مصطفى كامل، وكان أنْ وجَّهها إلى مزيد من الشعبية.

فقطع تماماً ما بين الحركة الوطنية ورأس الإقطاع في مصر، الخديو، لقد استدعاه الخديو إثرَ انتخابه رئيساً للحزب الوطني، ثمَّ عرض عليه - كما يقول محمد فريد - استعدادَه للمُساعدة بالمال، فرفضتُ حتى لا أكون أسيرَه وطوعَ أمره، وانصرفتُ.. رأى الرجل عقب ذلك بأني لستُ مِمَّن يُطيعون أوامره.. فأخذ يدسُّ الدسائس لإسقاطي من جهة، ويظهر لي التودد مِن جهة أُخرى.

وسُجِن محمد فريد، وأرسل له الخديو، في سجنه، الدكتور عثمان غالب يعرض عليه العفو، فقال فريد: أنا لا أطلب العفو، ولا أسمح لأحد من عائلتي بطلبه عني، وإذا صدر العفو فلن أقبلَه.

ولم يعدْ يكتفي الحزب الوطني بقيادة محمد فريد بالحملة الصحفية من أجل الدستور، وإنما أخذ يجمع التوقيعات بطلبِ مجلسٍ نيابيٍّ.

وكان أنْ جمع أكثر مِن 61 ألف توقيع، رفعها إلى الخديو عباس. حتى لينعكس الأمر في مجلس شورَى القوانين، مجلس الأعيان والذوات، ففي ديسمبر سنة 1908 نرَى المجلس يُصدر قراراً يطلب من حكومة الجناب العالي إعداد مشروع قانون يمنح الأمة الاشتراك الفعلي مع الحكومة في إدارة أمورها الداخلية وتدبير شؤونها المحلية.

وكان لهذا أثر في الشعب فلقد بدأت التحركات الشعبية، إذ تَجَمَّعَ طلبةُ كلية الحقوق يومَ عرض الجيش الإنجليزي الذي كان يفرضه الاحتلال إذلالاً لمصر كلَّ عام، تَجَمَّعَ الطلبة يوم 9 نوفمبر سنة 1908 وأخذوا يهتفون: يعيش الاستقلال، وكان لهذا فعل السِّحر في الجموع التي احتشدتْ لتشاهد العرض فرددوا الهتاف، وتجددت المظاهرات في العام التالي وفي نفس المُناسبة، وصاح الجنود الإنجليز: ليحْيى الملك، ملك إنجلترا طبعاً، فردَّ الشعب المحتشد ليحيى الاستقلال، لتحيى الحرية.

كما قامت مظاهرات وطنية أثناء مرور الخديو بطنطا، إذ اصطفَّ طلبة طنطا، لاستقبال الخديو، فما إنْ وقف القطار حتى صاح الطلبة: ليحيا الدستور،

تحيـا مـصر. وكان الهتـاف للدسـتور معـدوداً في ذلـك الوقـت عمـلا عدائيًـا، فقُبـض عـلى الكثـير مِـن الطلبـة، واتُّهِمُـوا بأنهـم أعضـاء في جمعيـة سريـة، وكان ذلـك في 24 نوفمـبر 1910.

واتصلـتْ أفـكار محمـد فريـد بالتيـار الاشـتراكي في أوروبـا، ومِـن ثـمَّ بـدأ يتَّجـه بالحركـة الوطنيـة وجهـةً جديـدة، ألا وهـو الربـطُ أو محاولـة الربـط مَـا بـين حركـة المُثقفـين وحركـة الطبقـة العامـة الناشـئة، فـزاد اهتـمام الحـزب الوطنـي بإنشـاء مـدارس الشـعب الليليـة لتعليـم الصُّنـاع مجانـاً، كـما جـاء في تقريـرٍ لمحمـد فريـد، وأُنشِـئتْ أربـع مـدارس يحتـوي كلٌّ منهـا عـلى حـوالي 120 تلميـذ في مختلـف الحِـرف، وقـد سـاهم نـادي المـدارس العليـا في هـذه الحركـة التعليميـة.

وأكـثر الحـزبُ مـن الاهتـمام بنقابـات العُـمال، فسـاهم في وضـع قانـون لنقابـة عُـمال المصانـع اليدويـة في سـنة 1909.

وكان محمـد فريـد واضحـاً حـين قـال في خطبـةٍ لـه: اشرحـوا للعامـل.. أخرجـوه مـن الظُّـلمات إلى النـور، اشرحـوا لـه حالـة إخوانـه بأوروبـا، ومـا هـم فيـه مـن سـعادة نسـبية بفضـل العلـم والاتحـاد والتضامـن.

وكان لهـذا أثـره في زيـادة قـوةِ الحركـة الوطنيـة، لقـد هـبّ الشـعب متظاهـراً في 26 مـارس سـنة 1909 ضـدَّ القيـود الحديـدة التـي فرضهـا الاحتـلال عـلى الصحافـة... وتجمَّـع آلاف الشـباب مـن طلبـة المـدارس العُليـا والأزهـر وطوائـف التجـار والصنـاع، وسـاروا في مظاهـرة احتجـاج.. تجـدَّدت في أكـثر مـن يـوم، حيـث اصطـدم المتظاهـرون برجـال البوليـس.

وهكـذا اسـتطاع الحـزب الوطنـي أنْ يجـذب الصُّنَّـاع إلى المعركـة السياسـية نتيجـة اشـتغاله بـين صفوفهـم.

بـل اهتـمَّ محمـد فريـد بالعُـمال الزراعيـين، فجـاء في حديـثٍ لـه: يجـب إيجـاد النقابـات الزراعيـة حتـى تشـتغلَ بتخفيـف الضرائـب عـن الأطيـان وتحسـين حـال الفـلاح.. حيـث لا خـلاص لـه مِـن بؤسـه وشـقائه إلا بتشـكيل نقابـات زراعيـة للدفـاع عـن حقوقـه أمـامَ الحكومـة، وأمـامَ المُـلاك الذيـن يزيـدون عليـه الإيجـارات بمناسـبة وغـير مناسـبة، وأمـامَ المُرابـين الذيـن يأخـذون منـه مـا يبقـى لهـم بـين جشـع المُـلاك وظُلـم الحكومـة.

لقد أدرك محمد فريد إذاً قيمة العمل بين صفوف القوّتين الرئيستين للحركة الوطنية: العمال والفلاحين.

وقد ربط محمد فريد الحركة الوطنية المصرية بحركة السلام العَالمية، فدعا سنة 1911 إلى تأسيس جمعية السَّلام في وادي النيل تكون لها علاقة رسمية بمكتبِ السِّلام الدائم في أوروبا. وكان محمد فريد أولَ مَن قال بأنَّ الجلاء عن مصر هو خدمةٌ للسلام العالمي، وأنَّ مصلحة السلام العالمي أنْ تستقل مصر وأنْ تنال حكومة ديمقراطية.

كما ربط محمد فريد قضية استقلال مصر بقضية الاشتراكية الدولية، فلم يترك وهو في مَنْفاه في أوروبا مؤتمراً دوليًّا اشتراكيًّا إلا وقدَّم له مذكرة بمطالب مصر، كمؤتمر بروكسل سنة 1911، ومؤتمر برن فبراير سنة 1919، ومؤتمر لوسرن في أغسطس سنة 1919.

وقد استطاع في مؤتمر بروكسل أنْ يفوز بالقرار الآتي: يظهر المؤتمر تأييدَه للأمة المصرية، التي تعمل لبلوغ غايتها بالوسائل السِّلمية، ويَرى أنَّ مبادئ الحق والعدالة وكذلك مصلحة التجارة الدولية، تقضي باستقلال مصر وحيْدتِها، وأنْ تكون محكومةً بحكومة أهليه دستورية.

لقد أحسَّ فريد، وفي وقت مبكر بأنَّ قضية مصر الوطنية هي جزء في قضية الاشتراكية العالمية.

وكان محمد فريد أولَ مَن شخَّص القضية المصرية في دقة علمية فوصفها في حديث له بأنها حركة وطنية ديمقراطية دستورية.

***انتصار:**

قد سجَّلت الحركة الوطنية أكبر انتصار لها على السياسة الاستعمارية، حين ارتأت مدَّ أجل امتياز قناة السويس أربعين سنة أخرى - مقابل أنْ تدفع الشركة للحكومة 4 مليون جنيه على أربعة أقساط سنوية!

لقد هاجت الصحافة الوطنية وشددتْ النَّكير على الاحتلال، وتزعَّم محمد فريد هذه الحَمْلة. فقد ظلَّ هذا المشروع في طَيِّ الخَفاء قُرابة عام، وكان في عزم الوزارة، وزارة بطرس غالي أحد الإقطاعيين، إقرارُه في سرعة، حتى لا يزعجها أحد.

ولكـن محمـد فريـد تمكَّـن مـن الحصـول عـلى نسـخة مـن المـشروع في أكتوبـر سـنة 1909 فبـادر إلى نـشره في جريـدة اللـواء، وهاجـم المـشروع في قسـوة قائـلاً: كيـف يجوز لهـذه الحكومـة أنْ تتسـاهل في أمـر إطالـة أمـد الشركـة مـع علمهـا أنَّ هـذه القنـاة كانـتْ السـبب في ضيـاع اسـتقلال مـصر؟ وكلُّ مـصريٍّ حـرٍّ يتـوق لأنْ يَراهـا ملـكاً لمـصر حتـى لا يبقـى لأوروبـا وجْـهٌ للتدخـل في أمورِنـا.

وكان نـداء محمـد فريـد بمثابـةِ صيحـة الخطـر فقامـت الأمـة بطوائفهـا وصحافتهـا تنـادي بوجـوب عـرض المـشروع عـلى الجمعيـة العموميـة قبـل البـتِّ فيـه، وأنْ يكـون رأيُ الجمعيـة العموميـة قاطعـاً رغـم أنَّهـا جمعيـة استشـارية،وتحت ضغـط الـرأي العـام، اضطـرتْ الجمعيـة العموميـة لرفـض المـشروع.

*الحركةُ العُمَّالية:

وكـما ظهـرتْ حركـة مثقفـين، حركـة وطنيـة رأسـمالية ناشـئة، مُقاوِمـة للاحتـلال، ظهـرتْ أيضـاً حركـةُ الطبقـة العاملـة الناشـئة بدورهـا. كانـت تتخـذ شـكل كفـاح اقتصـادي، ولكنـه كان كفاحـاً اقتصاديًّـا لا يخلـوا مـن مضمـون وطنـي، إذ كان معظـم أصحـاب الـشركات والمؤسسـات مـن الأجانـب، وسُرعـان مـا ارتبطـت الحركتـان العُماليـة الاقتصاديـة وحركـة المثقَّفـين الوطنيـة.

وكـما سـجَّل مصطفـى كامـل في سـنة 1899 أولَ اتجـاه لـه للدعايـة الوطنيـة في صفـوف الشـعب، سـجَّلتْ الحركـة العُماليـة في هـذا العـام أول إضرابٍ لعُـمال السَّـجاير، وقـد كان عـددُ مؤسَّسـاتِها أربعـين يشـتغل فيهـا 30 ألـف عامِـل.

وكـما سـجَّلت سـنوات 1900 - 1910 موجـةً وطنيـةً، فقـد سـجَّلت أيضـاً سلسـلة إضرابـاتٍ قـام بهـا عـمال السـكك الحديـدة، وعـمال الطِّباعـة.

وكـما بـدأتْ الحركـة الوطنيـة تنظِّـم صفوفَهـا فيـما بـين سـنة 1907 و 1912 فقـد بـدأتْ الطبقـة العامِلـة تنظِّـم صفوفهـا في نقابـات. فأنشـأ عُـمال ماتوسـيان نقابـةً لهـم سـنة 1908، وتأسسـتْ نقابـة الـتِّرام سـنة 1908، ثـمَّ نقابـة عُـمال الصنائـع اليدويـة سـنة 1909 ببـولاق، وأصبـح لهـا 11 فرعـاً تضـمُّ 800 عامـل غـير العـمال المُسـاعدين.

ولكـن الطبقـة العاملـة لم تكتـف بالكفـاح الاقتصـادي وحـده، فقـد اشـتركت كـما رأينـا وبقـوة في المظاهـرات السياسـية التـي قامـت محتجَّـةً عـلى الاسـتعمار، للقيـود التـي فرضهـا عـلى الصحافـة.

لقـد كانـت هنـاك جِهـةٌ وطنيـة بـين العـمال والمثقفـين. كـما أصبـح الحـزب الوطنـي تحـت قيـادة محمـد فريـد عـلى ارتبـاط وثيـق بالنقابـات الناشـئة.

***فَزَعٌ:**

ولقـد اشـتد فـزع الاسـتعمار يومئـذ واتجـه إلى كافـة ألـوان الضغـط والإرهـاب، يعاونـه في ذلـك خديـو مـصر والحكومـة الإقطاعيـة.

لقد أدرك الاستعمار خطورة التطور الذي طرأ على الحركة الوطنية!

وبـدأت حملـة الاعتقـال، وبـدأت مُحاكمـة الصحفيـين، وسُـجِن محمـد فريـد سـتة شـهور. كـما سُـجن الشـيخ عبـد العزيـز جاويـش رئيـس تحريـر اللـواء، وشُـدِّدت القيود عـلى الصحافـة، وعُطِّلـت جريـدة اللـواء ثـمَّ جريـدة العلـم مِـن بعـد اللـواء.

وأُعلـن قانـون النفـي الإداري، مـمَّا خـوَّل للسـلطات نفـي الأشـخاص الذيـن تـرى فيهـم خطـراً عـلى الأمـن!

وسـلَّط الاسـتعمار صـوت الإرهـاب عـلى الطبقـة العاملـة في نقاباتهـا، فاسـتبْعد كثـيراً مِـن العنـاصر الثوريـة العُماليـة التـي رحلـتْ إلى الريـف، كـما نُفيـت العنـاصر الأجنبيـة مـن العـمال الواعـين، وشُرِّد كثـير مـن قـادة العُـمال الواعـين، وشُرِّد كثـير مِـن قـادة العـمال المخلصـين، وأغْـرَى الآخريـن بمراكـز حكوميـة.

ولم يكتـف الاسـتعمارُ بالإرهـاب، ولكنَّـه التجـأ إلى الـدسِّ والوقيعـة - سياسـة فـرِّق تسُـد- كالـدسِّ بـين المسـلمين والأقبـاط... فعقـد مؤتمـراً قبطيًّـا... وآخـر مسـلماً برئاسـة ريـاض باشـا... ثـمَّ تُبُودِلَـت الشـتائم بـين المؤتمريـن. وابتسـم المسـتعمرون، إذ كانـت هـذه المؤتمـرات تجتمـع وتنفـضُّ، فـلا تـدور فيهـا كلمـة واحـدة ضـدَّ الاحتـلال! ولا طلـب واحـد للدسـتور. لقـد اتهـم محمـد فريـد هـذه المؤتمـرات أنهـا مـن صنـع الإنجليـز وبنـاءً عـلى إيحائـه.

لقـد كان الحـزب الوطنـي يمثـل عـدمَ النضـج للطبقـة القائـدة للحركـة الوطنيـة: ضعفهـا السـياسي، وضعفهـا الاقتصـادي، فقـد كان دورهـا في الاقتصـاد ضئيـلاً صغـيراً،

نطاقه محدود في بعض التجار وأثرياء الريف، كما كانت خبرتها السياسية قاصرة، فتخبطت أول الأمر بين تركيا وفرنسا وأوروبا والخديو عباس، ولم تتجه إلى الشعب إلا بعد أن أدركت بخبرتها الذاتية عبثَ هذا الطريق، ثمَّ كان لها مواقف رجعية بالنسبة لتحرير المرأة، وموقفٌ خاطئٌ من ثورة عُرابي بإدانتها للكفاح المسلَّح، ثمَّ موقفٌ خاطئ آخر بوقوعها في الاستفزاز الديني.

ورغم اتجاه الحزب الوطني بقيادة محمد فريد إلى العُمال والفلاحين إلا أن الاستعمار لم يسمح لهذا الاتجاه أن يُدْعم، إذ سرعان ما أُجْبَر محمد فريد على الهروب خارج القُطر، ومِن ثمَّ وقعتْ قيادة الحزب الوطني في المؤامرة التي دبَّرها الاستعمار، مؤامرة تفرقة صفوف الأمة، أقباطاً ومسلمين.

واستمرتْ الحركة الوطنية، حركة مثقفين أساسيًّا، فلم تنجح في تكوين جذور قوية لها بين الطبقة العاملة، كما لم يكن لها جذور بين جموع الفلاحين؛ ولم يكن ثمت بعد تنظيمات شعبية واسعة النطاق.

كما كانت الطبقة العاملة المصرية بدورها ناشئة، غارقة في حِرف يدوية أساساً، إذا استثنينا عُمال السجاير، والسكك الحديدية، وعمال الترام، ومِن ثمَّ كانت محدودة العدد، ينقصُها الوعي، فاستمرت حركتها النقابية تعاونية أكثر منها منظمات لقيادة الكفاح الاقتصادي، واتخذ كفاحها السياسي طابعَ النوبات والانفجارات الوقتية المتباعدة، فلم يكن له صفة الاستمرار. كما لم يكن لها منبرها المستقل، وإنما كانت الطبقة العاملة من الناحية السياسية تابعةً لقيادة المثقفين المكوَّن منهم الحزب الوطني، ولم تتابع هذه القيادة صلاتِها بالعمال.

ومِن ثمَّ أعوز الحركة الوطنية أكبر قوتين لنجاحها وهما: العمال والفلاحون ولهذا استحال على الحركة الوطنية أيام مصطفى كامل، ومحمد فريد، وخاصة في ظروف السيطرة الاستعمارية على العالم كله، في ظروف توزيع الكرة الأرضية بين حفنة من الدول الكُبرى، أن تبلغ من القوة ما يتيح لها القضاء على الاحتلال، أو التخفيف من قبضته. ولكن بذور الثورة الوطنية كانت قد بُذِرت... وكانت الأرض طيبة حقًّا... خصيبة فعلاً...

الفصلُ الرابع
ثورة 1919
-1-
ظروفُ الثورة

•تمـزُّق:

كان قـد انتهـى تقسـيم العـالم كلـه بـين حفنـة مـن الـدول الاسـتعمارية: أمريـكا وفرنسـا وإنجلـترا وهولنـدا وبلجيـكا عـلى وجـه الخصـوص. ولكـنَّ دولاً اسـتعمارية جديـدة كألمانيـا وإيطاليـا ظهـرتْ في الميـدان متأخـرةً فلـم تفُـز بالقِسـط مـن مناطـق النفـوذ الـذي يتفـق وقوتهـا، وحـين فشـلتْ وسـائل الحـرب الاقتصاديـة، أصبـح لابـدَّ مـن حـرب الـدم والحديـد، ولهـذا اشـتعلت الحـرب العالميـة الأولى سـنة 1914 بـين الـدول الاسـتعمارية لإعـادة تقسـيم المُسـتعمَرات ومناطـق النفـوذ ولاقـت مـصرُ الأمَرْيـن في هـذه الحـرب.

لقـد تمـزق المجتمـع المـصري في ظـلِّ الاحتـلال وخـلال الحـرب كـما لم يتمـزق مـن قبـل...

لقد ازداد الأثرياء ثراءً، وازداد الفقراء فقراً على فقرٍ، لقد تكدَّست ثروات، قدّرها كروتشلي بمائة وخمسين مليوناً مِن الجنيهات خلال الحرب... ولكنها ذهبت كلها إلى جيوب الأغنياء، بينما استمرت الأجور على حالها والمرتبات كما هي، رغم ارتفاع أسعار الجملة ثلاثةَ أضعاف ما كانت عليه سنة 1914.

لقد زاد المجتمع استقطاباً: قلَّة من الأغنياء وكثرة ساحقة من الفقراء. وفي الريف ازداد الإقطاعيون ثراءً. وبجانب الإقطاعيين ازداد مركز أثرياء الفلاحين قوة، أثرياء الريف يشرفون على زراعة الأرض بأنفسهم، وكثيراً ما يستخدمون العمال بدون أجر، وكثيراً ما يشتغلون بالتجارة، وكثيراً ما تكون لهم طواحين، وهكذا لم تعد طبقة أثرياء الريف، الطبقة المزعزعة أيام عُرابي وأوائل عهد الاحتلال.

ومِن الناحية الأخرى، تفتتت الملكية الصغيرة وزاد عدد فقراء الفلاحين، فقد بلغ عدد مَن يملكون أقلَّ مِن فدان سنة 1910 قرابة 720 ألفَ مالكٍ، فإذا بهم في سنة 1916 يتجاوزون المليون، متوسط ملكية كلٍّ منهم أقلُّ مِن نصف فدان (42% من الفدان على وجه التحديد). وزاد عدد ما يسمَّى بالأُجراء، أو العُمال الزراعيين الذين لا يملكون شيئاً إلا قوةَ عملهم، فسجَّل إحصاء سنة 1927 قرابة 660 ألف من هؤلاء.

وفيما بينهما، كانت هناك طبقة صغار الفلاحين ومتوسطيهم، لا يحافظون على مراكزهم كمنتجين إلا بشقِّ الأنْفُس، إلا بالعمل في الحقول ليل نهار، هم وأولادهم وزوجاتُهم، تتخطفهم الذئاب من كل جانب... الضرائب، المُرابِين، تقلبات أسعار القطن، مصادرة السلطات البريطانية لجِمَالِهم وحَمِيرهم وقَمْحِهم...

وفي المدن أثرى بعض التجار الوطنيين خلال الحرب.. فظهرت مصانع كانت تضم خمسين عاملاً فأكثر، وأُنشأت مصانع للغزل والنسيج، وكثرتْ معاصر الزيوت، ومصانع الدِّباغة، ومطاحن الغِلال، وورش السَّبْك، ودكاكين التجارة.

وثبتت مصانع كان مركزها متهاوياً قبل الحرب. فقويتْ شركة الغزل الأهلية التي كانت تضم 260 عاملاً، ومصنع الطرابيش الذي كان يضم 180 عاملاً وعاملة، وشركة الطوب في القاهرة التي كانت توظِّف 150 رجلاً.

لقد تطورت الرأسمالية الوطنية المصرية إذاً في الريف والمدن، وازدادت ثراءً، وازداد نفوذها الاقتصادي، وأصبحت تتطلع خلال الحرب إلى الصناعة، فلقد علمتها

الحـرب وانقطـاع الـواردات مقـدار الأربـاح التـي يمكـن أنْ تجنيهـا مـن هـذا البـاب. وزيـادة نفوذهـا الاقتصـادي جعلهـا تتطلـع إلى مزيـد مـن السـلطان السـياسي الـذي يحقِّـق لهـا مصالحهـا الاقتصاديـة. ومِـن ثـمَّ زاد التناقـض بينهـا وبـين الاسـتعمار، كـما زادت الطبقـة العاملـة المصريـة في المـدن والريـف عـدداً، ولكنَّهـا ازدادتْ بؤسـاً.

*الاستغلال الاستعماري خلال الحرب:

وازداد في الوقـت نفسـه الاسـتغلال الاسـتعماري خـلال الحـرب؛ وأدركـت الجماهـير لا بالدعايـة وحدهـا؛ وإنَّمـا بخبرتهـا المريـرة، بشـاعة الاسـتغلال الاسـتعماري، وضرورة التخلُّـصِ منـه.

لقـد جنَّـد الإنجليـز مـا يزيـد عـلى المليـون رجـل مـن فلاحـي وعـمال مـصر لحفـر الخنـادق والقيـام بأشـقِّ الأعـمال خدمـة للحـرب الاسـتعمارية.

وإليـك مـا تقولـه جريـدة إنجليزيـة في 3 إبريـل سـنة 1919: كان رجـال السـلطات ينتظـرون رجـوع الفلاحـين مِـن حقولهـم في الغُـروب.. فيُحِيطـون بهـم كـما لـو كانـوا مِـن الـدواب وينتقـون خيرَهـم للخدمـة.. منهـم غِلـمان في الرابعـة عـشرة ومنهـم شـيوخ في السـبعين...

ثـم كان الكربـاج هـو الوسـيلة لتسـخيرهم، وأصبـح الجَلْـدُ مِـن الأعـمال اليوميـة في مُعسـكرات هـؤلاء المجنَّديـن... وأي معسـكرات!! لاخيـام.. وسـوء تغذيـة.. ورداءة كِسـاء وقلـة غِطـاء؛ ثـمَّ أمـراض تفترسـهم افتراسـاً.. لقـد كانـوا يموتـون كالذبـاب في الصحـراء... وكثـيراً مَـا رفـض السـماح لهـؤلاء المجنَّديـن بالعـودة إلى بلادهـم حتـى انتهـاء مـدَّةِ خدمتِهـم.

ويقــول الرافعــي: لقــد كانــوا يُرْبَطــون بالحبــال عنــد تجنيدهــم، ويُســاقون كالأغنــام، ويُنقَلــون في مَرْكَبــات الحيــوان!

وعـاد مَـن عـاش مِـن هـؤلاء المجنديـن ليقصُّـوا لزهـران وسـليم وسـليمان وزهـرة فظاعـة الاحتـلال... وأخـذت الأغـاني الشـعبية تعـبِّر عـن آلام الشـعب.

بلـدي يـا بلـدي   وأنـا نفـسي أروَّح بلدي
بلـدي يـا بلـدي   والسـلطة خـدت ولدي

وأخـذت السـلطات البريطانيـة تُصـادر الحاصـلات الزراعيـة، واسـتولت عليهـا بأبخـس الأثمـان، وبأسـعار تقـلُّ كثـيراً عـن أسـعارها في السـوق، بـل بلـغ بهـا الأمـر أنْ تفـرض مقـداراً معينـاً مِـن الحبـوب يجـب توريـده لجيـش الاحتـلال بأبخـس الأسـعار.. فـإذا لم يجـد الفلاحـون مـا لديهـم كافيـاً اضطـروا إلى شرائـه مِـن السـوق بسـعر عـالٍ ليقدِّمـوه كُرهـاً بالسـعر البخـس.

وأخـذت السـلطات نفسـها تسـتولي عـلى الـدواب اللازمـة للزراعـة، فلـم تُبْـق عـلى جمـل أو حـمار صالـح للعمـل إلا اسـتولتْ عليـه وبأبخـس ثمـن.

وجمعـت الأمـوال قـسراً بحجـة إعانـة الصليـب الأحمـر البريطـاني، فكانـت تفـرض عـلى الأهلـين إتـاوات، يسـمونها تبرعـات! يحصِّلونهـا إمَّـا بطريـق التوريـط وإمَّـا بالتهديـد... ويدفعهـا الأهـالي سـاخِطين...

واشـتدتْ الحكومـة في جمـع الضرائـب- الحكومـة المصريـة اسـماً، والتـي فرضهـا الاسـتعمار فعـلاً - وذلـك رغـم انحـدار أسـعار القطـن أوائـل الحـرب، حـين أصبـح سـعر القنطـار عَـشَرَةَ ريـالات! وكثـيراً مـا كان يضطـر الفـلاح الصغـير أنْ يبيعـه بمائـة وعشرين قرشـاً، بـل وسـتين قرشـاً. ومـع هـذا تمـضي حكومـة الاحتـلال في جمـع الضرائـب في قسـوة وعنـف، فيضطـر الفلاحـون إلى بيـع مَصـاغ زوجاتهـم وحُلِيِّهـن ثـمَّ الماشـية والدواجـن، أو الاسـتدانة مِـن المُرابـين بالرِّبَـا الفاحـش..

وكان كلُّ ماصنعتـه الحكومـة إزاءَ هـذا أنْ أصـدرت الإعـلان التـالي في 9 سـبتمبر سـنة 1914.

اتَّصـل بالحكومـة أنَّ فريقـاً مـن النـاس حاولـوا بيـع مصوغـات وحُـلي ذهبيـة كي يسـدِّدوا مـا عليهـم مـن الأمـوال الأميريـة، ولكنهـم بسـبب الاضطـراب في المعامـلات لم يفلحـوا في الحصـول عـلى القيمـة المطلوبـة (الحقيقيـة) لهـذه المصوغـات... ولهـذا شرعـتْ الحكومـة في تدبـير طريقـة لتعيـين رجـال رسـميين يُنـاط بهـم تقديـر القيمـة الحقيقيـة لمـا يقدِّمـه الجمهـور مـن المصوغـات والحُـلي الذهبيـة نظـير تسـديد الأمـوال والعوائـد المطلوبـة للحكومـة.. وبعـد خصـم مقـدار الضرائـب الأميريـة مـن قيمتهـا، يُسَـلَّم أصحابُهـا الباقـي فـوراً!

وفي سـنة 1918 احتكـرت الحكومـة البريطانيـة محصـول القطـن جميعـه، وحـددت سـعر الـشراء باثنـين وأربعـين ريـالاً للقنطـار، وكان سـعر القطـن في الخـارج وقـت

صـدور هـذا القـرار نحـو 64 ريـالاً. لقـد بلغـت خسـارة مـصر مـن جـرّاء هـذا القـرار نحـو 32 مليونـاً مـن الجنيهـات!

وارتفعـت أسـعار الحاجـات ارتفاعـاً متواليـاً مـن 100 عـام 1914، إلى 216 عـام 1918، ثـمَّ 312 عـام 1920. ولاسـيما أسـعار الحبـوب والأقمشـة والوقـود، كـما يقـول ملـنر في تقريـره: "فثقلـت وطـأة ذلـك عـلى الفقـراء ولاسـيما أن أجورهـم لم تكـن تكفـي النفقـات التـي يقتضيهـا غـلاء المعيشـة، في حـين أنهـم كانـوا يـرون عـدداً مـن مواطنيهـم ومـن الأجانـب غـير المحبوبـين عندهـم، يجمعـون الـثروات الكبـيرة.. مـما أدَّى إلى الاسـتياء والقلـق بـين العـمال في المـدن وجماهـير الفلاحـين في القُـرى.

لقـد تجـاوز عـدد الوفيّـات في 1918، عـدد المواليـد! وبلغـت الوفيّـات في ذاك العـام أكـثر مـن نصـف مليـون.

لقـد كان المِرْجـل يغـلي، حتـى لقـد سـار الريـف الـذي جُمِـع عنـوةً في شـكل مظاهـرة إلى عابديـن يـوم 29 ينايـر 1916 محتجِّـين عـلى قسـوة المعاملـة ورداءة الغـذاء.. ورغـم كَبْـتِ حركتهـم، إلا أنهـا كانـت نذيـراً بثـورة الفلاحـين.

*الكبتُ السياسي للاستعمار:

وبجانـب هـذا الاسـتغلال الاقتصـادي البَشـع، كان هنـاك كبـت سـياسي لا يقـلُّ بشـاعة.

إذ أُعلِنـت الحمايـة البريطانيـة في 18 ديسـمبر 1914، وألغيـت وزارةُ الخارجيـة المصريـة، وعُطِّلـت الجمعيـة التشريعيـة، وفُرضـت الأحـكام العُرفيـة، واضطُهِـد رجـال الحـزب الوطنـي، فاعتُقـل منهـم مَـن اعتُقـل ونُفـي منهـم مَـن نُفـي، ووُضِـع منهـم تحـت المراقبـة مَـن وُضِـع. وحُرِّمـت الاجتماعـات، واعتُـبر تجمْهـر كلِّ اجتـماع مـن خمسـة أشـخاص في طريـق أو محـلٍّ عمومـي! حتـى ولـو لم يكـن لـه قصـد جنـائي! واشـتدت الرقابـة عـلى الصحـف، حتـى اضطـرَّت جريـدة الشـعب، جريـدة الحـزب الوطنـي إلى الاحتجـاب.

وفي هـذا الجـو الإرهـابي، وفي ظـلِّ الحمايـة البريطانيـة والاحتـلال العسـكري، تـولى السـلطان فـؤاد الحكـم.

وجـاء في خطابـه: نعلـم رعايانـا، أننـا قـد تولينـا بالاتفـاق مـع الدولـة الحاميـة عـرش السـلطنة المصريـة.. رعايانـا! ياللسـخرية! والدولـة الحاميـة ياللـذلّ والهَـوان.

وكشـف الاسـتعمار في نهايـة الحـرب، عـمَّا يبيِّتـه لمـصر، ولمسـتقبل مـصر، فوضـع السِّـير "وليـم برونيـت" في نوفمـبر سـنة 1918مشروعَـه لنظـام الحكـم في مـصر: إنشـاء مجلـس نـواب مـصر، ولكنـه استشـاري محـض لا قيمـة لـه، ثـمَّ مجلـس شـيوخ لـه السـلطة التشريعيـة، يُعـيَّن معظـم أعضائـه، ويُنتخـب لـه ثلاثـون مصريًّـا وخمسـةَ عـشرَ أجنبيًّـا!

وهذا كلُّه في ظلِّ الحماية البريطانية والاحتلال الإنجليزي طبعاً؟

نعـم لم تبـق طبقـة في مـصر إلا وعانـت مـن الكبـت الاسـتعماري، الاقتصـادي والسـياسي.

فأثريـاء الريـف، بالاسـتيلاء عـلى أقطانهـم بالسـعر البخـس. وتجَّـار المـدن وأصحـاب المصانـع الجديـدة، بمـا تهـدِّده السـلع الأجنبيـة مـن إغـراق للسـوق المـصري إثـر الحـرب، حتـى اضطـرت صناعـات كثـيرة ناشـئة إلى إغـلاق مصانعهـا وورشـها، كـما يقـول أمـين عفيفـي.

المثقفـون الوطنيـون بسـبب الاضطهـاد والاعتقـال مـن جهـة، والحرمـان مـن الوظائـف الهامـة مـن جهـة أُخـرى.

متوسِّـطو الفلاحـين بسـبب مـا اسـتولت عليه السـلطات العسـكرية مـن محصولات ودواب بأرخـص الأثمان.

فقـراء الفلاحـين وأُجراؤهـم بسـبب تجنيدهـم ومعاملتهـم أبشـع معاملـة أثنـاء تجنيدهـم في الحـرب، العُـمال بسـبب الغـلاء الفاحـش وبقـاء الأجـور عـلى مـا كانـت عليـه، البـلاد كلهـا بسـبب الحمايـة، ومـا فـرض عليهـا مـن أحـكام عُرفيـة وسـجن واعتقـال ومصـادرة لأبسـط الحُريـات.

ثـمَّ كانـت الأفـكار التـي بذرهـا جـمال الديـن الأفغـاني، وعبـد اللـه النديـم، ومصطفـى كامـل، ومحمـد فريـد، والتـي تبلـورت في كلمتـين: الاسـتقلال والدسـتور، فالثـورة كانـت لا مَفـرَّ منهـا.

*الظروف الدولية:

كان قد سبق ثورةَ مصر الشعب الروسي بقيادة الطبقة العاملة عام 1917، في ثورة ضدَّ القوى الاستعمارية، ضدَّ الإقطاع، ضدَّ الاحتكار. ونجحت الثورة. فاستطاعت لأول مرة في تاريخ البشر، أنْ تقيمَ دولة من نوع جديد، دولة العُمال متحالفةً مع الفلاحين.

وكان نداء هذه الدولة الوليدة جديداً على البشرية: السلام بين الدول. أيها العمال اتَّحدوا، يا شعوب المستعمرات تحرروا.. ها نحن نبذل السلاح والعتاد والعون الأدبي والمادي لكل شعب يريد أنْ يتحرر..

لقد ظهرت لأول مرة في تاريخ الإنسانية، دولة كبرى، تَشْغَل سدسَ الكرةِ الأرضية، لا تبغي استعمار أحد، ولا احتلال أحد، ولا استغلال أحد، تناصر كلَّ القوى التحررية في العالم. لقد عرضتْ هذه الدولة الجديدة على سعد زغلول أنْ تمدَّه بالسلاح، فتهيَّب وكان جوابه الرفض.

وكان لظهور هذه الدولة ونداءاتها، صداه في جميع الشعوب والطبقة العاملة في كل مكان، وفي سكان المستعمرات وشبه المستعمرات في كل بقعة من بِقاع الأرض.

وفزعت الدول الاستعمارية من هذا الخطر الجديد، فنادت أمريكا بمبادئ ولسن: إنَّ لكل شعب الحقَّ وحده في تقرير سياسته، ورسم طريقه الذي يراه مؤدياً إلى التقدُّم بدون إحراج أو تهديد أو إرهاب، لا فرق بين شعب ضعيف وآخر قوي.

وقد صدَّق هذا النداء قادة الحركة الوطنية في مصر، وأمَّلوا خيراً في أمريكا، كما أمل مصطفى كامل الخير في فرنسا من قبل، فاقترح سعد زغلول في اجتماع عقده في 13 يناير سنة 1919 إرسال تلغراف تحية وإعجاب إلى الرئيس ولسن الأمريكي، عارضين عليه قضية مصر التي يتسلَّط عليها الأجانب تسلطاً يأباه أهلُها جميعا.

ووافق المجتمِعون على هذا الاقتراح بين التصفيق والهتاف بحياة الرئيس ولسن وحياة أمريكا ومصر والاستقلال.

وكـما فُجِـع مصطفـى كامـل في فرنسـا وأمريـكا مـن قبـل، فُجِـع سـعد زغلـول في أمريـكا. ففـي أبريـل 1919، اعـترف ولسـن نفسُـه بالحمايـة البريطانيـة عـلى مـصر، وبـادرت دار الحمايـة إلى إذاعـة هـذا الاعـتراف في 22 إبريـل 1919: إنَّ الرئيـس ولسـن يعـترف بالحمايـة البريطانيـة التـي أعلنتهـا حكومـة جلالـة الملـك عـلى مـصر في 18 ديسـمبر 1914. ومـع موافقـة الرئيـس عـلى هـذا الاعـتراف؛ فإنـه بالـضرورة يحفـظ لنفسـه حـقَّ المناقشـة في المسـتقبل في تفاصيـل ذلـك؛ وفي التعديـلات التـي قـد تنتـج عـن هـذا القـرار، فيـما يمـسُّ حقـوق الولايـات المتحـدة.. والرئيـس والشـعب الأمريـكي يعطفـان كل العطـف عـلى أمـاني الشـعب المـصري المشروعـة، لتوسـيع نطـاق الحكـم الـذاتي.

العطـف! مـع إقـرار الاحتـلال ومـع البحـث عـن مصالـح الولايـات المتحـدة! ياللنفـاق عـلى الطريقـة الأمريكيـة إنـه النفـاق الاسـتعماري.

-2-

تكوين الوفد

بـدأت قيـادة الحركـة الوطنيـة في أواخـر سـنة 1918، متواضعـة كلَّ التواضـع، متهادنـة كل التهـادن، مسـتعدةً للتفاهـم والمسـاومات.

بـدأت بذهـاب ثلاثـةٍ إلى دار الحمايـة البريطانيـة، وهـم: سـعد زغلـول، عبـد العزيـز فهمـي، عـلي شـعراوي، ليقـول سـعد: إنـه يظـنُّ أنَّ لا محـلَّ لـدوام الأحـكام العُرفيـة، ولا لمراقبـة الجرائـد والمطبوعـات.

وقـال شـعراوي: إننـا نريـد أنْ نكـون أصدقـاء للإنجليـز، صداقـة الحـرِّ للحـرِّ، لا العبـدِ للحـرِّ.

وقـال عبـد العزيـز فهمـي: نحـن نطلـب الاسـتقلال التـامَّ.. فالاسـتقلال التـامُّ ضروري لرُقينـا.

وعـاد سـعد زغلـول يقـول: متـى سـاعدتنا إنجلـترا عـلى اسـتقلالنا التـامِّ، فإننـا نُعطيهـا ضمانـة معقولـة عـلى عـدمِ تمكِـين أي دولـة مـن اسـتقلالنا والمسـاس بمصلحـة إنجلـترا، فنعطيهـا ضمانـة في طريقهـا للهنـد وهـي قنـاة السـويس، بـأن نجعـل لهـا دون

غيرها حقَّ احتلالها عند الحاجة، بل نحالفها على غيرها ونقدِّم لها عند الحاجة ما تستلزمه المُحالفة من جنود.

وقال شعراوي: ويمكن بقاء المستشار الإنجليزي، بحيث تكون سلطته هي سلطة صندوق الدَّين العمومي.

وأضاف سعد: نحن نعترف الآن أنَّ إنجلترا أقوى دول العالم وأوسعها حرية، وإنَّا نعترف لها بالأعمال الجليلة التي باشرتها في مصر، فنطلب باسم هذه المبادئ أنْ تجعلنا أصدقاءها وحلفاءها، صداقة الحرِّ للحرِّ.

وانتهى الاجتماعُ مع المندوب السامي البريطاني، وشكره الثلاثة على حُسنِ مقابلته، وانصرفوا حيث كانت الساعة الثانيةَ عشرة!

مطالِبُ متواضعة كلَّ التواضع! وسبيلها أشدُّ تواضعاً للتفاهم والمفاوضة والمساومة! ثمَّ التحالف والضمانات.

وتساءل السِّير ونجت المندوبُ السامي البريطاني، مَن هؤلاء الثلاثة الذين قابلوني، وكيف يتحدث ثلاثة باسم أمة بأسْرِها، دون أن يكون لديهم ما يخوِّلهم صفةَ التَّحدُث باسمِها!

وبلغ الأمر سعد.. وأخذ سعد وصاحباه يسعون إلى جمعِ توكيلات مِن الأمة تخوِّله صفةَ النيابة، ووضعوا صيغة يطلبون عليها التوقيع أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما للسعي سبيل في استقلال مصر. تطبيقاً لمبادئ الحرية والعدل، التي تنشر رايتها بريطانيا العُظمَى وحلفاؤها ويؤيدون بموجِبها تحرير الشعوب.

واحتجَّ بعض المثقفين في الحزب الوطني على هذه الصيغة فعُدِّلت إلى نحن الموقِّعين على هذا، قد أنبنا حضرات سعد زغلول إلخ.. في أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعي سبيلاً في استقلال مصر استقلالاً تامًّا.

لقد حذفوا عدالة بريطانيا العُظمى، وأضافوا استقلالاً تامًّا، ولكنهم أبقوا الطرق السِّلمية المشروعة.

وتألَّف الوفد فعلاً، في يوم 13 نوفمبر 1918. وسُمِّي الوفد، إشارة منه إلى أنه وفدُ مصر للمطالبة باستقلالها. وكان أولى رجاله هم سعد زغلول، رئيساً، علي

شعراوي باشا، عبد العزيز فهمي بك، محمد محمود باشا، أحمد لطفي السيد بك، محمد علي علوبة بك، عبد اللطيف المكباتي، أعضاء.

وقد قال ملنر في تقريره: إنَّ الهيئة المعروفةَ باسم الوفد، والتي يرأسها سعد زغلول باشا.. مؤلَّفة من أعضاء أصلهم من حزب الأمة القديم، الذي كان غرضه التقدُّم الدستوري تدريجيًّا.

أي حزب كبار الملاك والأعيان. ومن ثمَّ كان السر في تواضع مطالبه كل التواضع، وإشارته إلى عدالة بريطانيا!

وانتشرت حركة التوقيع من المدن إلى الريف، ولاقت إقبالاً، فقاومت السلطات العسكرية البريطانية حركةَ التوقيع هذه، ولكنها استمرت، لقد كانت تُلاقي عطفاً مِن حكومة رشدي القائمة إذ ذاك.

ورغم أنَّ حركة التوقيع أثارت وعياً جماهيريًّا، إلا أنَّ قيادة الوفد لم تفكر في تنظيم هذا الوعي في لجان وفدية مثلاً في كل مدينة وقرية؛ وإنما اتجهت أول ما اتجهت إلى طلب الترخيص لها بالسفر إلى إنجلترا لنكون - كما قال سعد - على اتصال برجال السياسة المُمَثِّلين للأمة الإنجليزية وللأشخاص الذين يتولون توجيه الرأي العام الإنجليزي، الذين لا شكَّ في تأثيرهم في القرارات الحكومية - وسنُعْنَى على هذا الخصوص بأن نجعل وجهتَنا إلى الرأي العام (الإنجليزى طبعاً!)ونحن واثقون بأنَّ نجاح قضيتنا يتوقف جزء كبير منه على العدالة والحرية، وحماية حقوق الضعفاء، التي امتاز بها الرأي العام الإنجليزي.

لا زالت القيادة الرأسمالية الوطنية لا ترى الطريق - إنها تضع آمالها في المفاوضة! وليس كفاح الأمة المصرية. متأثرةً بالعناصر الإقطاعية في قيادة الوفد.

ورفض الإنجليز حتى هذا الطَّلب المتواضِع!

وأخذت قيادة الوفد تبلْور مطالبها في مذكرة إلى مُعتمَدي الدول الأجنبية في 6 ديسمبر سنة 1919: الاستقلال التامُّ، حكومة دستورية، تراعي حالة البلد الخصوصية من جهة ما للأجانب فيها من مصالح وتحترم امتيازات الأجانب بكل دقَّة!

الخطاب ما زال موجَّهاً أساسيًّا إلى مُعتمَدي الدول الأجنبية لا إلى العُمال المصريين! إلى الرئيس ولسن ومبادئه، لا إلى الفلاحين من أبناء مصر!

وصودِرت إحدى الاجتماعات الكبيرة التي أراد الوفد عقدَها، واستقال رئيس الوزارة احتجاجاً على التسويف في الترخيص له وللوفد بالسفر إلى لندن للمفاوضة!

وأخذت تحركات الوفد تشْتدُّ، ولكن لدى مُعتمَدي الدول الأجنبية.

وأنذرتْ السلطة العسكرية الوفد لنشاطِه هذا.. كيف يجْرؤ على وضع مسألة الحماية موضع المناقشة والتساؤل! ولكن الوفد لم يقف نشاطه وأرسل تلغراف احتجاج إلى رئيس الوزارة البريطانية: إننا نطلب الاستقلالَ التامَّ، ونرى الحماية غير مشروعة.

وغضبت السلطات البريطانية، وكانت أنْ اعتقلت سعد وصحبَه في 18 مارس سنة 1919.

-3-

اشتعال الثورة

وكان اعتقال سعد وصحبِه إيذاناً بانفجار البُركان - البركان الذي تجمعت فيه خلال سِنين الاحتلال وما قبلها، وخلال الحرب، كلُّ المواد الملُتهبة، ولم يكن ينقصُها إلا عُودُ كَبْريت.

هب الشعب المصري كله ثائراً..

ولم تكن ثورة مثقفين فقط، وإنما كانت ثورة عُمال وفلاحين..

واشترك في هذه الثورة كافة أبناء الشعب.

اشترك فيها الطلبة، وكان لهم فضل المبادرة، فهم أول مَن هبُّوا في 9 مارس سنة 1919 يعلنوها ثورة حمراء، وهم استمروا في المعركة حتى نهايتها، فلم يتخلَّفوا قط..

واشترك فيها العمال، وسقط منهم مئات من القتلَى والجرحَى.

لقد أضرب عمال الترام في يوم 11 مارس، أي بعد يومين مِن بدء مظاهرات الطلبة، واستمر إضرابهم ثمانية أسابيع ولم يعودوا إلى عملهم إلا بعد الإفراج عن سعد إثرَ اعتقاله الأول. كما أضرب عمال العنابر يوم 15 مارس سنة 1919، وكان

عددهم يزيد على أربعة آلاف، ولم يعودوا إلا في أواخر أبريل سنة 1919. وأضرب عمال الفنارات والأحواض وورش الحكومة في الإسكندرية.

كما اشترك في الثورة مئات الألوف من الفلاحين. واشترك فيها آلاف من صغار التجار والحِرفيين، فلا تخلو أسماء الضحايا في المدن من اسم تاجر صغير أو حِرفي بسيط .

واشتركت النساء في مظاهراتٍ خرجن بها في 16 مارس، ثمَّ في 20 مارس من عام 1919.

واشترك المحامون، الأهليون والشرعيون، بإضرابهم، بل اشترك الموظفون بالحكومة آخرَ الأمر، في 2 أبريل سنة 1919.. ثمَّ في 16 أبريل من نفس العام.

لقد كانت ثورة 1919 تمثل قفزةً كُبرى في تاريخ الحركة الوطنية بالنسبة لما كانت عليه أيام مصطفى كامل ومحمد فريد - فقد كانت الحركة الوطنية في أيامهما حركةَ مثقَّفين أساساً.

أمَّا ثورة سنة 1919 فقد كانت ثورة على نطاق جماهيري، اشترك فيها الملايين من العمال والفلاحين والطلبة والتجار، هبوا جميعاً، وفي وقت واحد حول هدف واحد.

أساليب الكفاح:

ولم تكتف ثورة سنة 1919 بالطابع السِّلمي، بل اتَّخذت أيضاً طابعاً عنيفاً، بل ومسلحاً في بعض الأحيان.

إضرابات الطلبة والعمال والمحامين والتجار... مظاهرات من العمال والطلبة والحِرفيين، اصطدام المتظاهرين بالقوات المسلحة البريطانية.. حواجز ومتاريس في أكثر الأحياء الشعبية لتعطيل سير السيارات الحربية الإنجليزية... حفر خنادق في الشوارع أشبه بخنادق الميدان، اتخذها المتظاهرون معاقل يلقون منها الطوب والحجارة على قوات الاحتلال.

وفي الريف اتخذت الثورة طابعاً أكثر عنفاً، تقطيع خطوط السكك الحديدية وأسلاك التلغرافات والتليفونات، تدمير المحطات.

وفي الصعيد، بلغ العنف أقصى ما بلغته الثورة، فهجم المتظاهرون على مكاتب الحكومة ومراكز البوليس. واتخذت الثورة شكلاً مسلحاً في الفيوم، حين هاجمت قوات الاحتلال قوة كبيرة من البدو، وحين هاجم الفلاحون المسلحون في ديروط ودير مواس قطاراً محمَّلاً بالضباط والجنود الإنجليز، وحين هاجم الفلاحون في أسيوط مركز البوليس في المدينة واستولوا على السلاح، ثمَّ هاجموا بهذا السلاح، القوات البريطانية الموجودة، التي كادت أنْ تَلْقَى هزيمة ساحقة لولا الإمداداتُ مِن الجوِّ والبحر.

كما التجأت الثورة في المدن خاصة إلى سياسة المنشورات السرية والمطابع السرية، تغذي الثورة فكريًا، وتمدُّها بالأخبار.

أساليب التنظيم:

ولم تكن ثورة سنة 1919 كما يحلو للبعض أنْ يصورها ثورة غير منظمة، لقد ألَّفتْ جموع المتظاهرين في القاهرة بوليساً وطنيًا لحفظ النظام في أثناء المظاهرات والاجتماعات، منهم من كان يحمل القِربَ وقُلل الماء لسُقيا مَن يظمأ مِن المتظاهرين. وكان الجمهور يستجيب لنداء البوليس الشعبي ويعمل بإرشاداته طواعية.

بل أكثر من هذا استطاعت الثورة في زفتى أن تُنشئ لجنة ثورية قامت بمهام الحكومة، واستولت على مركز البوليس وعربات السكك الحديد، ومكتب التلغراف وكانت مكوَّنة من بعض الأعيان والأفندية المتعلمين وصغار التجار. وأخذت تحصل الضرائب لتُنفقها في مشروعات إصلاحية، كردْمِ المستنقعات وإصلاح الشوارع والجسور، فاشتغل فيها كثير من العمال المتعطِّلين، ثمَّ أصدرت جريدةً أسمتْها الجمهور.

كما أقامت بلدة المطرية بالدقهلية جمهورية مستقلة! استولت على 35 كيلو من السكك الحديدية، وكانت لجنتُها الوطنية مكوَّنة أساساً من الصيادين، كما تكوَّنت لجان وطنية أخرى في المنيا وأسيوط، تشرف على النظام، وتحلُّ محلَّ الحكومة.

ولم تخل قرية واحدة أو مدينة ممن اشتركت في الكفاح ضدَّ الاستعمار من لجان قيادية مكوَّنة أساساً من بعض الأعيان، والمثقفين والمحامين والطلبة، هي التي تعُدُّ العُدة لقطع السكك الحديدية، وهي التي تنظم وسائل المقاومة.

لقد تمخضت عبقرية الشعب إذاً، عن أشكال من التنظيم السليم، كان من شأنها دفع الثورة ألا وهي اللجان الوطنية، تقوم هي بوظيفة الحُكم، وتتصل بالشعب اتصالاً مباشراً.

*تردُّد القيادة:

ولكنْ قيادة الثورة: الوفد لم يكن يملك النضج الكافي، ولم يكن يملك الوعي، كما لم تكن القيادة ثورية بالمعنى الثوري إلى النهاية، لهذا لم تكتشف في هذه الأشكال من التنظيمات الشعبية أشكالاً ثورية حقًّا للتنظيم لو شجعتها ودفعت بها إلى الأمام، لاستطاعت أنْ تمضي الثورة خطوات أكبر إلى الأمام.

لقد كانت قيادة الثورة تخشى على أملاكها. ويزيد الأمر خطورة، أن كان فيها أول الأمر كثيرٌ مِن كبار المُلاك.

ولهذا أصابها التردد، فكان صعباً أنْ تدرك أنَّ السلاح، وأنَّ مزيداً مِن السلاح في يد الشعب، وأن الجَرْأة، ثمَّ مزيدٌ من الجرأة، ثمَّ مزيد أيضاً مِن الجرأة هو السبيل الوحيد لنجاح الثورة.

لقد بلغ مِن تردُّدها، أنْ ذهب بعض الطلبة إثر اعتقال سعد إلى أعضاء الوفد الباقين، فصادفوا عبد العزيز فهمي عضو الوفد إذ ذاك، وأعلنوا عزمَهم على القيام بمظاهرات، فماذا كان ردُّ عبد العزيز فهمي؟ إنكم تلعبون بالنار.. دعونا نعمل في هدوء، ولا تزيدوا غضبَ الإنجليز.

ولكن الطلبة لم يعبؤوا بالنصيحة، فانطلقوا هاتِفِين مُتظاهرين... وانفجرت الثورة!

بل لم يمض على الثورة 15 يوماً، حتى أصدرت قيادة الوفد مع كبارالعلماء، وبعض الوزراء السَّابقين والأعيان بياناً يقول: إن الاعتداء سواء على النفس أو الأملاك محرَّم بالشرائع الإلهية والقوانين الوضعية.. وإن قطع طرق المواصلات مُضرٌّ بالبلاد إضراراً واضحاً، إذ هو يحول بينهم وبين مباشرة مصالحهم، ويوقف

حركـة نقـل المحاصيـل والأرزاق، وتعطيـل المعامـلات، والأخـذ والعطـاء، .. إنهـا لغـة التجـار وأصحـاب الأمـلاك!

ثـم مـضى البيـان يقـول: مـن أجـل ذلـك رأى الموقِّعـون عـلى هـذا البيـان أنَّ مـن أقـدس الواجبـات الوطنيـة أن يناشـدوا الشـعب المـصري.. ألا يخـرج أحـد في أعمالـه عـن حـدود القانـون، حتـى لا يسـدَّ الطريـق في وجـه الذيـن يخدمـون الوطـن بالطـرق المشروعـة.

أي قانـون ؟.. قانـون الأحـكام العُرفيـة! ثـمَّ مـا هـي الطـرق المشروعـة؟ الرجـاء والإلحـاح في الرجـاء لـدى المسـتعمِر أنْ يفتـح بـاب المفاوضـة!

ومضـت الثـورة لا تعبـأ.. يسـقط كلُّ يـوم منهـا شـهداء. لقـد كانـت قيـادة الثـورة سياسـيًّا وفكريًّـا للوفـد. ولكـنَّ القيـادة الفعليـة اليوميـة للتحـركات الثوريـة كانـت يـدَ الطلبـة وصغـار التجـار والمحامـين وبعـض متوسـطي المُلاك في الريـف وكان أنْ اسـتمرت قرابـة ثلاثـة أعـوام، عـلى فـترات متقطعـة.. تشـتعل ثـمَّ تهـدأ لتنفجـر مـن جديـد..

*الجُنْدُ المجهولون:

الجُنـد المجهولـون.. الشـهداء مـن أبنـاء الشـعب! مـن أبنـاء بـولاق وبـاب الشـعرية والخليفـة والخرنفـش وكرمـوز والعطَّاريـن وبركـة السـبع وكفـر الشـيح وميـت القـرشي.. وديـروط، وديـر مـواس.. المجهولـون أمثـال الكـردي، وأبـو سريـع درويـش، فرحـات، غريـب، السـجيني، مـن سـكان بـولاق مـن عُـمال العنابـر,

محمد جاد، هلالي جنيدي، حسان مشرقي من أهالي ديروط ودير مواس.

شـفيقة محمـد وسـيدة حسـن مـن بـولاق والخليفـة، ثـمَّ رقيـة محمـد متـولي مِـن تفهنـا الأشراف، وحنيفـة أم عجـوة مـن دنديـط، وأم محمـد بنـت جـاد، وعـين بنـت صبـح مـن الزقازيـق.

ثـمَّ مأمـون عبـد المُعطـي، إبراهيـم عطـوة، الحلوجـي، العـوضي، صالـح الدسـوقي القـرشي، سـلامة محمـد، السـيد سـويلم، عـوض عـلي مِرسـال، القرموطـي، مـبروك مـبروك، إبراهيـم إمبـابي، مـن أبنـاء الريـف.

عـلى أكتـاف هـؤلاء الملايـين قامـت الثـورة، ومِـن هـؤلاء سـقط ثلاثـة آلاف شـهيد، ومِـن هـؤلاء حُكِـمَ بالإعـدام والأشـغال الشـاقة والسـجن عـلى آلاف أُخـرى.

-4-

الحركةُ العُمالية

اشـتركت الطبقـة العاملـة بـكل قوتهـا في ثـورة 1919، ولكـن كان مسـتحيلاً ألا يكـون لهـا حركتهـا الخاصـة بهـا، فكـما اشـتعلت الحركـة الوطنيـة، اتسـعت الحركـة النقابيـة عمقـاً وعرضـاً.

فقـد انتـشرت النقابـات في كل مـكان، وكل صناعـة وحِرفـة: نقابـة حـمَّالي الفحـم ببورسـعيد، ونقابـة عـمال فـنِّ المِعْـمار، نقابـات النسـيج إلـخ، حتـى قيـل: إن عـدد النقابـات في الإسـكندرية وحدهـا زاد عـن 23 نقابـة، وفي القاهـرة إلى 38، وفي القنـال إلى 17.

وقـادت هـذه النقابـات حـركات إضراب كثـيرة، احتلـت فيهـا المصانـع، ورفعـت فيهـا أحيانـاً الأعـلامَ الحمـراء. وتحقـق للطبقـة العاملـة بعـض الزيـادة في الأجـور لتقابـل بعـض الشـيئ الزيـادةَ الضخمـة في تكاليـف المعيشـة.

لقـد نضجـت الحركـة العماليـة بعـض الشـيئ، فلـم تصبـح مجـرد حركـة تعاونيـة كـما كانـت أيـام مصطفـى كامـل ومحمـد فريـد، وإنمـا أصبحـت نقابيـة بمعناهـا الصحيـح، تنظِّـم الصفـوف، وتقـود الإضرابـات، وتطالـب بسـاعات عمـلٍ أقـل.

وكان مسـتحيلاً في ظـل حركـة وطنيـة صاعـدة، ألا يظهـر للطبقـة العاملـة حـزب لهـا، يقـود نشـاطها السـياسي، لقـد بـدأت تتكـون خلايـا اشـتراكية في سـنة 1918، في القاهـرة، والإسـكندرية، وبورسـعيد، وتأسـس الحـزب الاشـتراكي في عـام 1920، ثـمَّ الحـزب الشـيوعي عـام 1922، ويقـال: إن أعضـاءه بلغـوا قرابـة ألفـين عضـو عـام 1924.

ونـشرت الأهـرام في عددهـا الصـادر في 14 فبرايـر سـنة 1921 برنامـج الحـزب: يعمـل الحـزب عـلى اسـتقلال وأدى النيـل بـأسره، اسـتقلالاً خاليـاً مـن كل شـائبة سياسـيًّا واقتصاديًّـا واجتماعيًّـا.

أولاً:

1. جلاء الجنود الإنجليز عن مصر والسودان، وعدم الاعتراف للغاصِب بأي مركز ممتاز.
2. عدم الاعتراف بالمُعاهدات والاتفاقات التي أجريت خِلسة من الشعب وعلى كُرْهٍ منه.
3. جعل قناة السويس مِلكاً للأمة.
4. تعديل الدستور وقانون الانتخاب، حتى تصبح الأمة مصدر السلطة الحقيقي.
5. إلغاء القوانين الاستثنائية والرجعية، كقانون الاجتماع والأحزاب.

ثانياً:

1. الاعتراف بهيئات العمال رسميًّا بحقها في الدفاع اقتصاديًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا عن مصالحها.
2. تنظيم العمال غير المنظَّمين وتقوية المنظمات وضمهم في اتحاد، وضم الاتحادات إلى بعضها في اتحاد وربطه بالاتحاد العام الدولي.
3. الدفاع عن قانون 8 ساعات في اليوم، ومساواة العمال المصريين والأجانب في عمل واحد، وعمل تشريع لحماية العُمال المَرْضَى والعاطلين إلخ.
4. تأليف تعاونيات للإنتاج والتوزيع.
5. تمثيل العُمال وفقراء الفلاحين تمثيلاً صحيحاً في البرلمان.

ثالثاً:

1. للنساء التمتع بالحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية.
2. المطالبة بجعل التعليم إجباريًّا للجميع، بنين وبنات، مجاناً للفقراء، مع إصلاح برامج التعليم الحالية.
3. محاربة الأميِّة بجميع الوسائل.

رابعاً:

1. تنظيم فقراء الفلاحين في نقابات، وإيجاد صِلات بينها وبين نقابات العمال مع العمل على ربطها باتحادات الفلاحين الدولية.
2. إلغاء نظام ملكية العِزَب التي لا تختلف كثيراً عن نظامِ الإقطاعيات.
3. إلغاء ديون الفلاحين الذين يملكون أقلَّ مِن ثلاثين فدانا.
4. إعفاء الفلاحين الذين يملكون أقلَّ مِن عشرة أفدنة مِن الضرائب.
5. وضع ضرائب على مياه الري للذين يملكُون أكثر من 100 فدان.
6. إنشاء مصارف تعاونية لصغار الفلّاحين.

خامساً:

1. المطالبة بالاعتراف بحكومة الجمهورية الروسية.
2. العمل على التفريق بين الجرائم السياسية وغيرها أمام المحاكم المصرية، والإفراج عن المسجونين السياسيين دون تفرقة.
3. طلب محاكمة أذناب الاستعمار من كبار المصريين ممَّن تقع عليهم مسئولية الإرهاب والاستبداد، ومعاونة الأجنبي على إخماد نهضة مصر.

وكان للحزب مجلة علنيَّة تُدْعَى الحساب.

وقد ساعد هذا الحزب في تنظيم كثير من النقابات، بل ساعد في تأسيس اتحاد عام لهذه النقابات قام في الإسكندرية عام 1920.

وأدرك الاستعمار خطورة هذا الأمر، إذ جاء في خطبة وزير خارجية إنجلترا في 25 نوفمبر سنة 1919:

"لقد بدت علامات القلق في شهر أغسطس بين دوائر العُمال في المُدن... وكانت الأسباب الأساسية لهذا القلق اقتصادية، ولكن المحرِّضين حرَّفوها إلى أهداف سياسية... واتخذوا الإضراب سلاحاً، ومِن ثمَّ نشأتْ النقابات؛ وكان للاشتراكيين الأجانب دخل غير قليل في إشعال جذْوة القلق الذي كان قد شاع بين عُمال المدن الكُبرى.

وفزعـت الحكومـة الإقطاعيـة، حكومـة الـسراي وكبـار الملاك، الحكومـة التـي كانـت تقيمهـا وتقعدهـا إشـارةٌ مـن دار الحمايـة البريطانيـة؛ فأنشـأت في أغسـطس سـنة 1919 مـا أسـمتْه لجنـة التوفيـق مـا بـين العُـمال وأصحـاب الأعـمال. وجـاء أول تقريـر لهـذه اللجنـة في نوفمـبر سـنة 1920 مشـيراً إلى تـسرب العنـاصر البلشـفية إلى صفـوف العـمال.

ثـمَّ أصـدرت الحكومـة قانونـاً في 1923 أضـاف إلى قانـون العقوبـات، مـادة جديدة، تضـع قيـوداً قانونيـة عـلى نشـاط الطبقـة العاملـة، وتحظـر الإضراب عـلى العُـمال قبـل إخطـار السـلطات بخمسـةَ عـشرَ يومـاً عـلى الأقـلِّ، وعـدُّ الإضراب المفاجـئ جريمـة.

ولكـن إضرابـات العُـمال لم تنقطـع، واسـتمر العُـمال في تنظيـم صفوفهـم وتدعيـم نقاباتهـم، وإنشـاء الجديـد مـن النقابـات.

-5-

انقسامُ قيادة الوفد

تكـوَّن حـزب الوفـد أول مـا تكـوَّن مـن عنـاصر تمثِّـل الرأسـمالية الوطنيـة الناشـئة في المـدن والريـف، التجـار وأصحـاب المصانـع الوطنيـة في المـدن، ثـمَّ أثريـاء الفلاحـين في الريـف، وأبنـاء هـؤلاء.. ولكـن بجانـب هـؤلاء، كانـت قيـادة الوفـد تضـمُّ أيضـاً أول الأمـر عنـاصر تمثِّـل الإقطاعيـين، ومعظمهـم ممَّـن كانـوا أعضـاء في حـزب الأمـة.

وكان لهـؤلاء الأغلبيـة في قيـادة الوفـد، وكان لسـعد مُمثِّـل الرأسـمالية الوطنيـة أقليـةٌ مِـن الناحيـة العدديـة، فـماذا كانـتْ خطَّـة الإقطاعيـين؟

يـروى الدكتـور حسـين هيـكل في مذكراتـه أنَّـه ذهـب إلى لطفـي السـيد في الأيـام الأولى لتكويـن الوفـد، يسـأله عـن خطَّتـه: فأجابـه هـذا في صراحـة: إنَّ خطتنـا أنْ نسـافر إلى باريـس وأن نطـرح قضيتنـا عـلى مؤتمـر لنـدن، وأن نطلـب تطبيـق حـقِّ تقريـر المصـير عـلى مـصر والسـودان، فـإنْ أُجِبْنـا إلى مَطالبنـا كان ذلـك مـا نبغـي، وإلا ذهـب رشـدي وعـدلي إلى لنـدن لمفاوضـة الحكومـة البريطانيـة في تنظيـم العلاقـة بـين مـصر وإنجلـترا في حـدود الحمايـة!

هكذا كانت خطة كبار ملاك الأرض! تنظيم العلاقة في حدود الحماية!

ولكـن كان لسـعد خطـة أُخـرى، فحينـما طلـب الوفـد ترخيصاً بالسـفر للمفاوضـة، اشـترط المنـدوب السـامي أن تكـون اقتراحاتهـم بخصـوص كيفيـة حُكـم مـصر في حـدود الحمايـة. فـكان ردُّ سـعد زغلـول: أنَّـه لا اقتراحـات.. غـير مطابقـة لإرادة الأمـة المصريـة، المُعَـبَّر عنهـا في التوكيـلات، أي الاسـتقلال التـامُّ.

ويندفـع سـعد مهاجـماً الحمايـة، مطالبـاً بإلغائهـا تمامـاً، فقـد وقـف يعلِّـق في محـاضرة عامـة ألقاهـا مسـتر برسـفال قائـلاً: في سـنة 1914 أعلنـت إنجلـترا حمايتهـا مِـن تلقـاء نفسِـها، بـدون أنْ تطلبَهـا أو تقبلَهـا الأمـة المصريـة، فهـي حمايـة باطلـة لا وجـود لهـا قانونـاً.

فالانقسـام كان واضحـاً في قيـادة الوفـد منـذ اللحظـة الأولى مِـن تكوينـه، بـين ممثـلي طبقتـين: طبقـة كبـار المـلاك الذيـن يرضـون بتنظيـم الحمايـة، وبـين ممثـلي الرأسـمالية الوطنيـة، الذيـن يريـدون الاسـتقلال التـامَّ.

وقـد اشـتد هـذا الانقسـام إثـر اشـتعال الثـورة. لقـد رأيـت كـمَّ فـزع كبـار المـلاك مِـن الثـورة الشـعبية، كـم خشـوا عـلى أملاكهـم، فانطلقـوا يسـعون إلى تهدئـة ثـورة الشـعب، ومـا مـضى عـلى انطلاقِهـا سـوى خمسـة عـشر يومـاً! وقـد زاد فزعهـم أنْ مـضى الشـعب في ثورتـه. لقـد كانـوا يرجـون أنْ تـأتي المسـألة رفيقـة هيِّنـة، فتكـون ثمـت مفاوضـات، وثمـت اتفاقـات، فتوفـر لهـم بعـض السـلطان السـياسي ولـو في ظـلِّ الاحتـلال.

ولكـن ثـورة 1919 أخـذتْ تهـدد لا الاحتـلال فحسـب، وإنَّمـا تهـدد النفـوذ الاجتماعـي لكبـار المـلاك أيضـاً، ومِـن ثـمَّ أصبـح شـعارها: الاتفـاق مـع الاحتـلال بـأي ثمـن.

وقـد أحـسَّ الإنجليـز بهـذا الانقسـام منـذ اللحظـة الأولى، فبعـد أيـام مـن نشـوب الثـورة، وقـف كـيرزون وزيـر خارجيـة إنجلـترا يقـول في مجلـس العمـوم: إن الحكومـة البريطانيـة لم تُبْـد قـط أدنى معارضـة أو سـوء نيـة في مجـئ رشـدي وعـدلي إلى إنجلـترا.. فإننـا نـرى دائمـاً أنَّ مِـن أهـم الأمـور أن نتفـق معهـما عـلى تحديـد الشـكل الـذي سـتكون عليـه الحمايـة البريطانيـة في مسـتقبل الأيـام. أمَّـا الحـال مـع سـعد زغلـول، فيختلـف كلَّ الاختـلاف.. لأنَّـه هـو وأنصـارُه هـم الذيـن دبَّـروا هـذه الاضطرابـات.. هـم قـوم غـير مسـئولين. غرضهـم إخـراج الإنجليـز مِـن مـصر.. فـلا سـبيل للمناقشـة معهـم.

وازداد هـذا الانقسـام هُـوَّةً، حينـما عـرض ملـنر مشروعـه عـلى قيـادة الوفـد في 17 يوليـو سـنة 1920 في لنـدن.

وقـد وصـف ملـنر نفسُـه جوهـرَ هـذا المـشروع في حديـث لـه خـلال المفاوضـات: إننـا الآن في مـصر واضعـون يدنـا عـلى كل شـيئ ... ونريـد أنْ نتخـلى عنهـا في مقابـل شيئ واحـد، هـو أن تعترفـوا بمركزنـا... لأنـه الآن فعْـلِيٌّ، ونريد أن يكـون شرعيًّا، مسـتنِداً إلى قـوة عسـكرية. نحـن نبحـث عـن مـصر منـذ أكـثر مـن مائـة عـام، وهـي الآن في قبضتنـا فعـلاً، ونريـد أن يكـون مركزنـا فيهـا شرعيًّـا بقَبُولِكـم!

أي أراد ملـنر بمشروعـه أنْ يحافـظ عـلى جوهـر الاحتـلال والاسـتعمار... وأنْ يُضفـي عليـه الصِّفـة الشرعيـة!

وكان عـدلي يلعـب في هـذه المفاوضـات لعبـة الوسـيط البـارع بـين سـعد والإنجليز، ففـي جلسـة مـن جلسـات المفاوضـات، يلتفـت ملـنر إلى عـدلي، ويقـول لـه بالإنجليزيـة التـي لا يعرفهـا سـعد: ألا يَكُـفُّ هـذا الرجـل (أي سـعد) عـن عِنـاده ؟ لا فائـدة .. هكـذا كان ردُّ عـدلي.

ويضغـط عـدلي، ويضغـط أنصـار عـدلي في قيـادة الوفـد عـلى سـعد، ويتـأزَّم الموقـف، فيقـترح البعـض خروجـاً مـن المـأزِق أنْ يُعـرض المـشروع برمتـه عـلى الأمـة لتقـول كلمتَهـا فيـه.

ويكتـب سـعد في خطـاب سري إلى أعضـاء الوفـد في مـصر: إننـي لسـت مَـن رأى المـشروع... لأنـه (وأريـد أن يكـون الأمـر بينـي وبينكـم) مـشروع ظاهـره الاسـتقلال.. وباطنـة الحمايـة.. ومـع ذلـك رأى الإخـوان صلاحيـةَ عرضـه عـلى نـواب الأمة... لأسـباب قامـت عندهـم... أهمهـا عـدم وجـود السـند والنصـير لنـا في الخـارج، وانفـراد الدولـة الإنجليزيـة بالعـزة والسـلطة، وعـدم قـدرة الأمـة عـلى متابعـة المعارضـة والمقاومـة، وأنِّي الاعـترف بأهميـة هـذه الأسـباب، ولكنهـا لا يمكـن أنْ تقلـب حقيقـة المـشروع مـن حمايـة إلى اسـتقلال.

وأوفـد أربعـة مـن أعضـاء الوفـد، هـم: محمـد محمـود، أحمـد لطفـي السـيد، عـلي ماهـر، عبـد اللطيـف المكبـاتي - كي يتولـوا مهمـة عـرض المـشروع عـلى الأمـة.

وذهـب الأربعـة إلى مـصر يسـتفتون الأمـة في المـشروع، فلـم يكتفـوا -كـما وصفهـم وزيـر خارجيـة بريطانيـا- بـشرح المـشروع فحسـب، وإنمـا حبَّذوهم لأشـياعهم!

وعقـد الأعضـاء القُدامَـى للجمعيـة التشريعيـة التـي كانـت مكوَّنـة أساسـاً مِـن كبـار المـلاك في 16 سـبتمبر سـنة 1920 اجتماعـاً لبحـث المشروع، وأقـرَّ منهـم المشروع خمسـةٌ وأربعـون! وامتنـع منهـم اثنـان مِـن إبـداء الـرأي، وعارضـه اثنـان فقـط!

هـذا في الوقـت الـذي بـدأت فيـه تتـوالى رسـالات سـعد السِّريـة إلى النحـاس والجـزء الثـوري في الوفـد جـاء فيهـا: اشـتدَّ الخـلاف في الوفـد اشـتداداً تعـذَّر تلافيـه... لأنَّ هـذا الخـلاف لا يرجـع إلى أسـباب شـخصية.. ولكـن يرجـع إلى الاختـلاف في الغايـة والشـعور، فهـم مَلُّـوا العمـلَ وقطعـوا الأمـلَ.

بـل أكـثر مـن هـذا، نـرى سـعد يحـدد طبيعـة هـؤلاء المُخالفـين لـه في الـرأي فيقـول: إن حـزب الأمـةِ عـاد إلى بدايتـه، وانتهـى إلى غايتـه... إن اللـه لا يُصلِـح عمَـل المُفسـدين.

بـل نـراه يكشـف صلاتِهـم بالإنجليـز، فهـو يقـول: لقـد كتـب لـورد ملـنر خطابـاً لبعـض أصدقائـه بيـدي نسـخةٌ منـه، جـاء فيـه أن أصحـاب زغلـول باشـا بذلـوا آخـرَ مـا في وسـعهم لإقناعـه بالقبـول فلـم يقتنـع... فمِـن أيـن علـم لـورد ملـنر بهـذا السـعي؟ ليـس منِّـي بالطبـع!

كان حتماً أنْ يقوم الانقسام داخل الوفد.

فممثلـو كبـار المـلاك في داخـل قيـادة الوفـد، قـد انسـحبوا مُنتهِزيـن أول فرصـة، وجـاءت هـذه الفرصـة حـين أصرَّ سـعد في عـام 1921 أنْ تكـون لـه رياسـة هيئـة المفاوضـات الرسـمية، وأن يكـون للوفـد أغلبيـة هـذه الهيئـة. كـما أصرَّ سـعد عـلى مبـادئ معينـة للاشـتراك في المفاوضـات: الوصـول إلى الاعـتراف بالاسـتقلال التـامِّ الداخلي والخارجـي وإلغـاء الأحـكام العرفيـة والرقابـة عـلى الصحـف قبـل البـدء في المفاوضـات.

وأبى سـعد أن تكـون رئاسـة المفاوضـات وأغلبيـة هيئتهـا مـن وزارة وصفهـا بأنـه قـد عيَّنهـا السـلطان، بـل عينهـا المنـدوب السـامي أيضـاً... والسـلطان فـؤاد يمثِّـل سـلطة الحمايـة... ورئيـس الـوزارة المصريـة ليـس إلا موظفـاً مِـن موظفـي الحكومـة الإنجليزية يسـقط ويرتفـع بإشـارة مـن المنـدوب السـامي - أي لـو تركـت المفاوضـات لـوزارة كهـذه فـكأن جـورج الخامـس يتفـاوض مـع جـورج الخامـس.

وكان سـعد محقًّـا في كل هـذا، ولكـنَّ ممثـلي كبـار المـلاك في قيـادة الوفـد انتهـزوا هـذه الفرصـة فأعلنـوا اسـتقالتَهم مـن الوفـد، احتجاجـاً عـلى موقـف سـعد مـن وزارة

عـدلي. فاسـتقال محمـد محمـود باشـا وحمـد باشـا الباسـل وأحمـد لطفـي السـيد بـك ومحمـد عـلي علوبـة بـك وعبـد العزيـز فهمـي بـك وحافـظ عفيفـي بـك وعبـد الخالـق مدكـور باشـا وجـورج خيـاط بـك.

وفي أكتوبـر 1922، كـوَّن المنقسـمون حـزب الأحـرار الدسـتوريين تحـت رئاسـة عـدلي.

ووضـع هـذا الحـزب - كـما يصفـه الرافعـي - قاعـدة التسـاهل مـع الإنجليـز، وكان أعضـاؤه يفاخـرون بهـذه السياسـة، ويسـمونها كِياسـة.. ولم يذكـر في برنامجـه كلمـة الجـلاء. ولم يتألـف اسـتناداً إلى تأييـد الشـعب، بـل ارتـكازاً عـلى سـلطة الحكومـة.. ومِـن ثـمَّ جـاء تغليبـه لسـلطة الحكومـة عـلى سـلطة الشـعب، وميلـه إلى إهـدار سـلطة الأمـة كي يصـل إلى مناصـب الحُكـم.

"وكان وجـود هـذا الحـزب - كـما يقـول الرافعـي أيضـاً - موضـع اطمئنان للسياسـة البريطانيـة، إذ كانـت تهـدد بـه كلَّ هيئـة نيابيـة لا تميـل إلى التسـليم في حقـوق البـلاد.

لقـد كان هـذا الحـزب متابعـة لحـزب الأمـة قبـل الثـورة، نفـس السياسـة ويـكاد يكـون نفـس الأشـخاص.

فمحمـد محمـود باشـا هـو ابـن محمـود باشـا سـليمان، أحـد مؤسـسي حـزب الأمـة. وحسـن عبـد الـرازق باشـا عضـو مجلـس إدارة حـزب الأحـرار الدسـتوريين هـو أحـد مؤسـسي حـزب الأمـة أيضـاً. وأحمـد لطفـي السـيد أحـد المؤسسـين لحـزب الأحـرار، كان رئيـس تحريـر جريـدة الجريـدة لسـان حـزب الأمـة.

وكانـت اسـتقالة ممثـلي كبـار المُـلاك مـن قيـادة الوفـد إيذانـاً بـبروز هـذه القيـادة كممثلـة للرأسـمالية الوطنيـة في المُـدن والريـف، والمثقَّفـين الوطنيـين مِـن أبنـاء هـذه الرأسـمالية.

لقـد دعـا سـعد يـوم 7 ديسـمبر الأمـة إلى مواصلـة الجهـاد إثـر فشـل مفاوضـات عـدلي - كـيرزون، وختـم نـداءه بقولـه: شـعارنا: الاسـتقلال التـامُّ أو المـوت الـزؤام. إنـه لأول مـرة يـبرز هـذا الشـعار عـلى لسـان الوفـد.

واعتُقِـل سـعد للمـرة الثانيـة، فاتخـذ الوفـد قـراراً بمقاطعـة التجـارة الإنجليزيـة. وكانـت هـذه السياسـة خـيرَ معـبِّر عـن طبيعـة القيـادة الوطنيـة لثـورة 1919، قيـادة التجـار وأصحـاب المصانـع وأثريـاء الفلاحـين إذ دعـا الوفـد في 23 ينايـر سـنة 1922

إلى مقاطعةِ البنوك الإنجليزية - و أن يودِع المصريون أموالَهم في بنك مصر، كما أنَّ الواجب على جميع المصريين أنْ يُقْبِلوا على شراء أسهم بنك مصر حتى يبلغ رأسماله مبلغاً يتناسب مع حالة البلاد الاقتصادية، وبذلك يتسنَّى له أن يساعد في إحياء المشروعات الوطنية وتنشيط الصناعة والتجارة المصرية، ويجب تفضيل المصنوعات الوطنية (المصرية) والإعلان عنها، وتشجيع الإقبال عليها، ويلزم تفضيل التعامل مع التاجر المصري، أما التاجر الإنجليزي فيجب مقاطعته مقاطعة تامَّة. ولكن يجب أنْ تُعْطَى للتجار المصريين مهلةٌ لتصريف ما عندهم مِن البضائع الإنجليزية، مهلة ستة شهور للمنسوجات ومواد البناء وما شاكلها، وثلاثة شهور للمواد الغذائية وما في حكمها، ثم يجب تعضيد الشبان المصريين على التمرن داخل القُطْرِ وخارجه على أعمال الوسطاء المُصدِّرين منهم والمورِّدين.

إنَّ مصالح الطبقة واضحة في هذه الدعوة، طبقة التجارة والصناعة المصرية الناشئة التي تتعارض مصالحها مع الاستعمار.

بل أكثر من هذا، نرى الوفد يشير إلى الجلاء لأول مرة منذ تكْوينه، بعد أن يكتفي بعبارة الاستقلال التامِّ.

فهو ينتقد في 2 فبراير 1922 بياناً لـثروت باشا فيقول: ومن أخطر الأمور في هذا البيان... أنه أغفل أهمَّ المطالب ورأسَها، ألا وهو الجلاء... إنه لن يمكن إغفال طلب الجلاء في برنامج وطني يُقصد به الوصول إلى الاستقلال.

قارن هذا البيان بالصيغةِ الأولى التي وضعها الوفد للتوكيل: أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة لاستقلال مصر تطبيقاً لمبادئ الحرية والعدل التي تنشر رايتها دولة بريطانيا العُظْمَى.

بل قارن بين موقف الوفد المصري إزاء مشروع ملنر سنة 1920 قبل انقسام كبار المُلاك عنه، وبين موقفِه في سنة 1924 أثناء مفاوضته لماكدونالد، وبعد انقسام ممثلي كبار الملاك عن قيادة الوفد.

لقد ذهب سعد إلى لندن في 3 سبتمبر سنة 1924 ليفاوض ماكدونالد، فلم تستغرق المفاوضات أكثر من ثلاث جلسات، فقد طلب سعد سحب جميع القوات البريطانية من الأراضي المصرية، وعدول الحكومة البريطانية عن دعواها

الاشـتراك بأيـة طريقـة كانـت في حمايـة قنـاة السـويس، ثـم طلـب إلى جانب ذلـك زوال السـيطرة البريطانيـة عـلى الحكومـة المصريـة، ولاسـيما عـلى العلاقـات الخارجيـة.

فلم يقبل ماكدونالد هذه الطلبات، وانتهتْ المحادثات على إثر ذلك.

قـارن بـين موقـف سـعد هـذا في 1924 بموقـف الوفـد المـصري حـين تقـدَّم بنفسـه بمـشروع في 17 يوليـو سـنة 1920 جـاء فيـه: يوافـق الطرفـان عـلى عقـد مُحالفـة دفاعيـة، تتعهـد فيهـا بريطانيـا بالاشـتراك في الدفـاع عـن الأراضي المصريـة عنـد كلِّ معتمَـد، وعنـد حصـول تعـدٍّ عـلى المملكـة البريطانيـة مِـن جانـب أيـة دولـة أوروبيـة، ولـو لم تكـن سـلامة القُطْـرِ المـصري ذاتـه في خطـر مبـاشر، فـإن مـصر تتعهـد بـأن تقـدِّم داخـلَ حـدود بلادهـا لبريطانيـا العُظمـى بجميـع مـا تحتاجـه حربيًّـا مِـن تسـهيلات - كـما تتعهـد مـصر فـوق هـذا ألا تعقـد أيـةَ مُحالفـة مـع أيـة دولـة أخـرى، دون الاتفـاق مقدمـاً مـع بريطانيـا العُظمـى!

ولبريطانيـا أن تنْشِـئ عـلى مصاريفهـا بالشـاطئ الآسـيوي لقنـال السـويس نقطـة عسـكرية للمسـاعدة عـلى مـا عسـاه يحصـل مـن الهجـمات عـلى هـذا القنـال.

إنَّ الفارق عظيم بين مطالب الوفد في سنة 1920 وسنة 1924.

إن قيـادة الوفـد بعـد انفصـال كبـار المُـلاك مِـن جهـة، وتحـت ضغـط الثـورة الشـعبية وارتفـاع الوعـي مـن جهـة أخـرى، قـد أصبحـت أكـثر تعبـيراً عـن مصالـح الرأسـمالية الوطنيـة في المـدن والريـف. وقـد كانـت مصالـح هـذه الرأسـمالية بعكـس الإقطاعيـين متضاربـة مـع مصالـح الاسـتعمار، ومِـن ثـمَّ كان الوفـد أقـرب إلى التعبـير عـن الأمـاني الوطنيـة لجمـوع الشـعب في ظـرف تاريخـي مُعـين.

ولهـذا كان الوفـد يعتـبر نفسَـه قائـد الشـعب المـصري كلـه بكافـة طبقاتـه وفئاتـه. وقـد عـبَّر سـعد عـن هـذا الاتجـاه في حفلـة أقامتهـا لـه نقابـة عـمال شركـة السـكك الحديديـة، وواحـات عـين شـمس يـوم 5 يوليـو سـنة 1924 إذ قـال: أفـرح كثـيراً وأُسرُّ كثـيراً، كُلـما شـعرت أن هـذه الحركـة ليسـت فيـما يسـمونه بالطبقـة العاليـة فقـط، بـل هـي مُنبثقـة أيضـاً وعـلى الأخـصِّ في الطبقـة التـي سـمَّاها حُسَّـادُنا طبقـة الرِّعـاع. وأفتخـر بـأني مِـن الرِّعـاع مثلكـم.. ولـو كانـت هـذه الحركـة قـاصرة عـلى الطبقـة العُليـا، لمـا قامـت لهـا قائمـة، ولمـا انتـشرت هـذا الانتشـار، ولمـا انتـصر المبـدأ الوطنـي. فطبقـة الرعـاع هـي الطبقـة الأكـثر عـدداً في الأمـة، والتـي ليـس لهـا صالـح خـاص،

والتـي مبْدؤهـا ثابـت عـلى الـدوام. مبدؤهـا الاسـتقلال التـامُّ لمـصر والسـودان. إن الرجـل صاحـب الأمـوال، وذلـك الموظـف في المَنْصِـب العـالي إذا قـال: يحيـى الوطـن. فإنمـا يقـول تحيـى وظيفتـي أو مصلحتـي، وذلـك رأيـت كثـيراً مـن أربـاب تلـك المصالح، ومـن ذوي الوظائـف، نقلـوا أو تغـيَّروا.. ولكـنَّ الرعـاع أمثالكـم مـا تغـيَّروا ولا بدَّلـوا عقائدهـم.

وقـد عـبر سـعد بهـذا، في بسـاطة سـاخرة، عـن الواقـع الـذي لمسـه بنفسـه. إن العـمال والفلاحـين مِـن أصلـب الطبقـات عـوداً في كفاحهـا الوطنـي ضـد الاسـتعمار ومـن أجـل الاسـتقلال، بعكـس أصحـاب الأمـوال وأصحـاب الوظائـف الكبـيرة.

ولكنـك رغـم هـذا تحـسُّ بالتناقـض القائـم بـين هـذه الرأسـمالية الوطنيـة الثائـرة، وبـين الطبقـات الشـعبية، إذ يقـول سـعد في نفـس الخُطبـة: لا يطـرب سـمعي أكـثر مـن أن أرى رجـلاً فقـيراً لا قـوت عنـده ينـادي: ليحيـى الوطـن، وليـس يطمـع في شـيئ إلا أنْ يعيـش كـما هـو!

هنـا موقـف الضعـف في القيـادة الرأسـمالية للحركـة الوطنيـة. فليـس هنـاك مِـن رجـل فقـير، عامـل أو فـلاح يريـد أن يعيـش كـما هـو فقـيراً فقـراً بشـعاً، سـواء مـن الناحيـة الماديـة أو الثقافيـة. وإذا لم ترتبـط الحركـة الوطنيـة برفـع مسـتوى العـمال والفلاحـين، فسرعـان مـا تفقـد قوتهـا الدافعـة، وسرعـان مـا تنعـزل القيـادة عـن القيادة الجماهيريـة، فتفشـل القيـادة بذلـك في دفـع الحركـة الوطنيـة إلى الأمـام، وهـذا مـا حـدث كـما سـترى بالنسـبةِ للوفـد.

الفصلُ الخامس
نتائج الثورة
-1-
ما حقّقته الثورة

•إلغاءُ الحماية:

استطاعت ثورة 1919 أن تحقق بعض نتائج إيجابية، لقد اضطرت الاستعمارَ، وأنفُه راغِم، إلى إلغاء الحماية.

لقد جاء تبليغ اللورد اللنبي في 26 فبراير سنة 1921: إن نظام الحماية قد أصبح علاقة غير مُرضية!

وكان أن أصدر تصريح 28 فبراير سنة 1922 الذي أعلنت فيه إنجلترا إنهاء الحماية البريطانية على مصر، وأن تكون مصر دولة مستقلة ذات سيادة.

ولكن الحكومة البريطانية احتفظت بتولي الأمور التالية بصورة مُطلقة:

1. تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية في مصر.
2. الدفاع عن مصر مِن كل اعتداء أو تدخل أجنبي بالذات أو بالوساطة.

3. حماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات.

4. السودان ماذا عنها .

لقد كانت هذه التحفظات من شأنها أن تجعل استقلال مصر من الناحية السياسية، اسماً أكثر منه واقعاً، كما أن بقاء قوات الاحتلال، والقبضة الاستعمارية على اقتصاد البلاد، جعل من مصر شبه مُستعمَرة فعلاً، ولكن إلغاء الحماية على كل حال كان خطوة إلى الأمام.

*إعلان الدستور والحياة النيابية:

كما استطاعت الثورة أنْ تجبر الاستعمارَ والسراي وأمراء الإقطاع على وضع دستور وإقامة حكم نيابي. فألِّفت لجنة لوضع الدستور في 3 أبريل 1922، وكانت اللجنة ممثَّلة أساسيًّا مِن كبار الملاك وكبار المَالِيين، ولم يمثَّل فيها الوفد ولا الحزب الوطني.

لقد وضِع الدستور وكان سعد زغلول مُعتَقلاً في سيشل، وأعضاء الوفد يُحاكَمون أمام محكمة عسكرية بريطانية.

ورغم أنه جاء دستوراً ممثِّلاً لمصالح هذه الطبقة أكثر منه دستور شعبي، إلا أنَّ فؤاد لم يكن راضياً عنه، وكان ناقماً على مَا أسماه انتقاصاً لسلطة المَلك!

وكم حَبَك من مناورات ومؤامرات لمسخ الدستور، قبل أن يظهر إلى الوجود، وكم حاول التدخل، ولكن الضغط الشعبي والحملات الصريحة ضدَّ محاولات الملك لتعديل الدستور، أرغمته على إقراره كما هو.

لقد قال عبد العزيز فهمي في خطاب له مفتوح لرئيس الوزراء يوم 15 إبريل سنة 1922.

إن سيادة الأمة وكونها مصدر كل سلطة، هي أهم ما تسعى الشعوب لحمل أُمرائها على الإقرار به لها... وهي التي تقوم الثورات وتقل العروش لاستنقاذها من براثن هؤلاء الأُمراء... إنَّ السيادة آنية لمصر تحت أنياب الإنجليز بعد الجهود والتصميمات الكُبرى التي قام بها المصريون في وجه الإنجليز... ثم يأتي أناس مِن المصريين أنفسهم، فيهبونها غنيمة باردة لأمراء البيت المالك، فالشعب المصري سيد صاحب حقٍّ أصيل في الدستور، ومتعاقد أصيل فيه.

ومِـن ثـمَّ فـلا يملـك أحـد كائنـاً مَـن كان إصـدار الدسـتور بـدون اشـتراك هـذا الشـعب رجـالاً ونسـاءً، كهـولاً وفتيانـاً، حتـى الأجنَّـة في بطونهـم.

وجـاء الدسـتور مشـوَّهاً رغـم هـذا، لا يحقـق للأمـةِ سـلطاناً حقيقيًّـا، فللمَلـك حـق حـلِّ مجلـس النـواب (مـادة 28)، وللملـك تأجيـل انعقـاده (مـادة 39)، وللملـك حـق إصـدار مراسـيم في حالـة غيبـة البرلمـان (مـادة 11)، والملـك يُعـين الـوزراء ويُقِيلهـم (مـادة 49).

ثـمَّ هنـاك مجلـس شـيوخ، يُعـين الملـكُ خُمْسَـهم ويُنْتخـب الباقـون ممَّـن لا يقـلُّ دخلهـم السـنوي عـن 1500 جنيـه مِـن المُشـتغلين بالأعـمال الماليـة أو التجاريـة أو الصناعيـة والمُـلاك الذيـن يـؤدُّون ضريبـة لا تقـل عـن 150 جنيهـا مصريًّـا في العـام (مـادة 38 فقـرة 2).

ورغـم هـذا كلِّـه فقـد كان خطـوة إلى الأمـام. وكان يُتيح للشـعب أن ينظِّـم صفوفه، وأن يتقـدَّم في حركاتـه الثوريـة، وأتـاح هـذا فعـلاً في الفـترات القليلـة التـي طُبِّـق فيهـا، فـكان الشـعب يتنفـس بعـضَ الشـيئ ويفـوز بقليـل مِـن مطالبـه كـما كانـت الحيـاةُ البرلمانيـة بمثابـة مدرسـة يكشـف فيهـا أعـداءه وأصدقـاءه. ولكـنَّ الاسـتعمار والـسراي والإقطاعيـين وكبـار رجـال المـال عمِلـوا عـلى تحطيـمِ الدسـتور المـرةَ تلـو المـرة، بـل عـلى تعطيـل الحيـاة النيابيـة بأسرِهـا، عـلى تزييفهـا وطبـخ انتخاباتهـا وتدخـل رجـال الإدارة السـافر في هـذه الانتخابـات، والالتجـاءِ إلى القـوة والبطـش.

لقـد فُـرِض دسـتور سـنة 1932 عـلى الشـعب، ولم يؤخـذ رأيـه فيـه، سـواء في لجنـة تأسيسـية أو غيرهـا. ولكـن سرعـان مـا أصبـح الشـعب أشـد النـاس استمسـاكاً بـه وإصراراً عليـه، وأصبـح الدسـتوريون والـسراي أشـد النـاس عـداءً لـه، فوصفـه زعيـم الدسـتوريين ولمَّـا لم يمـض عـامٌ واحـدٌ عـلى وجـودِه بأنـه ثـوب فضفـاض، ولم يتأخـروا عـن تعطيلِـه وتزييفـه هـم والمَلِـك في أكـثر مـن مناسـبة!

*نهضة صناعية وتجارية:

وكان من أهم ثمار الثورة المصرية البدء في إنشاء صناعة وطنية قوية، فقام بنك مصر عام 1920 في غمار الثورة المصرية نفسها، ووسط المظاهرات والإضرابات السياسية. وظهر أول مشروع صناعي له في 1922، ولم يأت عام 1928 حتى أنشأ عشرَ مؤسسات تجارية وصناعية كبيرة وفق النُّظم الحديثة. وارتفعت المودعات فيه بشكل مستمر حتى بلغت 17 مليوناً مِن الجنيهات عام 1938.

ولم يكن تطوُّر بنك مصر وشركاته بالأمر السهل. فقد قامت الذئاب الاحتكارية الأجنبية تحيطه من كل جانب، وتحاول أن تضيق عليه الخناق، لتنتهي إلى التهامه. ولكن البنك استطاع أنْ يصمد، وبخلاف كافة البنوك الأخرى الأجنبية، بما فيها البنك الأهلي، وضع بنك مصر هدفاً له تشجيع الصناعة والتجارة المصرية. ورغم أنَّ رأس مال البنك لم يتجاوز المليون مِن الجنيهات، إلا أنه استطاع أنْ يؤسِّس 18 شركة بلغت رؤوس أمواله سبعة ملايين جنيه.

كما قام اتحاد الصناعات عام 1924 بضم أصحاب الأعمال في التجارة والصناعة، المصريين والأجانب على السواء. وقد وضع على رأس مطالبه. تعديل السياسة الجمركية وإنشاء وزارة للتجارة والصناعة.

وأصدرت الحكومات المصرية المتعاقِبة وخاصة الوفدية منها تعليمات مختلفة في سنوات 1922 و1928 و 1930 بتفضيل المصنوعات المحلية متى تساوت مع الأجنبية في الجودة والمتانة، ولو زاد ثمنُها بنسبة 10% وذلك في العطاءات الحكومية.

وانتهت الاتفاقات الجمركية التي كانت تربطنا بنظام مُعين مع عديد من الدول في سنة 1930. فكان أن قررت الحكومة الوفدية إلغاء النظام الجمركي القائم، وإقامة نظام جديد، يحمي الصناعة الوطنية الناشئة، بأن يفرض ضرائب عالية نسبيًّا على المصنوعات الخارجية التي يُمكن صُنعها محليًّا.

فكان هذا القرار نقطةَ تحول في تاريخ الصناعة المصرية. إذ وفَّر لها حماية لابدَّ منها إنْ أرادت أن تستقر وتقف على قدمها.

ثم كانت معاهدة 1936 وإلغاء الامتيازات الأجنبية، مما أفسح المجال أيضاً أمام الصناعة الوطنية لتنافس الصناعات الأجنبية القائمة في مصر.

إن تاريخ معظم الصناعات الهامة القائمة، إنما يرجع إلى ما بعد سنة 1930 أو ما بعد سنة 1937.

فقد ارتفعت رؤوس الأموال المستخدمة في الشركات المساهمة المصرية من 7 مليون سنة 1919 إلى 10 مليون سنة 1930 ثم إلى 22.5 مليون سنة 1936 و 24.5 مليون سنة 1939، أي الضعف في عشرين عاماً.

كما زادت رؤوس الأموال المُستخدمة في الشركات التجارية من 2.3 مليون جنيه في سنة 1929 إلى 22.2 مليون جنيه في سنة 1930.

وزاد الاهتمام بالتعليم الصناعي، فارتفع عدد الطلبة في المدارس الصناعية من 6 آلاف في سنة 1925 إلى 27.5 ألف عام 1937.

وكان أن ارتفع إنتاج المنسوجات القطنية من 24 مليون متراً عام 1930 إلى 200 مليون متر عام 1939. أي أكثر من سبعة أضعاف في تسعة أعوام.

وزاد إنتاج الغزل من 2.9 مليون طن في سنة 1929 إلى 23.9 مليون طن عام 1939.

وزاد إنتاج السكر المحلي من 140 ألف طن سنة 1932 إلى 209 ألف طن سنة 1937.

ونقصت الواردات الأجنبية من الصابون من عشرة آلاف طن متوسط سنوات 1924 - 1928 إلى 3 آلاف طن في عام 1937 نتيجة زيادة الإنتاج المحلي.

وكان أن زاد عدد العمال في أهم الصناعات من 298 ألف عامل وفق إحصاء 1927 إلى 341 ألف عامل في سنة 1937.

*نهضة اجتماعية وأدبية:

كما أن ثورة 1919 حققت ولا شك نتائج اجتماعية لها أهميتها، لقد كانت إيذاناً بتحرير المرأة، فالمرأة المكافحة في المظاهرات، والمرأة المُسْتَشْهَدة في الصراع الوطني، خرجت لأول مرة سافرة، واضطرت الرجلَ أن يُفسح لها مكاناً في كافة مراحل التعليم، وفي معظم الوظائف، وكان هذا كسباً كبيرا للمجتمعِ المصري.

كما أنه في غمار الثورة، نهضت الموسيقى المصرية والأغاني الشعبية كما لم تنهض من قبل، ويكفي أن نذكر الموسيقار سيد درويش، ثم بديع خيري وبيرم التونسي. لقد أخذت ألحانهم وأناشيدهم تتناول الموضوعات التي تشغل بال الشعب، وتعبر عن واقعه وتُلهب حماسته، دون كُلفة.

وإليك مثلاً لحن سيد درويش:

قوم يا مصري	مصر دايماً بتناديك
خد بنصري	نصري دِيْن واجب عليك
رد سعدي	قبل ما يروح مِن إيديك
أوعى مجدي	يروح هدر قدامك عنيك

***

ليه يا مصري	كل أحوالك عجب
تشكي فقرك	وأنت ماشي فوق دهب
مصر جنة	طول ما فيها أنت يا نيل
عمر ابنك	ما يعيش أبداً ذليل

ومنها لحن لأبطال المظاهرات:

لا سجون ومدافع رشاشة

ولاخفنا عذاب في جهاد باهر

ننصاب برصاص نربط شاشة

ع الجرح ونرجع نتظاهر

ومنها لحن حماسي:

دقت طبول الحرب يا خيالة	وأدي الساعة دي ساعة الخيالة
انظروا لأهلكم نظرة وداع	نظرة مفيش بعدها إلا اندفاع

والطلبة الذين تخطفهم السجون، يغَنِّي لهم سيد درويش:

يا عم حمزة.

إحنا التلامذه.

ميهمناش من السجن ده، ولا المحافظة.

واخدين عالعيش الحاف، والنوم من غير لحاف...

ومنها لحن عمال السلطة:

سالمــــــة يا ســــلامة	رحنــا وجينــا بالســلامة
شـفنا الحرب وشـفنا الضرب	وشـفنا الديناميـت بعنينـا
مهــما يكــون كلــه بيهــون	إلا وطنــا ميهونــش علينــا

ثم لحن آخر تجد تساؤل الرأسمالية الناشئة:

ثرواتنــا فــين الاقتصاديــة	وفــين كبارنــا وفــين ألوفاتهــم
حاطينهــا في ايديــن أفرنجيــة	أهــم يــا فرحتنــا بكثرتهــم
المـصري أولى بقــرش المـصري	يفضــل في بلــده ميتبعزقــش
هــم بمالهــم واحنــا بروحنــا	دي إيــد لوحدهــا متصفقــش

كـما تبلـورت نهضـة أدبيـة شـاملة، في القصـة والشـعر والمقالـة الصحفيـة والنقـد الأدبي عـلى أيـدي طـه حسـين وتوفيـق الحكيـم وهيـكل والعقـاد والمـازني.

كـما زاد عـدد الطلبـة في المـدارس مـن 324 ألـف عـام 1923 إلى 942 ألـف عـام 1932 أي قرابـة ثلاثـة أضعـاف في مـدى عـشرة أعـوام، ثـمَّ إلى 1.563.000 في 1939 - 1940.

كـما زادت ميزانيـة وزارة المعـارف العموميـة مـن 1.600.000 جنيـه في السـنة 1920 حـين كانـت تمثـل 4% مـن الميزانيـة فقـط إلى 29 مليـون جنيـه عـام 1951.

وبذا أصبحت تمثل 23% من الميزانية.

كما زاد عدد طلبة الجامعات من لا شيئ تقريباً عام 1913 إلى 41.000 طالباً عام 1951.

لقد كانت هناك ولا شك نهضة اقتصادية واجتماعية وثقافية.

-2-
ما لم تحقّقْه ثورة سنة ١٩١٩

*سيطرة الاستعمار:

ولكنَّ ثورة 1919 فشلت في تحقيق كثير من أهداف الحركة الوطنية.

1. فقد استمر الاحتلال قابعاً، واستمرت السلطة السياسية في يد المندوب السامي، يقيم الوزارات ويقعدها ويتدخل في أبسط شئون البلاد الداخلية.

كان يكفي أن يُقتل السير لى ستاك، سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام في 19 نوفمبر 1924، حتى يرسل إنذار بريطاني، أن تدفع الحكومة المصرية غرامة قدرها نصف مليون جنيه، وأن يُسحب الجيش المصري من السودان، وأن يبقى المستشار المالي والمستشار القضائي (وكلاهما إنجليزيان طبعاً)، وأن تحترم سلطتهما، وأن يحترم نظام القسم الأوروبي في وزارة الداخلية؛ وأن تُقمَع بشدة كل مظاهرة شعبية سياسية، وإذا لم تُلَب هذه المطالب في الحال، تتخذ حكومة صاحب الجلالة (البريطانية) التدابير اللازمة في الحال لصيانة مصالحها في مصر والسودان.

ولم تنتظر حكومة جلالة الملك البريطانية الرد؛ وإنما أصدرت التعليمات إلى الجنود البريطانية باحتلال جمارك الإسكندرية!

وكانت هذه خطوة لتقويض الحياة الدستورية الناشئة التي فاز بها الشعب إثر ثورة 1919 قبل أن يمضي عليها عام واحد. ثم للبدء في سلسلة انقلابات ضد الدستور وضد الحريات!

وكان يكفـي أن يفسر البرلمان المصري في زيادة وحدات الجيش المصري وتحسين أسلحته ومهماته وترقية التعليم في المدرسة الحربية والحد من سلطة المفتش العام الإنجليزي حتى تحتج إنجلترا، وحتى ترسل بوارجها إلى الإسكندرية وبورسعيد عام 1917، فتضطر الحكومة المصرية للتراجع، ومد خدمة سبنكس باشا المفتش العام للجيش ومنحه رتبة فريق وتعيين وكيل إنجليزي له، وتعيين ضباط إنجليز جُدد بالجيش.

وما أن ينظر مجلس النواب في تعديل قوانين الاجتماع والمظاهرات وتخليصها من القيود الاستعمارية، التي فرضت عليها، حتى يأتي إنذار من الحكومة البريطانية إلى الحكومة الوفدية في 19 أبريل سنة 1938 بسحب مشروع قانون الاجتماعات من البرلمان ومنعه من يصبح قانوناً، بحجة أنه يعرِّض سلامةَ الأجانب للخطر. ويستمر الإنذار يقول في وقاحة: وما لم يصله الرد قبل الساعة السابعة من مساء الأربعاء 2 مايو، فإن الحكومة البريطانية تعد نفسها حرة في أن تقوم بأي عمل ترى الحالة تستدعيه!

فتضطر وزارة الوفد، مدفوعة في ذلك برغبتها الصادقة في التفاهم - كما جاء في ردها- إلى تأجيل المناقشات في مشروع القانون إلى دور الانعقاد القادم.. وقد وافقها المجلس على ذلك.

إذلال لمصر، والتجاء إلى استخدام القوة السافرة، في أبسط المناسبات.

وتهب المظاهرات في كل مكان ضد تعسف وزارة صِدْقِي سنة 1930 وتحطيمها للحياة النيابية، وكان مستحيلاً أنْ يصل صدقي إلى الحكم دون رضاء الإنجليز، ومع هذا يسارع رئيس الوزارة البريطانية بإرسال تبليغ يحمل مسئولية الأمن على كل من الوزارة الصدقية والنحاس، وتصدر الأوامر إلى بارجتين حربيتين بالتحرك إلى الإسكندرية، بحجة المحافظة على أرواح الأجانب!

لقد استمر الإنجليز الحُكام الحقيقيين في مصر، وإن تركت السلطة الاسمية لحكام من مصر.

وقد كان مصدر السيطرة الإنجليزية، قبضَهم على الجيش المصري، وقبضتهم على البوليس المصري، فقد كان رؤساء ومفتشو أخطر جهازين للدولة في يد الإنجليز، فكان الجيش والبوليس يستخدم باستمرار لضرب الحركة الوطنية،

ولفـرض الإرادة البريطانيـة، كـما كان أخطـر مصـدر للسـيطرة الإنجليزيـة هـو قـوات الاحتـلال ذاتهـا.

فقد قال لورد لويد في كتابه: مصر منذ عهد كرومر:

إن مـن السـخف المطبـق أن نتـصرف لـو لم يكـن لقـوة الاحتـلال البريطانيـة مـن وجـود، إن وجـود هـذا الجيـش يعطينـا بـلا شـك إمكانيـة السيطرة عـلى مـصر.. ومـن العبـث في أنـه لا نيـة لنـا في اسـتخدام مـوارد قُوانـا. وليـس هنـاك مـن مـصري يمكـن أن يكـذب حواسـه فيقبـل هـذا الزعـم ولـو للحظـة. إن مـصر لا تنتظـر منـا أن ننسـحب إلى خيامنـا، ولا نقـوم بـدور في صراعهـا السـياسي.

ولم تكـن مصـدر السـيطرة البريطانيـة قـوات الاحتـلال فحسـب، والقبضـة عـلى الجيـش والبوليـس المـصري فقـط، وإنمـا كانـت هنـاك السـيطرة الاقتصاديـة، عـلى قنـاة السـويس والبنـك الأهـلي، فقـد كان بنـكاً مصريًـا بالاسـم إنجليزيًـا بالفعـل، يُـدار مِـن لنـدن لا مـن القاهـرة، ثـم بقيـة الـشركات الاحتكاريـة الأجنبيـة.

وكانـت خطـة الاسـتعمار واضحـة رتيبـة لا تـكاد تتغـير، هـي الاسـتعانة دائمًـا بالـسراي وبالدسـتور وببعـض رجـال المـال، ثـم بالسَّعْديين فيـما بعـد، لتحقيق مكاسـبه وتدعيـم سـيطرته، كلـما أحـس بخطـورة الحركـة الوطنيـة، وبتفاقـم الضغـط الشـعبي، وجـرأة مطالِبـه.

فـإذا مـا أدرك أن الشـعب يوشـك أن ينفجـر، أو أن الثـورة وشـيكة الوقـوع أو أن خطـراً أجنبيًـا يهـدد مراكـزه، اسـتعان بالوفـد لتهدئـة الشـعب الثائـر، أو لدفـع خطـر خارجـي أو لصبـغ مركـزه بالطابـع الشرعـي في شـكل مُعاهـدة.

فـإذا أدى الوفـد مهمتـه. فسرعـان مـا يَرْكُلُـه مِـن الحُكـم، ليـأتي بمـا أَسْـمَاها حكومـة الأقليـات وحكومـة الـسراي.

*سيطرةُ الإقطاع:

وكـما أن ثـورة 1919 لم تسـتطيع أن تقـضي عـلى السـيطرة الاسـتعمارية، فهـي أيضـاً لم تسـتطع أن تقـضي عـلى سـيطرة الإقطـاع، وعـلى رأسـه الـسراي.

فقد زاد عدد الأراضي التي يملكها الملك والأمراء والنبلاء حتى قاربت نصف مليون من الأفدنة.

واستمر 12.420 مالكاً في سنة 1936 ويملكون قرابةَ مليونين ونصف مليون فدان من مجموع الأراضي المصرية البالغ عددها خمسةَ ملايين ونصف مليون فدان.

وكان لهذه السيطرة الاقتصادية انعكاسها السياسي، فالاستقلال الأسْمَى الذي فازت به مصر نتيجة ثورتها في 1919، ذهبت ثمارُه إلى السراي وحزب الأحرار الدستوريين، حزب كبار الملاك، والفُتات من السلطة الذي سمح به الإنجليز تحت ضغط الشعبِ وثورته، احتكره هؤلاء.

وقد تآمرت السراي وكبار الملاك مع قوات الاحتلال مِن أجل تقويض الحياة النيابية والقضاء على الدستور، وحكم البلاد حُكماً إرهابيًّا، بلا دستور وبلا برلمان أحياناً، أو بدساتير مزيَّفة وانتخابات مطبوخة أحياناً أخرى.

فلم يُتح للوفد، وهو حزب الأغلبية ولا شك، أن ينفرد بالوزارة أكثر مِن ست سنوات وثمانية شهور، وذلك فيما بين 1919، 1952، ست سنوات متقطعة خلال أربعة وثلاثين عاماً! كان عمر الوزارة الوفدية فيها يستغرق أحيانا ثمانية شهور، أو ثلاثة شهور أحياناً أخرى، أو سنتين وبضعة شهور على أكثر تقدير.

وحتى في هذه السنوات الستة المتقطِّعة التي كانت الوزارة فيها للوفد، فقد كانت تُقام في سبيله ألوان مِن المؤامرات والمناورات والعَقبات مِن جانب السراي ومِن جانب الاستعمار، ومِن جانب كبار المُلاك، فكانت تعرقل معظم المشروعات التي يتقدم بها، وتُعطِّل كثيراً مِن المراسيم، كقانون محاكمة الوزراء، وقانون الاجتماعات، وقانون زيادة عدد الجيش. وكانت الصفة العامة للحكم الوفدي، هو سلسلة لا تنقطع من الأزمات، سرعان ما تنتهي بإقالة أو استقالة الوزارات الوفدية، بحيث لا يمكن أن نقول: إن حزب الرأسمالية الوطنية استطاع حقًّا أن يشكِّل سياسة مصر الداخلية أو الخارجية، أو ينفِّذ برامجه التي تتفق ومصالحه.

لقد كان الحكم الفعلي طوال 34 عاماً في يد السراي وكبار المُلاك وكبار رجال المال تحتَ سيادة إنجلترا.

ونستطيع أنْ نقول: إن مصر خلال هذه المدة كلها، لم تتمتع بالحياة البرلمانية العادية، التي نراها في الدول الرأسمالية، اللهم إلا في فترات ضئيلة محدودة من حياتها.

حقًّا كانت تقوم هناك تناقضات ما بين السراي والاستعمار أحياناً، أو ما بين السراي وحزب الأحرار الدستوريين.

ولكنها كانت مجرد تناقضات بين الأقسام المختلفة في داخل العصابة الحاكمة ذاتها.

فقد رأى المندوب السامي لورد لويد مثلاً استفحال نفوذ السراي ونشأت باشا رئيس الديوان الملكي عام 1925، واشتداد السخط، فخشِي الانفجار الشعبي، وأشار على الملك فؤاد باستبعاد نشأت، فلبَّى الملك صاغِراً.

ورأت إنجلترا في 1942 ميول السراي نحو المحور فعلاً، ونحو إيطاليا الفاشية بشكل خاص، وخشيت على مصالحها، وخاصة روميل على أبواب مصر، والمظاهرات المدبَّرة تدور في الشوارع، تهتف بحياة روميل، فأصرت على مجئ النحاس باشا، فخضع الملك خوفاً على عرشه.

لم يكن في هذا التناقض بين مصالح إنجلترا والسراي أي دليل على وطنية السراي بأية حال من الأحوال، وإنما كان تناقضاً بينهما في أيهما يكون له الحُكْم المُطلق على مصر.

كما كان يحدث تناقضات بين السراي وحزب الأحرار الدستوريين، حزب كبار المُلاك، فقد اشترك هذا الحزب في أول وزارة انقلاب، أبطلت الحياة النيابية في 1925، وصرح رئيسهم إذ ذاك عبد العزيز فهمي: لقد اشتغلت بلجنة الدستور وكنت أعتقد أن الدستور مناسب لبلدنا، ولكن العمل أظهر أنه ثوب فضفاض.

ولكن حدث بعض تناقض بين الأحرار الدستوريين وهم في الحُكم وبين السراي، فكان أن طُرد وزيرهم، دون أن يقدم استقالته، طُرد كما يُطرد أصغر موظف في الدولة، وهنا وقف عبد العزيز فهمي، نفس الرجل، ليقول: إنه من الواجب علينا أن نحافظ على الدستور في كل مقام بقطع النظرعن كل اعتبار!

ورضي الحزب إثر هذا بالتحالف مع الوفد لإعادة الحياة النيابية.

ولكـن هـذا الموقـف مـن حـزب كبـار المُـلاك لم يكـن حرصـاً منـه عـلى الحيـاة النيابيـة بتاتـاً، ولا عـلى الاسـتقلال، فهـو لم يتأخـرْ في سـنة 1928 عـن إلغـاء الحيـاة النيابيـة كلهـا، وإعلانهـا بزعامـة محمـد محمـود، ديكتاتوريـة تسـتمر ثـلاث سـنوات قابلـة للتجديـد!

لقـد كانـت تناقضـات بـين الثالـوث الـذي يحكـم مـصر: الاسـتعمار والـسراي وكبـار المُلاك.

ولكنهـا تناقضـات لا تغـيِّر شـيئاً مـن تآمرهـا عـلى الحريـات والحيـاة الدسـتورية وخيانتهـا لقضيـةِ الاسـتقلال.

*سيطرة كبار رجال المال:

وفي ظـل الاسـتقلال الأسـمَى الـذي فـازت بـه مـصر، ظهـرت نـواة بـارزة مِـن كبـار الماليـين المصريـين، المتَّصلـين أوثـق اتصـال بالـشركات الأجنبيـة، وبـرؤوس الأمـوالِ الاسـتعمارية. إذ رأت هـذه الـشركات أنـه مِـن الخـير لهـا أن تُعـيِّن مـن بـين أعضـاء مجالـس إدارتهـا بعـض مسـتوزرين سـابقين، أو بعـض كبـار الموظفـين ليسـتخدموا جهـاز الدولـة في خدمـة هـذه الـشركات.

كـما أن بعـض أثريـاء التجـار المصريـين أمثـال فرغـلي، وعـلي أمـين يحيـى - رأوا مـن صالحهـم التعـاون مـع رؤوس الأمـوال الأجنبيـة لتحقيـق مزيـد مـن الأرباح.

ومـن ثـمَّ بـرزت فئـة جديـدة شـاركت كبـار المُـلاك الحكـمَ تحـت سـيطرة الـسراي والاستعمار.

ويكفـي أن نذكـر بعـض أسـماء الـوزراء ورؤسـاء الـوزارات، الذيـن لعبـوا بجانـب الأحـرار الدسـتوريين، دور الانقلابـات الدسـتورية، لنجدهـم بـلا اسـتثناء، أعضـاء في مجالـس إدارة شركات أجنبيـة، تتخـذ أسـماء مصريـة حينـاً وتحتفـظ حينـاً آخـر بجنسـيتها الأجنبيـة صراحـةً.

- أحمد زيور:

أولُ رئيـس وزارة قامـت بتحطيـم دسـتور سـنة 1923، كان عضـواً في البنـك الأهـلي منـذ 1925، ثـم رئيسـاً للشركـة المصريـة الجديـدة ذات الجنسـية الإنجليزيـة رسـميًّا، ثم

عضـو مجلـس إدارة شركـة أراضي كفـر الزيـات وهـي إنجليزيـة، وشركـة سـكة حديـد مـصر، وشركـة الأمنيبـوسي المصريـة، وشركـة أقطـان كفـر الزيـات إلـخ، وكانـت كلهـا شركات ذات رؤوس أمـوال أجنبيـة بشـكل عـام وإنجليزيـة بشـكل خـاص.

- إسماعيل صدقى:

جـلّاد الشـعب، الـذي اشـترك في معظـم وزارات الانقـلاب، كان عضـواً في مجلـس إدارة الشركـة الإنجليزيـة البلجيكيـة! وشركـة الغـزل الأهليـة التـي يرأسـها سـلفاجو (وهـي شركـة إنجليزيـة أساسـاً)، وشركـة المِلـح والصـودا التـي كان مقرُّهـا الرئيـسي في لنـدن! وشركـة وادي كـوم أمبـو، والشركـة العقاريـة المصريـة، وشركـة الأشـغال والمبـاني التـي كان يرأسـها سـبنكس باشـا مفتـش عـام الجيـش المـصري سـابقاً، والشركـة الإنجليزيـة المصريـة، وشركـة سـكك حديـد الفيـوم، ثـم كان رئيـس اتحـاد الصناعـات آخـر الأمـر، ثـم عضـو شركـة القنـال، وقـد خدمهـا خدمـة كُـبرى أثنـاء رياسـته لمجلـس الـوزراء سـنة 1946.

- حسين سِرِّي:

عضـو مجلـس إدارة البنـك الأهـلي، وشركـة كـوم أمبـو، وشركـة المكابـس الحـرة، والبنـك العقـاري المـصري ثـمَّ عضـو شركـة القنـال فـترة مـن الزمـن، وقـد أدى لهـا خدمـة أيضـاً أثنـاء وزارتـه.

- حافظ عفيفي:

عضـو مجلـس إدارة البنـك العقـاري المـصري، وشركـة المكابـس التـي كان يرأسـها كـين بويـد مديـر الأمـن العـام سـابقاً، وشركـة السـكر، وشركـة الملـح والصـودا، والشركـة العقاريـة المصريـة، ثـم عضـو البنـك الأهـلي منـذ عـام 1931.

- على ماهر:

عضـو البنـك الأهـلي منـذُ سـنة 1929، وعضـو مجلـس إدارة البنـك العقـاري المـصري، وهـو مؤسسـة إنجليزيـة أساسـاً.

- حلمى عيسى:

عضو شركة صناعة الطحن المصرية ويرأسها موريس كوهين.

-

- سَابَا باشا:

الوزير السَّعدي، ورئيس البنك الإيطالي، وعضو مجلس إدارة الشركة المساهمة المصرية المالية والعقارية التي يرأسها كين بويد، وشركة الفنادق الإنجليزية الحديثة، وشركة الجوت ونائب رئيسها كين بويد، وشركة الأعمال والمباحث الأفريقية برئاسة البارون إمبان.

- محمد حافظ رمضان:

رئيس الحزب الوطني، والذي تخلَّى عن مبادئ الحزب باشتراكه في إحدى وزارة الانقلاب، وكان نائب رئيس الشركة المصرية المالية للتجارة، وعضو مجلس إدارة شركة مصر لهندسة السيارات، وشركة صناعة نسيج الألياف.

- عبد الحميد بدوي:

عضو مجلس إدارة شركة سكك حديد مصر الكهربائية التي كان البارون إمبان نائب رئيسها، وشركة الإسكندرية للملاحة، وشركة الإسكندرية للتأمين، والشركتان الأخيرتان مزيج من رؤوس الأموال المصرية والأجنبية.

وهكذا إذا قلَّبت أسماء وزراء الانقلاب، فلن تجد واحداً منهم إلا كان بشكل أو آخر عضواً في مجالس إدارة شركات أجنبية أمثال محمد توفيق رفعت، راغب حنا، نخلة المطيعي، توفيق دوس، محمد العشماوي، على الشمسي، حافظ حسن، محمود شكري، عطا عفيفي، جعفر والي، أحمد مدحت يكن، محمد محمود خليل، فؤاد أباظة، صادق وهبه، زكريا مهران، محمد أفلاطون، حسن مظلوم إلخ.

هذه الحفنة من الباشوات والبكوات، كانت تسيطر على مصر سياسيًّا، منهم الوزراء، ومنهم أعضاء مجالس الشيوخ ورؤساؤه.

وهم جميعاً أعضاء في مجلس إدارة هذه أو تلك من الشركات الأجنبية.

هذه الفئة وأمثالها من كبار الماليين المُتَّصلين أوثق اتصال بالاحتكارات الأجنبية، اجتهدت أول الأمر أنْ تُنشِئ لها أحزاباً مستقلة، كحزب الاتحاد عام 1925 الذي كان يرأسه يحيى إبراهيم باشا (من كبار الماليين) ونشأت باشا، ثم حزب الشعب الذي كوَّنه صدقي باشا 1931، ولكن هذه الأحزاب فشلت فشلاً

ذريعاً، لقد نشأت في أحضان السراي وبقوة البوليس ورجال الإدارة، فلم تنجح في تضليل أحد، وسرعان ما كانت تذبل وتموت بمجرد خروجها من الحُكم.

ومن ثمَّ اتبع كثير من كبار الماليين سياسة جديدة، هي البقاء خارج الأحزاب تحت يافطة المستقلّين وتحت طلب السراي والاستعمار، كلما أراد انقلاباً جديداً.

1. ضعف الصناعة المصرية:

وقد كان لهذه السيطرة السياسية، سيطرة الاستعمار والإقطاع وكبار رجال المال، أثره في عدم تقدم الصناعة المصرية، التقدم المنشود لها في ظلٍّ استقلال حقيقيٍّ.

لقد استمرت الصناعة المصرية صناعة استهلاكية أساساً، صناعة غزل ونسيج وجلود وأغذية وسكر.

بل إنَّ الصناعات المصرية، رغم حمايتها بكلِّ صنوف الحماية المُمْكنة، كادت تتعرض في عام 1939 إلى الإفلاس، فبنك مصر نفسُه كاد أن يغلق أبوابه في أوائل الحرب العالمية الثانية، ولم تكن أزمته راجعة إلى كثرة سحب المُودَعات إثر إعلان الحرب فحسب، وإنما كانت راجعة أيضاً- كما يقول الدكتور الجريتلي- إلى الأساليب الالتوائية والانتقامية الموجهة ضدَّ البنك من جانب الوزارة القائمة إذ ذاك في تلك الفترة، وزارة علي ماهر، ثم حسين صبري.

وفي الوقت الذي كانت تُحاك فيه المؤامرات من جانب هاتين الوزارتين لبنك مصر، نراهما قد اشتركتا في مد امتياز البنك الأهلي قبل أن تنتهي مدة امتيازه الأول بأكثر من ثمان سنوات! مما أدى إلى اغتباط الدوائر البريطانية الاستعمارية، حتى لتقول جريدة التيمس: يبعد كثيراً أن يعرض على البنك الأهلي شروط خير من الشروط التي عليه لو تركت المسألة حتى ينتهي امتيازه سنة 1948... إن الحكومة المصرية استطاعت أن توفق بين ما تدعيه الروح الوطنية من حقوق وبين ضرورة استمرار حالة البنك كمؤسسة كانت دائماً تحت الرقابة البريطانية!

كما تكدَّس المخزون لدى شركة المحلة سنة 1939، حتى كادت أن تُفلس، هذا في الوقت الذي لم تتأخرْ فيه حكومة محمد محمود أنْ تعقد اتفاقاً مع لجنةٍ تمثّل مصانع لانكشير الإنجليزية، أساسه زيادة حصة مصر من واردات النسيج

البريطانيـة، وقـد صـدَّق مجلـس النـواب الدسـتوري السـعدي عـلى هـذه الاتفاقيـة في 13 مـارس 1939!

وقـد وجـدت الصناعـة المصريـة الكبـيرة نفسـها، مضطـرَّة إزاء ضغـط الاسـتعمار والـشركات الاحتكاريـة الأجنبيـة، أن تتعـاون مـع الرأسـمال الأجنبـي. فقـد انضمـت شركـة مـصر للملاحـة إلى مؤتمـر ليفربـول، الـذي يسـيطر عـلى نقـل القطـن المـصري إلى البـلاد الأوروبيـة كي تفـوز بحصـة معينـة مـن الملاحـة.

كـما تكونـت شركـة مـصر للتأمـين بمعرفـة مؤسسـة برونـج البريطانيـة، وشركـة التأمـين الإيطاليـة.

كـما أن مصنـع الغـزل للقطـن الرفيـع في كفـر الـدوار، قـد تـم إنشـاؤه هـو وشركـة البيضـا بالاشـتراك مـع جماعـة صباغـي براودفـور، وهـي مـن أقـوى الاتحـادات الاحتكاريـة في بريطانيـا.

كـما أن شركـة مـصر للحريـر الصناعـي، قـد تعاونـت مـع رأس المـال الأمريـكي، ولهـا عضـو أمريـكي في مجلـس إدارتها.

بـل لـو تصفحـت مجالـس إدارة معظـم الـشركات المسـاهمة المصريـة في أعـوام 1942، 1944 لوجـدت كثـيراً مِـن الأجانـب يحتلُّـون مقاعـد إدارتهـا.

هــذا الاتصـال بالرأسـمال الأجنبــي مــن جهــة، وتلــك السـيطرة لكبــار رجــال المتصلـين بالاحتـكارات الأجنبيـة مـن جهـة أخـرى، كان مِـن شـأنها توجيـه الصناعـة المصريـة في الحـدود التـي لا تتعـارض مـع مصالـح الرأسـمالية الاحتكاريـة الأجنبيـة، مـع مصالـح الاسـتعمار، فاسـتمرت صناعـة اسـتهلاكية أساسـاً تعتمـد في آلاتهـا ووقودهـا والمـواد الكيمائيـة التـي تحتـاج إليهـا، عـلى الـواردات الأجنبيـة التـي كانـت تبيعهـا لهـا الـشركات الأجنبيـة بأغـلى الأسـعار.

ومـن ثـمَّ اسـتمرت الصناعـة المصريـة مهـدَّدة في صميـم كيانهـا، كـما سـنُفصِّل ذلـك فيـما بعـد.

-3-

لماذا لم تنجح ثورة سنة 1919 في تحقيق أهدافها؟

لماذا لم تنجح ثورة سنة 1919 في القضاء على أعدائها الثلاثة: الاستعما، والإقطاع، وكبار رجال المال المتّصلين بالاحتكار الأجنبي ؟

إنَّ ما يحدد نجاح الثورة في تحقيق أهدافِها، هو توازن القُوى بين المُعَسْكَرين: معسكر الشعب ومعسكر أعداء الشعب.

وقد كان توازن القوى في غير صَالح الشعب.

فقد كان النظام العالمي السائد هو النظام الرأسمالي، تسيطر عليه حفنة من الدول الكُبرى الاستعمارية، ولم يكن النظام الاشتراكي إذ ذاك إلا نظاماً وليداً محصوراً في نطاق دولة واحدة، يحيط بها الأعداء من كل جانب.

وقد كان هناك على أرض مصر قُوى الاحتلال مسلحة بالطائرات والدبابات والمدافع، في مواجهة شعب مسلح بالعِصِي والحجارة وبعض البنادق القديمة!

وقد كان على رأس الدولة المصرية مَلِكٌ، يكتب لرئيس وزرائه في 10 أكتوبر سنة 1917، أنْ تولينا بالاتفاق مع الدولة الحامية عرش السلطنة المصرية! فهو يَدِين بهذا العرش للمُسْتَعْمِر، وهو يحفظ لقوى الاحتلال هذا الدَّيْنَ في عُنقه، فيُنَاصِب الحركة الوطنية العَدَاء، ويرتجف أمام الثورة، ويُعِين قوى الاحتلال، ثم هو يفعل كل هذا باسم الشعب المصري!

ثم كان هناك طبقة من كبار المُلاك، لها حزبها ولها تنظيمها، قد استَعْدَت قوى الاحتلال، عندما هبَّ الشعب المصري ثائراً بزعامة عُرابي، ثم رحبت به وهو يحتل أرضنا، فقُوبِلت عساكره بزغاريد سعيدة من مشربيات قصور الأرستقراطية ومِن حريم الإقطاعيين المصريين، ... ثم استمرت هذه الطبقة تسانده ... ولم تلبث أنْ طَعَنَت ثورة 1919 مِن الخَلْف، فتنكرت لها، وهُرِعتْ إلى الاستعمار تستجديه... ومن هؤلاء جند الاستعمار والمَلك، ووزارات الانقلاب، المُعادية للحركة الوطنية، المُعادية لحرياتِ الشعب.

وهـؤلاء أيضـاً يتكلّمـون باسـمِ الشـعب المـصري، فيعْقِـدون الاتفاقـات مـع الاسـتعمار، ويمضـون المعاهـدات!

ثـم بـرزت هُنالـك فئـة جديـدة مـن كبـار رجـال المـال لهـا قوتهـا الاقتصاديـة والسياسـية، مرتبطـة أوثـق الارتبـاط بالاحتـكارات الأجنبيـة، ومنهـا جُنـد الملـك والاسـتعمار ووزراء ورؤسـاء وزارات يَبْطشـون بطشـاً شـديداً بـكلِّ تحـرك شـعبي وينفِّـذون للاسـتعمار مـا شـاء وذلـك باسـم الشـعب أيضـاً.

ثـمَّ هنـاك أجهـزة الدولـة المصريـة مِـن جيـش وبوليـس، وكانـا تحـت القبضـة الاسـتعمارية، تسـلِّطُهما ضـدَّ الشـعب.

معسـكرٌ ضخـمٌ مِـن الأعـداء مـزود بالمـال والسـلاح والخـبرة وأجهـزة الدعايـة ومسـيطر عـلى الناحيـة الفكريـة، بمـا لهـم مِـن أدبـاء وكُتَّـابٍ مأجوريـن.

*ضعفُ الوفد:

ثـم هنـاك القـوى الشـعبية، مـن العُـمال والفلاحـين والمثقفـين الوطنيـين وصغـار التجـار والمـلاك وأصحـاب المصانـع الصغـيرة؛ وهـذه الطبقـات الثوريـة في حاجـة إلى قيـادة، والقيـادة الوحيـدة الوطنيـة إذ ذاك، كانـت في يـد الوفـد، في يـد ممثـلي الرأسـمالية الوطنيـة في المـدن وأثريـاء الفلاحـين الذيـن يقومـون بـإدارة أملاكِهـم في الريـف.

ولكـن هـذه الطبقـة التي قـادت الحركـة الوطنيـة كانـت ضعيفـة إذ ذاك اقتصاديًّا، ضعيفـةً سياسـيًّا، غـير واضحـة فكريًّـا، فهـي لا تـدرك قوانـين التطـور، وهـي لا تسـتطيع اسـتخدام هـذه القوانـين لدفـعِ الحركـةِ الثوريـة إلى الأمـام، ولا تسـتطيع بطبيعتِهـا، بطبيعـة أن لهـا أمـلاكاً، وأن لهـا متاجـراً وأرضـاً ومصانـعَ وبيوتـاً، ومـا لهـا مِـن ارتباطـات بكبـار المـلاك وبكبـار رجـال المـال، أنْ تمـضي بالثـورة إلى الأمـام، وهـي لا تسـتطيع لاسـتغلالها للشـعب أنْ تطمـئن للشـعب كلَّ الاطمئنان.إنهـا تخـشى الدولـة الاشـتراكية الناشـئة، فـإذا مـا عَـرَضَ لينـين عـلى سـعد زغلـول إمـداد مـصر بالسـلاح رفـض، خوفـاً أن يُتَّهـم بالشـيوعية.

إنها تخشى وهي في باريس سنة 1920، الاتصال بالأحزاب الاشتراكية الفرنسية، لتقوم بالدعاية للقضية الوطنية، خوف الاتهام بالشيوعية وتفضِّل أنْ ترسل مبعوثاً إلى أمريكا للقيام بهذه الدِّعاية!

إنها تتهيَّب الثورةَ المسلَّحة للشعب، وتؤْثِر عليها مَا تُسميه بالوسائل المشروعة، كما تؤثر الحملات الصحفية وهي في المعارضة، ثمَّ أساليب المفاوضات والمساومات وهي في الحُكم.

إنها تتهيب عندما تكون في الحُكم أنْ تتخذ أساليب جريئة لتحويل جهاز الجيش وجهاز البوليس إلى جهاز وطني حقًّا بتطهيره من العناصر الاستعمارية، فيستمر هذان الجهازان أدواتٍ في يد الاستعمار والسراي.

إنها تخشى أيَّ تنظيم ثوري حقيقي في المصانع والقُرى والحواري، فتستمر اللجان الوفدية المختلفة، مجرَّد أجهزة للدعاية الانتخابية، وللتأييد أو الاحتجاج بالتلغراف!

إنها تخشى الطبقة العاملة، فلا تتأخر وزارة الوفد في سنة 1924، وهي لأول مرة في الحُكم، وأن تعطِّل الاتحاد العام لنقاباتِ العُمال والحزب الذي تكوَّن لهم.

حقًّا لقد ارتكب هذا الحزب أخطاءً خطيرةً، بعدم فهمه طبيعةَ القضية الوطنية، وضرورة التعاون مع حزب الوفد، مُمَثِّل الرأسمالية الوطنية وقائد الكفاح الوطني وقتذاك، وبقيامه بإضرابات استفزازية، اشتد عنفها في الإسكندرية وأسمنت طرة، حين احتل العُمال المصانع أكثر مِن ثلاثةِ أيام.

إلا أنَّ ضَرْب هذا الحزب، أو ضرب الاتحاد العام للنقابات، كان فيه إضعاف للتنظيم السياسي والنقابي للطبقة العاملة، وفي ذلك إضعاف للثورة الوطنية ذاتها وشلٌّ لتطورِها إلى الأمام.

كما كانت قيادة الوفد تخشى الفلاحين، فحتى في تشريع النقابات الذي أجازه الوفد عام 1942، نجد فيه تحريماً على الفلاحين، عُمالاً وفقراءَ، أنْ ينظِّموا صفوفهم في نقابات خاصة بهم، بل ترى قيادة الوفد تخشى أشدَّ ما تخشى أيَّ إصلاح زراعي وأيَّ تحديد للمِلْكِية، أو أيَّ تخفيض حقيقي لإيجارات الأراضي الزراعية.

ويلتفت الفلاحون حولهم، لقد هبُّوا ثائرين في 1919، وسقط منهم آلافُ الشهداء، ورجوا الخيرَ على يد سعد والنحاس.

فماذا وجدوا ؟

لقد زاد تفتُّتُ المِلْكِية، وزاد فقراء الفلاحين عدداً وفقراً. فكان أن ارتفع عدد مَن يملكون أقلَّ مِن فدان من مليون في 1916، يملكون 429.532 فداناً، بمعدل 42% من الفدان لكلِّ مالك، إلى 1.677.000 مالكاً لا تزيد ملكيَّتهم عن 668.600 فداناً، بمعدل 41% مِن الفدان لكل مالك في عام 1936.

بل نجد مِن هؤلاء 1.300.000 مالكٍ لا يزيد متوسط كلٍّ منهم عن 30% من الفدان، أي أقل مِن ثلث فدان.

كما زاد عدد العمال الزراعيين من 659.883 عام 1927، إلى 1.457.267 عام 1937، عمال تقلُّ أجورُهم الحقيقية بشكل مطَّرد، وتتفشى بينهم البطالة الرسمية.

ومن ثمَّ لم يعد يكفي أبداً ألفاظ الاستقلال والموت الزؤام التي هزَّت أفئدة الملايين في 1919، ولم تعد تكفي الدعوة إلى الجهاد. إنَّ الثورة الوطنية هي ثورة فلاحين أساساً، وثورة الفلاحين أصبحت مرتبطة أشدَّ الارتباط بتوزيع الأرض، بمصادرةِ المِلكيات الكبيرة وتوزيعِها على الملايين الجائعةِ للأرض.

وكان مستحيلاً على قيادة الوفد أنْ تنزل ببرنامج ثوري كهذا، وخاصة كلَّما ازداد بعض أفراد هذه القيادة ثراءً، وأصبحوا من أصحاب العِزَب والأطيان، أو كلما ضمُّوا بعض كبار المُلاك طمعاً في امتلاء الخزينة الوفدية بالأموال.

ولهذا نرى الوفد يُرْكَلُ مِن الحُكم المرةَ تلو الأخرى، فلا يتحرك الشعب لنصرته، ولاتجد نداءاته يُستجاب إليها إلا في نطاق محدود - بعض مظاهرات هُنا أو هناك، وبعض تحركات، ولكن في المدن أساساً، وقاصرة معظمها على الطلبة، تحركات يَسْهل قمعُها، إذ لم يكن يسبِقها أي تنظيمٍ ثوري ولم تسبقْها استجابة كافية لمطالب الشعب من جانب وزارات الوفد.

*تهادُن الوفد:

ومِن ثمَّ يلجأ الوفد أحياناً إلى خصوم الوفد، وخصوم الشعب، كحزب كبار المُلاك، ليكوِّن معه جبهة في سنة 1925 من أجل إعادة الحياة النيابية، بل لا يتأخر إذا طال عليه العهد وهو خارج الحُكم خمسَ سنوات بأسْرِها، فيما بين

1930، 1935، أن يكوِّن جبهة من الأحرار الدستوريين ومع حزبي الشعب والاتحاد مع المستقلِّين أمثال محمد محمود وصدقي، يكون أول عملِها خطاب إلى المندوب السامي، جاء فيه، منذ بدأت الأزمة .. التي نشأت عن نزاع إيطاليا والحبشة في هذا العام، ازداد المصريون يقيناً بضرورة المسارعة بعقد المُعاهدة فالتعاون الصادق مع إنجلترا في هذه الأزمة يُتيح أنسب الفرص لعقد المعاهدة، فإنَّ إبرامها هو المسألة الحيوية الجوهرية لمصر.

ونصوص المعاهدة تكفُل لإنجلترا في حالة الحرب أو خطر الحرب أن تقدِّم مصرُ مِن جانبها كل ما في وسعها من التسهيلات والمساعدات في الأراضي المصرية... كما تنص على تعاون مصر وإنجلترا تعاون حَليفتين.

واضِحٌ من هذه المذكرة، مقدار تهالُك الجبهة على الوصول بأي ثمن إلى اتفاق مع الاستعمار.

ومن ثمَّ ينتهي الأمر إلى معاهدة 1936، التي أعطتْ للاحتلال الصِّبغة الشَّرعية التي كان يرجوها منذُ زمن بعيدٍ، والتي ربطت مصر في تحالفٍ رسمي مع إنجلترا، تحالف التابع للسَّيد.

ومع هذا لم تتأخر قيادة الوفد أنْ تصف المُعاهدة بأنها معاهدة الشرفِ والاستقلال.

لقد كان عقد المعاهدة تتويجاً لسلسلة التَّهادُن التي قامت بها قيادة الوفد منذ 1925.

حقًّا كانت هناك ظروف دولية وداخلية تدفع إلى هذا التهادُن، كبروز الفاشية في المحيط الدولي، وتهديدِها لمصر، وضغط إنجلترا على مصر ضغطاً شديداً، وإقصاء الوفد مدى خمس سنوات عن الحُكم، وفقدانه الأمل أن يعود بواسطة هبَّةٍ شعبية... ثمَّ انعزال القيادة الوفدية عن الجماهير العريضة من الشعب، ثم بعض المكاسب التي تمت نتيجة هذه الاتفاقية، كإلغاء الامتيازات الأجنبية.

ولكنْ كلُّ هذه الظروف لا يمكن أنْ تنزَع صفةَ التهادُن، والتهادُن السافِر مِن جانب قيادة الوفد.

لقد بدأت قيادته تفقد كثيراً مِن الصفات الثورية التي كانت لها أيام 1922، 1924، 1930.

*أحزابٌ جديدةٌ:

وقد كان هذا هو السرُّ في انتفاض كثير من الشباب والطلبة وصغار التجار والحِرفيين - وخاصة مَن كان مِنهم في المدن - عن الوفد. وتطلعهم إلى قيادة جديدة، وتنظيمات سياسية غيرِ الوفد. ولم تكن قد برزت إذ ذاك قيادة شعبية حقَّة، تستطيع أن تجذب إليها العمال والفلاحين والمثقفين الساخطين على سياسة الوفد. فنشأت هيئات وأحزابٌ أخرى يبدو لها صفة شعبية ولكن قيادتها كانت على جانب كبير من عدم النضج السياسي، مما جعلها رغم وطنية جماهيرها تقع فريسةً سهلة لبعض كبار مُلاك الأرض وبعض كبار رجال المال، كما لجأت كثيراً إلى استخدام الوسائل الإرهابية والأساليب التهريجية واستخدام النمرة الدينية متأثرة في هذا بالفاشية والنازية التي كانت قد حقَّقت انتصارات موقوتة في أوروبا.

فلا يُمكن أن نقول: إن قيادة هذه الهيئات والأحزاب استطاعت أنْ تدفع بالحركةِ الوطنيةِ إلى الأمام.

ولهذا استمر الوفد حتى عام 1945، القيادة الرئيسية للحركة الوطنية. ورغم كافة أخطاء الوفد وتهادُنه وتذبذبه وضعفِه السياسي، إلا أن الشعب كان يعود به إلى الحُكم في كل انتخابات حرة نسبيًّا، وكان الشعب سليماً في عملِه هذا. إذ أدرك بخبرته الذاتية، أنه كان يستطيع التنفس في ظل الوفد، وتحقيق مكاسب جزئية محدودة يستحيل عليه تحقيقُها على يد السَّعديين والدستوريين.

كما أنه لم تكن قد ظهرت بعدُ قيادةٌ شعبية مخلِصة من النفوذ الجماهيري، ما تستطيع معه أن تضمَّ العمال والفلاحين والمثقفين والثوريين وصغار التجار والحِرفيين والرأسمالية الوطنية في جبهة موجَّهة ضدَّ الاستعمار والإقطاع والاحتكار. فلم يكن أمام الشعب المصري سوى حزب واحد، يستطيع أن يطمئن إليه بعض الاطمئنان، ألا وهو حزب الوفد.

ولكنَّ حزب الوفد كان عاجزاً كما رأينا أن يقود الشعب في ثورة حقًّا ضدَّ الاستعمار أو الإقطاع أو كبار رجالِ المَال...

الفصل السادس

التحرُّكات الشعبية ما بين 1924 - 1945

الكفاح الديمقراطي

لم يعد الاستعمار البريطاني يحكم مصر حكماً مباشراً كما كان يحكم قبل 1914. لقد أصبح يحكم خلال الملك وكبار مُلاك الأرض وكبار رجال المال.

ولهذا لم يكن غريباً، أن يصبح مركز الثقل في الحركة الوطنية هو الكفاح الديمقراطي الموجَّه ضدَّ السراي والإقطاع والاحتكار.

لقد بدأ سعد هذا الكفاح في وزارته عام 1924، حين أصرَّ أن يكون تعيين أعضاء مجلس الشيوخ من خصائص الوزارة، ثم حين أصرَّ على ألا ينفرد الملك بمنحِ الرُّتب والنَّياشين، أو تعيين موظفي السراي بغير موافقة الوزارة، وألا تحدث مخابرات خارجية بين الملك والدول الأجنبية إلا بواسطة الوزارة وموافقَتها، وأن تكون تبعيَّةُ الوزراء المفوَّضين والقناصل المصريين تبعيَّةً حقيقية لوزارة الخارجية، بعد أن كانت صلاتُهم بالسراي رأساً.

واضطر الملك إلى الموافقة على هذه الأمور جميعاً، حين هدَّد سعد بالاستقالة، إلا أنه ما إن سقطت وزارة سعد، حتى استرجع هذه الحقوق جميعاً.

وقد تجلى كفاح الشعب من أجل الحياة النيابية في انتخابات 1925. فرغم تسخير وزارة زيور لرجال البوليس والإدارة، لمطاردة خصومها ومناصرة مرشَّحيها، ورغم تعديل معظم الدوائر الانتخابية وفق أهواء المرشَّحين الحكوميين، ورغم إعادة نظام الانتخاب على درجتين مما يُتيح تلاعب كبير للحكومة المُشرفة على الانتخابات، ورغم إرهاب صدقي وزير الداخلية إذ ذاك، رغم هذا كله، فقد استطاع الشعب أنْ يأتي ببرلمان وفدي مكوَّن من 123 وفديًّا مقابل 85 دستوري واتحادي!

وكان أن حلَّ البرلمان، بعد تسع ساعات فقط من انعقاده!

.. كما تجلى الكفاح الديمقراطي للشعب، في حرص نوابه على الحياة الدستورية إذ اجتمع البرلمان المنحل من تلقاء نفسه رغم أنف الحكومة في 21 نوفمبر سنة 1925، واجتمع في فندق الكونتننتال، وأخذت الجموع المحتشدة تُحيى المجتمعين، وزيور رئيس الوزارة نازل في نفس الفندق، لا يدري شيئاً عما يدور حوله!

وأعلن البرلمان المجتمع بمجلسيه عدمَ الثقة في الوزارة، ولكن الوزارة تحدَّت رغبة الشعب وممثليه، فأصدرت قانوناً جديداً للانتخاب. فكان أن سَرَتْ في الأمة فكرة مقاطعة الانتخاب، وقامت حركة من كثير مِن العُمد في مُختلف المديريات للامتناع عن تنفيذ القانون الجديد للانتخاب، وأرسلوا بذلك تلغرافات إلى وزارة الداخلية، فقُدِّم المُمْتنعون إلى المحاكمة... ولكن الحركة كانت قد امتدت، فاستقال كثيرٌ مِن العُمد من وظائفهم إعلاناً لامتناعهم عن تنفيذ قانون الانتخاب الباطل.

وكانت حركة المقاطعة تلاقي تأييداً مِن جانب الشعب.

وانتهت بالإطاحةِ بوزارة زيور، وإعادة الحياة النيابية.

وجاء محمد محمود رئيس الأحرار الدستوريين، فعطَّل الحياة النيابية بأسرها عام 1928، وألغى مائةَ رخصة صحفية، وعطَّل وأنذر عشرات مِن صحفِ المُعارضة.

وهبَّ الشعب مرةً أخرى يكافح من أجل الدستور، وأخذت الوفود من مختلف الطبقات تكتب العَرائض طالبة إعادة الحياة النيابية، وجاءت الوفود إلى القصر الملكي لتقديمها، فاصطدم البوليس بها، بل اعتدى البوليس بالضرب الشديد على بعض النواب والشيوخ في ساحة عابدين.

وهبَّ طلبة المدارس محتجِّين، مُضربين، متظاهرين، فكان أن أصدر محمد محمود قانون حفظِ النظام في معاهد التعليم، يعاقب دعوة طلبة المدارس أو الكليات إلى القيام بمظاهرات، أو الانقطاع عن المَعاهد، أو تأليف لجان أو جماعات سياسية، أو حضور أي اجتماعات سياسية، أو الاشتراك فيها، سواء بالتحرير أو التوقيع، أو طبع ونشر محاضرات سياسية أو اجتماعات موجهة إلى السلطات بشأن مسائل ذات صبغة سياسية.

أي كان هدف محمد محمود عزل الطلبة، وهم القوة الوطنية البارزة إذ ذاك، عن الكفاح الوطني!

واستطاع البرلمان المنحل أن يجتمع رغم أنف الديكتاتورية القائمة، وأن يعلن احتجاجه على تسخير الحكومة للجيش في منع انعقاده، وأن يقرر بالإجماع عدمَ الثقة بالوزارة.

وحظرت الوزارة على الصحف نشر هذا القرار، أو إذاعة أي نبأ عن اجتماع المجلس، ولكن النشرات السِّرية أغرقت البلاد، معلنة اجتماعَ البرلمان وقراراته.

وما لبث أنْ طُوِّحَ بوزارة محمد محمود، قبل أنْ تمضي السنوات الثلاثة، التي حددتها لنفسها، وقبل أنْ تجدد هذه السنوات.

كما قاوم الشعب وزارة صدقي سنة 1931 مقاومة عنيفة ملحة متصلة.

لقد أخذ الوفد يطوف بالأقاليم، فيستقبله الشعب استقبالاً حافلاً رغم رصاص البوليس، حتى ليقتل أربعة من أبناء الشعب في المنصورة، ويجرح 145 ويقتل ثلاثة من رجال البوليس والجيش.

كما قامت المظاهرات المعادية لصدقي في بلبيس وبورسعيد والإسماعيلية والسويس، واشتدت في الإسكندرية حتى ليبلغ عدد القتلى عشرين، والجرْحى خمسَمائة.

وقد قاطع الشعب الانتخابات التي فرضها صدقي، واستقال كثير من العُمد والمشايخ.

كما لعبت الطبقة العامة دوراً بارزاً في هذا الكفاح مِن أجل الدستور. لقد أدركت قيمة الحياة النيابية وأهمية الكفاح من أجلها، فأضرب عُمال عنابر بولاق والورق الأميرية عن الاشتراك في الانتخابات يوم 14 مايو سنة 1931، وتظاهروا

احتجاجاً، فقُوبِلت مظاهراتهم بمنتهى القسوة والعنف، وبلغ عددُ القتلى وفق الإحصائيات الرسمية المزوَّرة ثلاثةَ عشرَ قتيلاً، ويقرِّر الرافعي أن هذا العدد كان دون الحقيقة بكثير، كما بلغ عدد الجَرْحى 119، وبلغ مِن تَعَسُّف حكومة صدقي، أن حالت دون أهل الشهداء والحصول على جثث أبنائهم وأصرَّت على دفنها في أماكن غير معروفة في الصحراء!

كما هبَّ الفلاحون يدافعون عن الحياة الدستورية، فوقعت حوادث دامية في بعض القُرى بسبب تصادم البوليس بأبناء الفلاحين. وبلغ عدد القتلى في القُطْرِ أثناء الانتخابات المزوَّرة مائةَ قتيلٍ!

•حركةُ سنة 1935:

ولم يكن الاستعمار يكتفي باللعب وراء الستار، وإنما كثيراً ما كان يتدخل تدخلاً سافراً في شؤون الحياة النيابية. فقد أصرَّ الشعب إصراراً على إرجاع دستور 1923، والإطاحة بدستور صدقي المزيَّف، فصرح صمويل هور وزير خارجية بريطانيا في 9 نوفمبر سنة 1935 بأنه: عندما استشيرت الحكومة البريطانية في شأن الدستور، نصحت بألا يُعاد دستور 1923، ولا دستور سنة 1931. إذ ظهر أن الأول غير صالح للعمل، والثاني لا ينطبق على رغبات الأمة!

وليس أوقح من هذا التدخل السافر في شؤون بلد معترف باستقلالِها، ولو اسميًّا.

وليس أحقر مِن وزارة مصرية، وزارة السراي، وزارة نسيم التي لا تتحرك في شيئ مِن شئون البلاد إلا باستشارةِ الإنجليز.

واحتجَّ الشعب، وزاد سخطه على وزارةِ السراي، وقامت المُظاهرات في أنحاء القُرى وبعض المدن، احتجاجاً على تصريحِ هور، وتعرَّض لها البوليس بالرصاص، فكان أول مَن استُشهِد هو إسماعيل محمد الخالع، أحد العُمال، ثم قامت مظاهرة في الجامعة استُشهِد فيها محمد عبد المجيد مُرسي، ومحمد عبد الحكيم الجراحي، وعلى طه عفيفي مِن طلبة جامعة القاهرة، ثمَّ عبد الحليم عبد المقصود بالمَعهد الديني بطنطا.

وأُعلن الحداد العام على الشهداء يوم 28 نوفمبر، فأُغْلقت المتاجر، واحتجبت الصُحف، وعُطِّلت المصانع، وأقام الطلبة نُصُباً تذكاريًّا لشُهداء الجامعة، أقيم له احتفالٌ ضخم يوم 7 ديسمبر سنة 1935، تخلله مظاهراتٌ كبيرة.

واستمرت المظاهرات لا تنقطع طوال شهري نوفمبر وديسمبر، شعارها الاستقلال والحرية والدستور.

وقام الطلبة بدور لتوحيد صفوف الأحزاب في جبهة وطنية. وكان أن تكوَّنت الجبهة الوطنية من الوفد والأحرار الدستوريين وحزبي الشعب والاتحاد والحزب الوطني وبعض المستقلِّين.

ولم تتكوَّن هذه الجبهة لتطلب بإعادة الدستور فحسب، وإنما لتعقد معاهدة 1936!

وكانت معاهدة تحالف: نجدة إنجلترا لمصر في حالة الحرب، وأن تقدِّم مصر لإنجلترا في حالة الحرب أو خطر الحرب أو قيام حالة دولية مفاجئة يُخشَى خطرها جميعَ التسهيلات والمساعدات، بما في ذلك استخدام الموانئ والمطارات وطرق المواصلات وإعلان الأحكام العرفية، وإقامة رقابة وافية على الأنباء. وأن يرخَّص لقوات الاحتلال أن تبقى في القنال لضمان الدفاع عنها؛ وأن تبقى قوات الاحتلال في القاهرة والإسكندرية ثماني سنوات، حتى يتم بناء ثكنات في منطقة القنال نهائيًّا.. وأن تستمر المعاهدة عشرين عاماً، يدخل بعدها الطرفان في مفاوضات بقصد إعادة النظر في نصوص المُعاهدة!

ولكن حتى بعد عشرين عاماً، وحتى عند إعادة النظر في المعاهدة، يجب أن يكفل استمرار التحالف بين الطرفين المتعاقدين طبقاً للمبادئ المُشار إليها، أي تحالف دائم، وتبعية دائمة، واحتلال دائم!

*أثرُ معاهدة 1936:

ورغم عقد المعاهدة فقد استمرت السيادة الحقيقية للمُستعْمِر، ولم تنقطع مؤامراته بالاشتراك مع السراي وكبار الملاك وكبار رجال المال، من أجل العبث بالحياة النيابية.

فـما لبثـت أنْ أُقيلـت وزارة الوفـد في 30 ديســمبر 1937. لقـد انتهـت المهمـة المطلوبـة منهـا، ألا وهـي عقـد المعاهـدة.

والواقـع أن معاهـدة 1936 لم تكـن حـلًا للقضيـة الوطنيـة، رغـم مـا أضفـى عليهـا مـن نعـوت الـشرف والاسـتقلال، بـل قـد زادت هـذه المعاهـدة القضيـة الوطنيـة تعقيـداً.

فلـم يسـتفد مِـن هـذه المعاهـدة، إثـر البـدء في إلغـاء الامتيـازات إلا بعـض كبـار الماليـين، وبعـض كبـار مُـلاك الأرض، فقـد زاد توظيـف أموالهـم في الصناعـة.. وعرفـت الصناعـة المصريـة بعـضَ الانتعـاش والتمـدُّد. ولكـن السـيطرة الحقيقيـة عـلى هـذه الصناعـات كانـت لكبـار رجـال المَـال، فـما أنْ تقلـب أسـماء مجالـس الإدارة للـشركات الكبـيرة المصريـة حتـى تجـد فيهـا أسـماء: حسـين سري، وإسـماعيل صدقـي، وعـلى ماهـر، وفرغـلي، وعـلى أمـين يحيـى، وحافـظ عفيفـي، وعبـد الحميـد سـليمان.

كـما أن بعـض كبـار المـلاك لـلأرض أمثـال: عبـد الغفـار، وعبـد الجليـل أبـو سـمرة، وعبـد السـلام الشـاذلي، بـدؤوا يوظِّفـون بعـض أموالهـم في هـذه الصناعـات.

ووجـدت الصناعـة المصريـة الكبـيرة تحـت قيـادة رجـال المـال هـؤلاء، أن مـن صالحهـا أن تهـادِن الاسـتعمار، وأن تهـادِن الـسراي، في سـبيل تحطيـم تحـركات الطبقـة العاملـة التـي زادت قوَّتُهـا، وعنفـت تحركاتهـا.

ومِـن ثـمَّ كان انقسـام جديـدٌ في صفـوف الوفـد، وكان أن تكـوَّن حـزب السـعديين برياسـة أحمـد ماهـر الـذي أصبـح رئيسـاً لمصانـع نسـيج القاهـرة.

وقـد اسـتخدمت الـسراي، كـما اسـتخدم الاسـتعمار، هـذا الحـزب لتدبـير انقلابـات جديـدة، وحكـم البـلاد حكـماً إرهابيًّـا، اسـتناداً إلى مـا كان لزعمائـه أمثـال أحمـد ماهـر والنقـراشي مِـن مـاضٍ وطنـيٍّ جليـل.

ولم يكـن عجيبـاً أن نجـد برلمانـاً سـعديًّا دسـتوريًّا، يتـولى رئاسـة الـوزارة فيـه مَـن يسـمون أنفسَـهم بالمسـتقلين مِـن كبـار المَاليـين المصريـين، أمثـال حسـين سري، وإسـماعيل صدقـي، وعـلي ماهـر. مـع أنـه ليـس لهـم أحـزاب، وليـس لهـم عضـو واحـد في البرلمـان.

لقـد كان حـزب السـعديين ألعوبـة في يـد كبـار الماليـين المصريـين المتصلـين بالـشركات الاحتكاريـة الأجنبيـة، إذ غـدا لكبـار رجـال المـال هـؤلاء السـيطرة عـلى المنشـآت الصناعيـة المصريـة نفسـها، منشـآت بنـك مـصر وكثـير مـن الـشركات المصريـة.

هـذه السـيطرة الاقتصاديـة كان لهـا أثرهـا في سـيطرة كبـار الماليـين السياسـية عـلى حـزب السَّـعديين وتوجيهـه لتحقيـق مصالِحهـم.

كـما لم يكـن عجيبـاً أن يكـون هنـاك ثمَّـت تقـارب ومشـاركة في الحُكـم مـا بـين السـعديين والدسـتوريين، فقـد اتَّجـه بعـض كبـار المُـلاك - كـما رأيـت - إلى توظيـف أموالهـم في توظيـف الـشركات التجاريـة والصناعيـة القائمـة، كـما اتجـه كبـار المَاليـين أنفسُـهم إلى شراء العِـزَب والأطْيـان. فـكان رئيـس حـزب الأحـرار الدسـتوريين مثـلاً - حـزب كبـار المُـلاك - وهـو حسـين هيـكل، رئيسـاً أيضـاً لشركـة سـكك حديـد الدلتـا المصريـة وهـي شركـة إنجليزيـة، ثـمَّ شركـة "سـيكو" للصناعـة والتجـارة، وشركـة نسـيج الفيـوم.

ومِـن ثـمَّ اشـتدت قبضـة الاسـتعمار والـسراي عـلى الحُكـم، عـن طريـق هذيـن الحِزبـين: السـعديين والدسـتوريين.

وكانـت الوسـيلة الرئيسـية لوصـول هذيـن الحزبـين إلى الحُكـم هـي تزويـر الانتخابـات، حيـث تدخلـت الحكومـة - كـما يقـول الرافعـي - تدخـلاً إداريًّـا لصالـح كثـير مِـن مُرشـحيها أو أنصارهـا، فلـم تكـن في جملتهـا انتخابـات حـرة ولا سـليمة.

وكانـت نتيجـة الانتخابـات المـزوَّرة في عـام 1937 نجـاح 193 مـن الأحـرار الدسـتوريين والسـعديين، و12 وفديًّـا لا غـير.

وكانـت وزارات السـعديين والدسـتوريين ألعوبـة في يـد الـسراي، فقـد طُـرد محمـد محمـود رئيـس الـوزراء، دون سـابق إنـذار، ليحـل محلَّـه رئيـس الديـوان الملـكي عـلى ماهـر في أغسـطس سـنة 1939 والبرلمـان هـو هـو، وليـس لعـلي ماهـر حـزب، ولا عضـو واحـد في البرلمـان!

بـل لم تَحُـلْ معاهـدة 1936 دون تدخـل الإنجليـز تدخـلاً سـافراً في شـؤون الحُكـم، فـما إن تشـكك الإنجليـز في ميـول عـلي ماهـر نحـو الـدول الفاشـية إثـر إعـلان الحـرب حتـى طلبـوا اسـتقالته، فأذْعِـن عـلي ماهـر واسـتقال، وتألفـت وزارة حسـين صـبري

التي جددت مدة امتياز البنك الأهلي أربعين عاماً، جُدِّد قبل أنْ يحلَّ موعد انتهاء الامتياز القديم.

ثم توفي حسين صبري، فقامت وزارة حسين سري في سنة 1940، وبرزت اتجاهات السراي وبعض كبار رجال المال، عندما جاء النصر مؤقتاً في صفِّ جيوش المحور، محور هتلر - موسوليني. وأخذت السراي وبعض كبار المُلاك، وبعض كبار رجال المال يتطلَّعون إلى السيد الجديد، ويتنكَّرون لسيدهم القديم. فكان أنْ تدخل الإنجليز في 4 فبراير تدخلاً مسلحاً. وأحاطوا السراي بالدبابات وأجبروا فاروق على تكوين وزارة برئاسة النحاس عام 1942... وما أن قاربت الحرب العالمية على الانتهاء، وما أن انتهت مهمة النحاس في تهدئة ثائرة الشعب، وفي تسخير موارد مصر خدمة للحُلفاء، دون الحصول حتى على مجرَّد وعد بالجلاء! خلَّى ما بينه وبين الملك، فكان أن طُرد مرة أخرى في أو آخر سنة 1944.

فمعاهدة 1936 لم تُغير كثيراً من جوهر السيطرة الاستعمارية السياسية منها أو الاقتصادية، كما أن معاهدة 1936 لم تُتح للوفد حُكماً لمصر، فاستمر الحُكم في يد كبار مُلاك الأرض وكبار رجال المال تحت إشراف وتوجيه السراي، واستمر التنكُّر للحياة البرلمانية العادية، واستمرت الحرب على الديمقراطية وحريات الشعب.

ولهذا استمرت المقاومة لمعاهدة سنة 1936 وفضحِها وكشفها، ولكن حركة المقاومة هذه لم تنجحْ في إيجاد جذور جماهيرية، لقد استمرت على نطاق الإثارة السياسية، دون أن توجِد حلولاً عملية، ودون أن ترتبط بالمطالب الحيوية الملحَّة للشعب، فاستمرت حركة معارضة للمثقفين أساساً، مِن جانب بعض شباب الحزب الوطني وبعض الشباب الذي لا ينتمي إلى أحزاب.

*الحركةُ العُمالية:

كان للقضاء على حزب الطبقة العاملة الوليد، وعلى الاتحاد العام لنقابات العمال أثره في ضعف الحركة العُمالية، وعدم قيامها بدور الطليعة في الحركة الوطنية، بل كان له أثره في كفاحها الاقتصادي نفسه. إذ كانت الأحزاب تسرب بعض صنائعها إلى النقابات، كما يقول الدكتور حسين خلَّاف، وتناصرهم حتى يغدو لهم الكلمة العُليا في النقابة. وكثيراً ما كانت تدفع الأحزاب برئيس أو

مستشـار للنقابـات مـن الشـخصيات البـارزة في المُحيـط السـياسي، أو مِـن المُحامـين المُنتمـين إلى أحـزاب معينـة، وقـد قـدم بعـض هـؤلاء الرؤسـاء والمستشـارين للنقابـات خدمـات لا تُنكـر. ولكـن أغلبهـم كان بعيـداً عـن إدراك حاجـات العـمال، بعيـداً عـن مشـاركتهم أحاسيسـهم، بـل كثـيراً مـا كانـوا يجهلـون مـا يتعلـق بالنشـاط النقـابي، فلـم تكـن النقابـة لديهـم إلا وسـيلة لنـصرة أحزابهـم وقضـاء مآربهـم الشـخصية.

وقـد حاولـت الأحـزاب أنْ تُنشِـئ اتحـاداً عامًّـا للنقابـات، فقـام أول اتحـاد عـام 1924 برئاسـة عبـد الرحمـن فهمـي، ففشـل، كـما فشـل سـعي حـزب الاتحـاد إلى الهيمنـة عـلى النقابـاتِ بتعيـين أحـد رجالِـه رئيسـاً للنقابـة العاملـة للعُـمال. لقـد كانـت اتحـادات لا صلـةَ لهـا بجماهـير العُـمال.

كـما تكـوَّن اتحـاد للنقابـات عـام 1930 برئاسـة داود راتـب، وكان عـلى صلـة بحـزب الأحـرار الدسـتوريين، ولكنـه لم يُعمـر طويـلاً أيضـاً، ثـمَّ قـام اتحـاد في ديسـمبر سـنة 1930 برئاسـة عبـاس حليـم، وكان عـلى صلـة وديـة بالوفـد إذ ذاك، ومعارضـاً لسياسـة صدقـي باشـا في الحُكـم، وقـد سـارعت النقابـات إلى الانضـمام إليـه، وفي سـنة 1933 أعلـن عبـاس حليـم تأسـيس حـزب للعُـمال يهـدف إلى إعـادة دسـتور سـنة 1923، وقانـون الانتخابـات المبـاشر الـذي عطلهـا صدقـي باشـا في سـنة 1931، ووجـوب الاعـتراف الرسـمي بالنقابـات والسـعي لتحديـد سـاعات العمـل، والأخـذ بنظـام التأمـين الاجتماعـي، ونقـل الاحتـكارات إلى الدولـة، وحـل الأوقـاف الأهليـة، ولكـن سرعـان مـا أوقـف الحـزب نشـاطه تحـت ضغـط الحكومـة مـن جهـة، ومنـاوأة كافـة الأحـزاب الأخـرى للحـزب الجديـد مـن جهـة أخـرى.

وأعـاد عبـاس حليـم تنظيـم الاتحـاد عـام 1934، وأنشـأ لـه فرعـاً، ولكـن النـزاع كان قـد دبَّ بينـه وبـين الوفـد، فكـون الوفـد اتحـاداً آخـر للعُـمال سـنة 1935، مـما أحـدث انقسـاماً في صفـوف النقابـات، وكان أن انـصرف كثـير مِـن العُـمال عـن نقاباتهـم، وكان أن هبطـت الاشـتراكات إلى العُـشر، وكان أن أصبـح هنـاك ثلاثـة اتحـادات في عـام 1938: اتحـاد تحـت إشراف مـا يُسـمَّى بالمجلـس الأعـلى، واتحـاد برعايـة الملـك، واتحـاد بزعامـة عبـاس حليـم (أحـد أفـراد الأسرة المالكـة).

وكان أن ضعُفـت الحركـة النقابيـة ضعفـاً شـديداً. إلا أنَّ كفـاح العُـمال الاقتصـادي لم ينقطـع رغـم عـدم وجـود الهيئـات النقابيـة، القـادرة عـلى تنظيـم هـذا الكفـاح.

ففي 1936، وتحت تأثير الجبهة الوطنية في فرنسا أواخر عام 1935 من جهة، وتحت تأثير التحرُّكات العُمالية والشعبية في العالم أجمع من جهةٍ أخرى، ونظراً لوجود أزمة اقتصادية، جرفت الإسكندرية والقاهرة والوجه القبلي موجة إضراب، اعتصم فيها العمال بالمصانع، وتدخل البوليس والجيش بالقوة المسلَّحة، فوقع عشرات من الضحايا، كما تجددت موجة الإضرابات في عام 1938 نتيجة سوء أحوال المعيشة.

ثمَّ بدأ العمال يدركون خطر سيطرة العناصر الرأسمالية والإقطاعية وممثليها على نقاباتهم، وأهمية استقلال الحركة النقابية عن نفوذ العناصر المُعادية للعمال، بحكم وضعها الاقتصادي، فاشتد اتجاه العمال إلى تأسيس نقابات حرة من سلطان السراي والأحزاب والرأسمالية وممثليها.

كما اشتد تحرك العمال من أجل الاعتراف بقانونية نقاباتهم، وقانونية النشاط النقابي، ومن أجل إنشاء اتحاد عام لنقاباتهم ممَّا اضطر الوزارة القائمة إلى أن تعرض مشروعاً بقانون نقابات العُمال 1940، ولو أن هذا المشروع أخذ يتعثر.

وأحس العمال بضرورة تكوين اتحاد عام لنقاباتهم، فأسرع بعض العُمال إلى إعلان اتحاد لنقابات عمال المملكة المصرية بقيادة عامل منهم. بدأ نشاطه بالتدخل في مشكلة العمال العاطلين في الأيام الأولى للحرب العالمية الثانية سنة 1939، ولو أن هذا الاتحاد لم يُعمِّر طويلاً.

وجاءت الحكومة الوفدية 1942، واضطرت تحت ضغط العمال إلى إصدار قانون النقابات سنة 1942 الذي اعترف، لأول مرة، بالكيان القانوني للنقابات، ولو أنه حرم العُمال الزراعيين من حق تكوين نقابات، كما حرَّم على نقابات العمال تكوين اتحاد عامٍّ لها، أو الاشتغال بالأمور السياسية. كما أصدرت الحكومة الوفدية قانون عقد العمل الفردي عام 1944، وقانون التأمين ضدَّ الحوادث. وكان أن زاد عدد النقابات حتى بلغ 210 نقابة سنة 1944، تضم 104 ألف عضو.

وهكذا أظهر العمال المصريون وعياً نقابيًّا، وأدركوا من خلال خبرتهم الذاتية، أهمية تنظيم صفوفهم في نقابات، وأهمية النقابات كتنظيم لكفاحهم الاقتصادي، وأهمية استقلال النقابات عن الأحزاب غير العمالية.

لقـد كانـت نشـأة صناعـات كبـيرة مصريـة، وتجمُّـع العـمال في مصانـع كبـيرة نسـبيًّا، بـل تركزهـم في مناطـق عُماليـة بأسرهـا، أثـره في زيـادة وعيهـم النقـابي، إلا أن حكومـات الإقطـاع والاحتـكار اسـتمرت تشـهر حربـاً حاميـة عـلى النقابـات محاولـة تفكيـك صفوفهـا ووضـع العنـاصر الصفـراء في مجالـس إدارتهـا، وتحطيـم كل محاولـة لإيجـاد اتحـاد عـام لهـا، فـكان كل ذلـك عوامـلَ إضعـاف للتنظيـم النقـابي في مـصر.

الفصل السابع
الاتجاه الشعبي الجديد 1946
-1-
الظروف الدولية

انتهت الحرب العالمية الثانية، ومُني أبشع ألوان الاستعمار بهزيمة ساحقة. لقد هزمت ألمانيا النازية، وإيطاليا الفاشية، واليابان العسكرية.

وكان في هزيمة الفاشية، هزيمة للمعسكر الاستعماري في النطاق العالمي، إذ اختفى، ولو إلى حين من المحيط الدولي، ثلاث من أقوى الدول الاستعمارية. بل وأصيب الاستعماريون الإنجليز والفرنسيون أنفسهم، بضعف شديد خلال الحرب. لقد هبطت أموالهم المستثمَرة في الخارج إلى الحضيض. وهذه الأموال هي مصدر الأرباح الفاحشة التي يعيش عليها الاستثمار، وتراكمت عليهم الديون لأمريكا، بل للمستعمرات وشبه المستعمرات. لقد أصبحت إنجلترا مدينة لمصر وحدها بقرابة 540 مليوناً من الجنيهات. كما أصيبت صناعة إنجلترا وفرنسا بالتخلف، سواء بالنسبة لأمريكا أو بالنسبة للاتحاد السوفيتي.

وكان لهزيمة الفاشية، ولإضعاف المعسكر الاستعماري، أثر ضخم في هبَّة الشعوب في كل أنحاء العالم مُطالبين بالتحرر مِن القبضة الاستعمارية.

انتهت الحرب العالمية الثانية، وخرج الاتحاد السوفيتي مظفراً، وكانت نتيجة هذا الظَّفَر، أنْ تجاوزت الاشتراكية نطاقَ دولة واحدة، فأصبحت معسكراً بأسره. وانقسم العالم إلى مُعسكرين.

ونظراً لضعف المعسكر الاستعماري وتأييد المعسكر الآخر لكافة الحركات التحررية فقد زادت الحركة التحررية في أنحاء العالم قوة، وخاصة في الصين وإندونيسيا وفيتنام وبورما والملايو وكوريا. وكان لهذا كله أثره القوي.

-2-

تطور الاقتصاد المصري

هذا في الوقت الذي أصاب فيه الاقتصاد المصري خلال الحرب، نتيجة انقطاع الواردات، تطوراً كبيراً. لقد نشأت صناعات جديدة، وتوطدت صناعات كادت أن تُفلس قبل الحرب.

فزادت رؤوس الأموال المستخدمَة في كافة الشركات المساهمة، الصناعية منها أو التجارية، من 86 مليون جنيه عام 1939 إلى 106 مليون جنيه عام 1945.

وارتفعت رؤوس الأموال المستخدمَة في الشركات المساهمة الصناعية وحدها من 15 مليون جنيه سنة 1939 إلى 33 مليون جنيه سنة 1946.

وكان أن زاد إنتاج النسيج من 100 مليون متر سنة 1939 إلى 142 مليون متر سنة 1947.

وارتفع إنتاج الغزل من 17 ألف طن سنة 1938 إلى 41 ألف طن سنة 1946.

وزاد نسج الصوف من مليون متر سنة 1938 إلى 2 مليون متر سنة 1946، كما زاد إنتاج الأسمنت من 370 ألف طن سنة 1938 إلى 590 ألف طن سنة 1946، وزاد إنتاج زيت البترول الخام من 226 ألف طن سنة 1938 إلى قرابة 1.350.000 طناً سنة 1945، وزاد إنتاج السُّكر من 159 ألف طن سنة 1938 إلى 222 ألف طن سنة 1947. وإنتاج الكحول من 4.9 ألف لتر سنة 1938 إلى 9.3 ألف لتر سنة 1946. وزيت بذرة القطن من 53 ألف سنة 1938 إلى 80 ألف طن سنة 1946.

وقد ارتفع صافي الإنتاج الصناعي من 13 مليون جنيه سنة 1939 إلى 18 مليون جنيه سنة 1945 (مقدرة بأسعار سنة 1930).

وكان معنى هذا أن زادت الرأسمالية المصرية قوة من الناحية الاقتصادية، فزاد تطلُّعها إلى مزيد من السيطرة السياسية.

وكان معنى هذا أيضاً أن زادت الطبقة العاملة عدداً. إذ ارتفع عدد المستخدمين بالصناعة (عمالاً وموظفين) في الصناعات المختلفة واستثمار المناجم والمحاجر من 247 ألف سنة 1937، إلى 578 ألف سنة 1948، أي أكثر من الضعف.

وبلغ مجموع أفراد الطبقة العاملة في المدن وفق إحصاء سنة 1947 ما يزيد عن المليون (1.042.277) بما فيهم عمال البناء والتجارة والنقل والخدمات العامة والشخصية، يضاف إليهم وفق نفس الإحصاء ما يزيد عن 1.410.000 عاملاً زراعيًّا.

وعلى هذا أصبح مجموع الطبقة العاملة المصرية في المدن والريف قرابة مليونين ونصف مليون عاملاً.

فنجد وفق إحصاء سنة 1947 التوزيع التالي للطبقة العاملة فيما يسمَّى بالصناعات الإنتاجية (أي الصناعات غير الخاصة بالتصليحات).

عدد العمال في المصنع الواحد	عدد المصانع	مجموع عدد العمال
أقل من عشرة عمال	23.362 مصنع	96.000 عامل
من 10 - 49 عامل	2.798 مصنع	58.000 عامل
من 50 - 499 عامل	519 مصنع	76.000 عامل
من 500 عامل فأكثر	64 مصنع	137.000 عامل
جملة	26.743	367.000 عامل

ويتجلَّى من هذه الإحصائية حقيقتان: الأولى أنَّ التركيب الصناعي في مصر قد تغيَّر، إذ بعد أن كان الجزء الأكبر من الإنتاج الصناعي إثر الحرب العالمية الأولى، مبعثراً بين ورش صغيرة، نجد الآن تركيزاً صناعيًّا كبيراً، فقد أصبح الجزء الأكبر من الإنتاج محصوراً في عدد قليل من المصانع المزودة بآلات حديثة نسبيًّا، لقد

أصبح 58% من العُمال الصناعيين مركزين في قرابة 583 مصنعاً، بل إنَّ قرابة ثلث العمال الصناعيين أصبحوا مركَّزين في 64 مصنعاً فقط.

والحقيقة الثانية هي اختلاف واضح بين تركيب الطبقة العامة إثر الحربين العالميتين - فقد كانت الطبقة العاملة سنة 1919 - إذا استثنينا عُمال العنابر، والترام، وقليل جدًّا مِن المصانع الكبيرة، مبعثرة غالبيتها في ورش صغيرة ومتوسطة. أمَّا في عام 1946، فقد أصبحت الطبقة العاملة مركَّزة في مصانع ضخمة، بل وفي مناطق عُمالية بأسرها تضم كل منطقة منها آلافَ العمال.

وقد كان لهذا التحول في تركيب الطبقة العاملة، عدداً وتجمُّعاً، أثره الكبير في الحركة الوطنية ما بعد الحرب. إذ كان حتماً في ظلِّ الظروف الدولية القائمة أن تلعب الطبقة العاملة المصرية دوراً رئيسيًّا، بل دوراً قياديًّا أحياناً، بعد أن كانت تلعب دوراً ذيليًّا في ثورة سنة 1919.

-3-

زيادة التمزق في المجتمع

ورغم التوسع في الإنتاج الصناعي، إلا أنَّ المجتمع المصري زاد فقراً في مجموعه. إذ لم يكن هذا التوسع كافياً لمواجهة الاضطراد في زيادة عدد السكان فالدخل القومي بالنسبة للفرد الواحد كان في هبوط مستمر.

وإليك الإحصائية التالية من عمل الأستاذ شريف في بحثه عن اقتصاديات المنافع العامة، مقدِّراً فيها الدخل القومي بالأسعار الثابتة، أي بالأسعار الحقيقية، مستبعِداً عامل الارتفاع الملحوظ في الأسعار.

متوسط السنوات	الدخل للفرد بالسعر الثابت
1880 - 1897	7.6 جنيهاً للفرد في العام
1913	12.4 جنيهاً للفرد في العام
1921 - 1928	12.3 جنيهاً للفرد في العام
1930 - 1933	8.2 جنيهاً للفرد في العام

1939 - 1935	9.6 جنيهاً للفرد في العام
1945 - 1940	9.4 جنيهاً للفرد في العام

ويتضح من هذا الجدول أنَّ متوسط دخل الفرد إثرَ الحرب العالمية الثانية قد هبط عما كان عليه بعد الحرب العالمية الأولى من 12.3 جنيهاً إلى 9.4 جنيهاً أي بمقدار 15% تقريباً!

ولا يمكن تصور مدى انخفاض هذا الدخل للفرد، إلا إذا قارناه بالبلاد المتقدمة وفق الإحصائيات الدولية عام 1929.

البلد	متوسط الدخل	البلد	متوسط الدخل
الولايات المتحدة	1453 دولار	الدانمارك	689 دولار
كندا	870 دولار	استراليا	679 دولار
نيوزيلندا	856 دولار	بلجيكا	582 دولار
سويسرا	849 دولار	فرنسا	482 دولار
السويد	780 دولار	إسرائيل	389 دولار
إنجلترا	773 دولار	إيطاليا	235 دولار

أما مصر فتقدِّر نفس الإحصائية متوسط دخل الفرد فيها بمائة دولار!

أضف إلى هذا سوء التوزيع الشديد لهذا الدخل بين طبقات الأمة.

ففي الريف كان هناك ما يقلُّ عن 13 ألف إقطاعي يملكون 36% من الأراضي، ثمَّ قرابة 23 ألف من أغنياء الريف الذين يديرون أملاكهم ويستخدمون العامل المأجور ويملكون 12 % من الأراضي، ثم هناك مليونان من متوسطي الفلاحين الذين لا يستغلون عمل الآخرين إلا جزئيًا وفي مواسم محدودة، ثمَّ 12 مليون من العمال الزراعيين وفقراء الريف.

وفي المُدن كان هناك ما لا يزيد عن 10 آلاف شخص، هم كبار التجار وكبار أصحاب الأسهم والسندات وأعضاء مجلس إدارة الشركات، هم الذين يملكون

معظم الأرصدة في البنوك ومعظم الأسهم والسندات وأهم المباني! ثمَّ قرابة مائة ألف من أصحاب المصانع والمتاجر الكبيرة والمتوسطة والصغيرة ممن يسمَّون بالرأسماليين الوطنيين، ثم 265 ألف من مستخدمي وموظفي الحكومة والمؤسسات غير الحكومية ثم قرابة مليون عامل في المدن، ثم مليون ونصف مليون ممَّن تصورهم الإحصائيات بأنهم يقومون بأعمال غير منتجة وغير واضحة.

ولو راعينا توزيع الدخل القومي، لوجدنا 61 % المائة من هذا الدخل يذهب إلى كبار المُلاك وكبار الرأسماليين... فقد قدر الدخل القومي عام 1945 بمبلغ 502 مليون جنيه، ذهب منه ما يزيد على 308 مليون جنيه في شكل إيجارات وأرباح وفوائد!

بينما نجد متوسط أجر العامل الزراعي في العام لا يزيد عن أربعة عشر جنيهاً وفق إحصائيات سنة 1950، أي لو راعينا ارتفاع تكاليف المعيشة لكان الأجر الحقيقي لا يتجاوز ثلاثة جنيهات في العام، كما أن متوسط الأجر السنوي لعُمال المُدن وفق إحصائيات 1942 لا يزيد عن 35 جنيهاً، أي ثمانية جنيهات أجر حقيقي في العام الواحد!

وحتى هذه الأرقام لا تكفي للدلالة على مقدار ما كانت تُعانيه مصر، فقد قدرت مصلحة الإحصاء في عام 1942 أنَّ ما يلزم لعامل وزوجته وأربعة أولاد، لا يقلُّ عن 439 قرشاً في الشهر طعاماً وكساءً، وذلك وفق الأسعار الرسمية، لا أسعار السوق السوداء التي كانت منتشرة في هذا الوقت.

ومع هذا فقد كان متوسط الأجر الشهري للعامل في سنة 1942 لا يتجاوز 293 قرشاً في الشهر.

أي أنَّ الأغلبية الكُبرى للطبقة العاملة في المدن تعيش دون الحد الأدنى للكفاف بمقدار النصف تقريباً.

ولا شكَّ أن حالة العمال الزراعيين أسوأ من عمال المدن، وأن حالة أشباه العمال ممَّن لا يقومون بأعمال واضحة أكثر سوء.

هذا في الوقت الذي ارتفعت فيه الأرباح الموزَّعة في الشركات المساهمة في مصر من سبعة ملايين ونصف مليون جنيه في سنة 1942 إلى قرابة عشرين مليون جنيه عام 1946، يذهب أغلبها إلى جيوب الاحتكاريين من أجانب ومصريين.

كما ارتفعت إيجارات الأراضي الزراعية من 35 مليون جنيه عام 1939 إلى 90 مليون جنيه عام 1945، يذهب معظمُها إلى جيوب الإقطاعيين.

من هذا الواقع الاقتصادي، نستطيع أنْ ندرك طبيعة المرحلة الجديدة للحركة الوطنية، فلم تكن موجهة ضدَّ الاستعمار فحسب، وإنما موجهة ضدَّ الاحتكار والإقطاع معاً، فلم يكن الاحتكار والإقطاع سنداً للاستعمار فحسب، وإنَّما كانا مِن أبشع المستغلّين للجماهير الكادحة.

-4-

معسكر الشعب ومعسكر الاحتلال

انتهت الحرب وكانت الحكومة القابضة على أزمة الحُكم، إذ ذاك، هي حكومة السعديين والدستوريين، حكومة الاحتكار والإقطاع، وعلى رأسها السراي.

وانتظر الشعب من الحكومة لعلها تصنع شيئاً، ولكنها لم تصنع شيئاً.

وبدأ الرأي العام يزداد سخطاً، حتى لقد انعكس هذا على شركاء النقراشي في الحُكم، فخرج حسين هيكل، رئيس الأحرار الدستوريين، في تصريح له في الأهرام يقول: إن النقراشي باشا رأى أنْ يسلك في سبيل هذه السياسة، خطة من المجاملة لوزارة الخارجية البريطانية، تقديراً لموقف إنجلترا الدقيق الحاضر، حتى لقد آخذه بعض مَن يرون في المُجاملة السياسية ضرراً، ولم تغيِّر هذه المؤاخذة خطة رئيس الوزراء في سياسة الأخذ والردِّ وحسن المجاملة (يناير 1946).

هذا في الوقت الذي خرج فيه وزير خارجية مصر يقول: لقد ظلت بريطانيا ومصر شريكتين مدة تزيد على نصف قرن، ولست أزعم أن هذه الشراكة كانت مُتجانسة على الدوام، ولكن زمن العلاقات غير الودية قد انقضى، وخرجت الدولتان من الحرب تربطهما أواصر الصداقة برباط أقوى مما كان في أي وقت مضى.

لا تنسى أن وزير خارجية مصر لا بريطانيا هو الذي يصرح بهذا!

وفي الوقت الذي طالبت فيه العناصر الواعية بعرض قضية مصر على مجلس الأمن وإخراجها من نطاق العلاقة الثنائية بين إنجلترا ومصر، ترى عبد الحميد

بـدوي باشـا منـدوب الحكومـة في هيئـة الأمـم يقـول في تصريـح لـه في 20 ينايـر سـنة 1946: إنـه لا يعتقـد أنَّ مِـن شـأن مجلـس الأمـن أنْ يتنـاول أيـة مشـكلة تتعلـق بمـصر أو العـالم العـربي. إن موقـف هـذه الـدول مـن مشـكلاتها مـمَّا لا يُحتمـل أن يكـون مصـدر تهديـد للسـلام والأمـن الـدولي، مـمَّا لا يجعلهـا بنـاء عـلى ذلـك مـن اختصـاص مجلـس الأمـن.

هكـذا كانـت خطـة ممثـلي الاحتـكار والإقطـاع في مـصر: أن تبقـى معاهـدة 1936 وأن يبقـى التحالـف، وأن تبقـى التبعيـة لإنجلـترا، وأن تبـدأ المُطالبـة ببعـض تسـويات عندمـا تفـرغ بريطانيـا مِـن مشـاكلها!

*موقف الوفد:

وأخـذ الوفـد في ذلـك الوقـت، وقـد كان في المعارضـة، يشـدِّد الحمـلات الصحفيـة تحـت شـعار الجـلاء ووحـدة وادي النيـل، ويعيـب عـلى الـوزارة كل حركـة مـن تحركاتها.

ولكـن وفـد سـنة 1945 لم يكـن وفـدَ سـنة 1919، لقـد تهـادَن مـع الاسـتعمار بعقـده معاهـدة 1936.

وأثـيرت الشـكوك حـول مجيئـه للحُكـم في سـنة 1942، فوصـف بأنـه لم يـأت إلا عـلى أسـنَّة الحِـراب البريطانيـة، ورغـم أن هـذه الحملـة عـلى الوفـد قـد شـنتها أبـواق الـسراي وأحـزاب الإقطاعيـين والاحتكاريـين، إلا أنـه كان فيهـا جانـب مِـن الصـدق ولا شـك. كـما جربـه الشـعب في الحُكـم أكـثر مـن مـرة، فوجـده متخـاذلاً ضعيفـاً مـتردداً في تحقيـق المصالـح الشـعبية، متخـاذلاً مـع الاسـتعمار والإقطـاع والاحتـكار.

كـما تسرَّبـت إلى قيادتـه بعـض العنـاصر الإقطاعيـة، وخضـع لنفـوذ بعـض رجـال المـال.

وكان أن انفضَّـت عنـه جماهـير كثيرة، وخاصـة في المُـدن فلـم يصبـح الوفـد قـادراً عـلى تنظيـم الجماهـير أو حشـدها أو تحريكهـا، إنَّمـا أصبـح عـماده أساسـاً، الإثـارة الصحفيـة التـي لا تنتهـي إلى حشـد أو تعبئـة أو برنامـج واضـح محـدد، أو حلـول عمليـة.

•أفكار جديدة:

وبـدأ التفكـير العلمـي للتاريـخ وللحركـة الوطنيـة يسـود الأجـزاء المتقدمـة مـن الطلبـة والعـمال، وأخـذوا يعـبِّرون عـن أفكارهـم هـذه في نـوادٍ ومجـلَّات مختلفـة، وتمخَّضـت هـذه الأفـكار عـن تحديـد دقيـق للأمـاني القوميـة.

وفي أواخـر 1945، كان الاتحـاد العالمـي لنقابـات العـمال قـد أعلـن عـن مؤتمـره التأسـيسي الأول، وأهـاب باتحـادات العـمال ونقاباتِهـا، أنْ ترسـل مندوبـين مفوَّضـين عنهـا للاشـتراك في المؤتمـر، وكان أن قامـت في مـصر هيئتـان للعُـمال: اللجنـة التحضيريـة لعُـمال القُطْـر المـصري، ثـمَّ مؤتمـر نقابـات عـمال القُطْـر المِـصْري.

واسـتطاعت القـروش التـي جمعهـا العـمال المصريـون أنْ تبعـث إلى المؤتمـر التأسـيسي للاتحـاد العالمـي للنقابـات، الـذي عُقـد في باريـس في أكتوبـر سـنة 1945 بوفديـن، وفـد يمثِّـل اللجنـة التحضيريـة، ووفـد يمثـل المؤتمـر، وأمكـن في باريـس توحيـد الوفديـن.

ولم يكتـف مندوبـو العُـمال المصريـين بمناقشـة مشـاكل الأجـور والبطالـة وسـاعات العمـل. وإنمـا وضعـوا عـلى رأس الموضوعـات التـي قدَّموهـا المسـائلَ الآتيـة:

* العمال المصريون يطالبون بطردِ القوات الأجنبية من وادي النيل.
* الاستعمار البريطاني وأثره في تأخير الصناعة المصرية.
* الاستعمار البريطاني ومحاربته للحركة النقابية في مصر.
* الاستعمار البريطاني والمشكلة الزراعية.
* الاستعمار البريطاني عدوٌّ الحُريات.

وكان أن ظهـر بـين قـرارات الاتحـاد العالمـي للنقابـات، قـرار ينـدد بالاسـتعمار البريطـاني وأعوانـه في مـصر.

لقـد بـدأ الوعـي الوطنـي عـلى أسـس علميـة واضحـة يتـسرَّب إلى صفـوف المثقَّفين وإلى بعـض أجـزاء الطبقـة العاملـة المصرية.

•مذكرة النقراشي:

واشـتدت حملـة الصحافـة المصريـة المعارضـة، كـما بـدأ الـرأي العـام يـزداد سـخطاً عـلى حكومـة النقـراشي، لإغفالها المطالـب المصريـة الوطنيـة، ولوقوفها موقـف الصمـت، حتـى ليقـول راديـو موسـكو: إن الصحافـة المصريـة تطالـب بانسحاب القوات البريطانيـة مـن مـصر، والحكومـة البريطانيـة مشـغولة جـدًا في الوقـت الحـاضر، فـلا تسـتطيع درس المطالـب المصريـة، مـما أثـار دهشـة الشـعب واسـتياءه الشـديد.

واضطـرت الحكومـة النقراشـية أنْ تصنـع شـيئاً آخِـرَ الأمـر... وكان أنْ تقدَّمـت - في خفيـة مـن الشـعب - بمذكـرة هزيلـة إلى الحكومـة البريطانيـة في 20 ديسـمبر 1945، تطالـب بإعـادة النظـر في معاهـدة 1936، كي تكـون متمشـية مـع الحالـة الدوليـة الجديـدة، وتطالـب بسـحب القـوات البريطانيـة في زمـن السِّـلم، إذ أنـه مـن الخـير للبلديـن أن تقـوم العلاقـات بينهـما عـلى التفاهـم والثقـة المتبادَلـين... وأن مصر سـتزيد مـن قواتهـا العسـكرية حتـى تكـون قـادرة عـلى صـدِّ عـدوان المعتـدي حتـى تصـل إليهـا إمـدادات حلفائهـا، وأن تكـون علاقـات مـصر مـع بريطانيـا مسـتقرة عـلى أسـاس مـن التحالـف، واثقـة أن حليفتهـا بريطانيـا ستشـاركها هـذا الـرأي.

فمذكـرة النقـراشي تضـع مبـدأ التحالـف مـع بريطانيـا كأسـاس محـدَّد للعلاقـات المصريـة البريطانيـة.

وانتظـر النقـراشي. فجـاءه ردُّ الحكومـة البريطانيـة بعـد قرابـة شـهر ليقـول: إنَّ المبـادئ الأساسـية التـي قامـت عليهـا معاهـدة 1936 سـليمة في جوهرهـا... إنَّ سياسـة حكومـة جلالـة الملـك هـي أنْ تدعـم بـروح مـن الصَّراحـة والـودِّ، التعـاون الوثيـق الـذي حققتـه مـصر ومجموعـة الأمـم البريطانيـة أثنـاء الحـرب.

كأن مصر ومجموعة الأمم الإمبراطورية شيئ واحد!

ثـمَّ اسـتطرد الـرد: أنْ تقيـم هـذا التعـاون عـلى أسـاس المشـاركة الحـرة الكاملـة بـين ندَّيـن للدفـاع عـن مصالحِهـا.

نظرية المشاركة الحرة، هي نفس نظرية الحلف المشترك.

واشـتد سـخط الشـعب عندمـا اطلـع عـلى المذكِّرتـين: النقراشـية والبريطانيـة، واشـتدت حملـة الصحافـة الوفديـة، وقـرر الشـعب أن يتحـرك بنفسـه.

***مذبحة كوبري عباس:**

وبـدأت الإضرابـات... إضراب كليـة اللغـة العربيـة عـن الطعـام، ومبيتهـم في الفصـول، وبـدأت الاحتجاجـات: اللجنـة التنفيذيـة العُليـا للطلبـة تحتـج، اتحـاد خريجـي الجامعـة يصـدر بيانـاً مطـوَّلاً، متنـاولاً مذكـرة الحكومـة والـرد البريطـاني، اللجنـة التنفيذيـة العُليـا لطلبـة الجامعـة والمعاهـد العُليـا تقـرر في 8 فبرايـر دعـوة الطلبـة إلى عقـدِ مؤتمـرات في معاهِدهـم لمناقشـة الحالـة الحـاضرة.

وعُقـد مؤتمـر جامعـي يـوم السـبت 9 فبرايـر 1946، وتجمَّـع الطلبـة ليخرجـوا في مظاهـرة ضمـت بضعـة آلاف منهـم، وتحركـت المظاهـرة نحـو قـصر عابديـن، وكان شـعارها: الجـلاء! لا مفاوضـة إلا بعـد الجـلاء.

وبلغـت المظاهـرة كوبـري عبـاس، ووجـده الطلبـة مفتوحـاً، وصمَّـم الطلبـة عـلى اجتيـازه، وحاصرتهـم قـوة البوليـس مـن الجانبـين، وكانـت تحت قيـادة ضابـط إنجليزي، وانهالـت عـلى الطلبـة بالـضرب بالعِـصي الغليظـة في قسـوة متناهيـة، وأطلقـت قـوات البوليـس أعـيرة ناريـة، حتـى لقـد اضطـر بعـض الطلبـة إلى الإلقـاء بأنفسِـهم في النيـل.

وكانت مذبحةُ كوبري عباس.

وهبَّـت المظاهـرات محتجَّـة في الإسـكندرية والزقازيـق والمنصـورة والسـنبلاوين، وتجمَّـع طلبـة الإسـكندرية، واتجهـوا إلى حـي كرمـوز، حيـث قامـوا بمظاهـرة كبـيرة.

وقُتل ثلاثة في الإسكندرية، وثلاثة في الزقازيق، وواحد في المنصورة.

وتعـدَّدت المظاهـرات رغـم هـذا، وتعـدَّدت الجنـازات الصامتـة، وقامـت معركـة بـين الطلبـة المحتشـدين في قـصر العينـي ضـدَّ البوليـس، اسـتمرت يومـاً كامـلاً.

واضطرت الوزارة إلى الاستقالة في 15 فبراير 1946.

ولكـن الـسراي تحـدت الشـعب، واختـارت إسـماعيل صدقـي، رئيـس اتحـاد الصناعـات، وعضـو مجلـس إدارة شركـة القنـاة، لرئاسـة الـوزراء.

***اللجنة الوطنية للعُمال والطلبة:**

ولكن الشعب ردَّ على تحدي السراي بتحدٍ مُقابل له، فكان أن استمرت المظاهرات، مِن جانب مختلف المدارس ومختلف الأحياء.

كما أصدرت لجنة مشتركة من الطلبة في 17 فبراير ميثاقاً وطنيًّا:

* الجلاء التامُّ برًّا وبحراً وجوًّا عن كل شبر من أراضي وادي النيل.

* دولية القضية المصرية.

* التحرر مِن العبودية الاقتصادية

* وختمت ميثاقها ببيت من الشعر:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة

فلا بُد أنْ يستجيب القَدَر

ولا بُد لليل أن ينجلِي

ولابُد للقيد أن ينكسر

وكان هذا الميثاق يمثل تقدماً سياسيًّا كبيراً، فلم يعدْ شعار الأجزاء الواعية من الشعب: الجلاء ووحدة وادي النيل، الوحدة التي كانت تتيح للاستعمار الفصل ما بين كفاحي الشعب، بدعوى أنَّ مصر لا تريد للسودان استقلالاً، وإنما تريد أن تفرض عليه الوحدة فرضاً، وإنَّما غدا الشِّعار: الجلاء التامُّ عن مصر والسودان معاً، كما أن الحرب الباردة بين المعسكرين لم تكن قد أُعلنت بعد، فكان لمجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة قوتهما المعنوية. لقد تدخل مجلس الأمن تدخلاً ناجحاً في استقلال سوريا، فكان عرض القضية إذ ذاك على مجلس الأمن من أنسب الأوقات.

ولكنَّ الطلبة أحسوا أنَّ هذا لا يكفي، وتطلَّعوا حولهم، ماذا عساهم صَانعين؟

وبدأت الاتصالاتُ بين الطلبة والعُمال.

وكان أنْ تكوَّنت في مدرج كلية الطبِّ بالقاهرة اللجنة الوطنية للعمال والطلبة.

وقرَّرت نقابات العمال بالقُطْر المصري وطلبة الجامعات المصرية والأزهر والمعاهد العُليا والمدارس الخصوصية والثانوية، أنْ يكون يوم الخميس 21 فبراير

1946 يـومَ الجـلاء، يـومَ إضرابٍ عـامٍّ لجميـع هيئـات الشـعب وطوائفِـه، يـومَ اسـتئناف للحركـة الوطنيـة المقدَّسـة التـي تشـترك فيهـا كلُّ عنـاصر الشـعب المـصري مكتملـة، حـول حقِّهـا في الاسـتقلال التـامِّ والحريـة الشـاملة، يـومَ إشـعار المسـتعمِر البريطـاني والعـالم الخارجـي أجمـع، أن الشـعب المـصري قـد أعـدَّ عُدتـه للكفـاح الإيجـابي، حتـى ينجـلِي كابـوس الاسـتعمار الـذي ظـلَّ جَاثمـاً عـلى صدورِنـا منـذ 64 عامـاً.

يـومٌ هـو وثيقـة في أيـدي المفاوضـين المصريـين، يقدمونهـا دليـلاً للمسـتعمِر عـلى أن الشـعب المـصري مصمِّـم عـلى ألا يتخـلَّى لحظـة واحـدة عـن الجـلاء عـن مـصر والسـودان.

يـومُ يقظـة عامـة للشـعب المـصري، يؤكـد فيهـا أنـه لـن يقبـل أي انحِـراف أو تهـاون في حقِّـه في الاسـتقلال والحريـة.

يـومٌ تتعطَّـل فيـه المرافـق العامـة ووسـائل النقـل والمحـلات التجاريـة والعامـة، ومعاهـد العمـل والمصانـع في جميـع أنحـاء القُطْـر.

إنَّ جـلال هـذا اليـوم ليَهِيـب بنـا جميعـاً ألا ننحـرِف بقضيتنـا المُقدَّسـة إلى شـغْبٍ أو تخريـبٍ أو إخـلالٍ بالأمـن العـام.

فلنرفـع جميعـاً لـواء الوطـن عاليـاً، ولنثبـت وحدتنا التـي لا تنفصـم عـمالاً وصُنَّاعاً، طلبـة وتجـاراً وموظفـين، شـعباً متكتِّـلاً، يرفـع عن نفسِـه وصمـةَ الذلِّ والاسـتعباد.

***

وفي هـذا اليـوم، يـوم 21 فبرايـر 1946، سـارت مظاهـرةٌ تضـمُّ مَـا يزيـد عـن الأربعـين ألفـاً، وقِيـل مائـة ألـف، وأخـذت تطـوف بأهـم شـوارع القاهـرة، حتـى بلغـت ميـدان التحريـر (الإسـماعيلية سـابقاً).

وهُنـا تصـدَّت لهـا أربـع سـيارات بريطانيـة مصفَّحـة، واقتحمـت الجمـوع لا تعبـأ بشـيئ، وكان مسـتحيلاً إفسـاح الطريـق لهـا، فسـقط قتـلَى وجرحَـى، وغضبـت الجمُـوع، واسـتولت عـلى السـيارات البريطانيـة وأشـعلتْ فيهـا النـيران.

وكان أن أطلقـت جنـود الاحتـلال الرصـاص عـلى المتظاهريـن مـن معسـكرهم، فخلـع بعـض العُـمال والطلبـة ملابسـهم وغمسـوها في بنزيـن السـيارات المصفحـة التـي حطَّموهـا، وزحفـوا عـلى بطونهـم وأشـعلوا النـار في الحواجـز الخشـبية التـي كان يحتمـي وراءهـا جنـودُ الاحتـلال.

وحاول بعض المتظاهرين الاستيلاء على السلاح من مخزن الذخيرة، كما اقتحم البعض الآخر العمارات التي كانت تُطلق منها رصاصاتٌ غادرة على المتظاهرين.

ونزلت القوات البريطانية المسلَّحة في الشوارع، ولكن المظاهرات لم تنقطع طول اليوم. بل خرجت من حي باب الشعرية سيدات من لابسات المَلاءة والبُرقع هاتِفات: أولادنا فداء مصر!

وسقط من الشهداء ثلاثةٌ وعشرون قتيلاً و121 جريحاً، نذكر منهم: أحمد سيد أحمد سالم، حسن حامد حسن، محمد فهمي، محمد أبو النضر، ومواطنون آخرون.

وفي كل مكان في أنحاء القُطْر، خرج العُمال والطلبة جنباً إلى جنب يحتفلون بيوم الجلاء: في الإسماعيلية، وسمنود، والمحلة الكُبرى، وطنطا، ودكرنس، والزقازيق، وبورسعيد، ومنيا القمح، وزفتَى، وقويسنا، والسنبلاوين.

وخرج صدقي على الشعب ليقول في بيان له: إن المظاهرات السلمية التي قامت صباح اليوم، قد تحوَّلت بفعل الأيدي التي لم تعدْ خَافِية، واندَّس عناصر مِن الدَّهماء في صفوف الطلبة والأبرياء... كل هذا حوَّلها إلى مظاهرات ظهر عليها طابع الشَّرِّ... إنَّ المظاهرات السلمية البريئة التي كان عمادُها الطلبة الأبرياء... انقلبتْ، مع الأسف الشديد، إلى مظاهرات اختفى منها عنصرُ الطَّلبة والمُتعلِّمين.

العمال في نظر رئيس اتحاد الصناعات هم الدَّهماء، ومقاومة الاحتلال، والردُّ على الاعتداء هو الشر. ثمَّ لا كلمة واحدة عن اعتداء السيارات المصفحة البريطانية، ولا عن رصاص البريطانيين!

وجاء ردُّ الطلبة حاسماً، إذ اجتمعت اللجنة التنفيذية للطلبة وقرَّرت:

1. إعلان الحِداد العام.
2. الموافقة على قرار اللجنة الوطنية للعُمال والطلبة بإصدار ميثاق وطني يوقِّع عليه جميع الزعماء، يلزمهم عدمَ قبول الحُكم إلا على أساس تصريح بريطاني، يعترف بالجلاءِ التامِّ عن وادي النيل كأساس للمُفاوضة.
3. سحب الموظَّفين الإنجليز مِن البوليس المصري.

4. استنكار بيان رئيس الحكومة للتفرقةِ بين طبقات الشعب، ووصْفِ المواطنين الأحرار بالدَّهماء.

واجتمعت اللجنة الوطنية للعُمال والطلبة، وأصدرت القرارات الآتية:

- إقامة صلاة الغائب يومَ الحِداد العام.
- مطالبة الحكومة بالعمل على تنفيذ الجلاءِ فوراً عن المُدن الكُبرى.
- إصدار تصريح واضح، أن يكون أساسُ المفاوضة هو تحديد يومٍ للجلاء التامِّ عن وادي النيل.
- تستنكر اللجنة الحظرَ الذي أقامته الحكومة على الصحافة بعدم نشر أبناء الحركةِ الوطنية.

وسرعان ما أصدرت اللجنة الوطنية ميثاقاً وطنيًّا جاء فيه:

لمَّا كان الجلاء مطلباً أساسيًّا، إذ بدونه لا تتحقق سيادةُ الأمم، ولا نتصور أنْ توجد أمة حرة، وهي ترزخ باحتلال الجنود الأجانبِ.

ولمَّا كان الجلاء مطلباً لا يَحتمل المُساومة أو التجزئة، بل لابدَّ أنْ يكون جلاءً تامًّا.

لذا فاللجنة الوطنيةُ تطلب من المسئولين المصريين أنْ يُعلنوا أنهم لن يقبلوا الحُكم أو المفاوضة، إلا على أساسِ تصريحٍ مِن بريطانيا بالموافقة على الجلاء عن وادي النيل، فإذا رفضت هذا الطلب العادل، فيجب عرض القضية المصرية على مجلسِ الأمنِ الدولي فوراً، كما تطلب مِن الحكومة إعلان هذا المطلب رسميًّا لدى الإنجليز من الآن.

ولكن حكومة كبار الرأسماليين كانت تَعُدُّ العُدَّة لغير ذلك، كانت تُمَهِّد كلَّ شيئ، لإجراء مفاوضات مع المستعمِر، مهما كان الثمن.

*يومٌ عالميٌّ:

ولم يكـن يـوم 21 فبرايـر 1946 يـومَ مـصر فحسـب، وإنَّمـا كان يـوم الهنـد أيضـاً، إذ طـاف شـوارع بومبـاي بعـد ظهـر نفـس اليـوم، ألـوف مِـن رجـال سـلاح الطـيران الهنـدي، هاتِفِـين: لتحيـى الثـورة! واعتُقـل 28 بحـاراً في الأسـطول الهنـدي لرفضهـم إطاعـة الأوامـرِ بالانـصراف إلى أعمالِهـم، وزاد التمـرد اتسـاعاً وخطـورة في صفـوف البحَّـارة، وتضامـن الشـعب مـع البحَّـارة، وأعلـن عـمال الـترام في كَلكتَّـا في الهنـد إضراب 24 سـاعة، فتضامـن معهـم موظفـو سـلاح الطـيران الهنـدي.

واصطـدم الشـعب الهنـدي بالقـوات المسـلحة البريطانيـة، فسـقط منهـم 25 شـهيداً، و500 جريـح.

ولهـذا أصبـح يـوم 21 فبرايـر يومـاً عالميًّـا، يحتفـل بذكـراه شـباب العـالم أجمـع، باعتبـاره يومـاً، هـبَّ فيـه شـعبان عظيـمان كالشـعب الهنـدي والمـصري ضدَّ الاسـتعمار، وفي تحـركات داميـة.

*4 مارس:

ورغـم الاضطهـاد الـذي تعرَّضـت لـه اللجنـة الوطنيـة مـن جانـب الحكومـة، ورغـم حظرهـا عـلى الصحـف نـشرَ أنبائهـا وقراراتـه، ورغـم تضييـق الحكومـة عـلى اجتماعاتهـا، فإنَّهـا زاولـت نشـاطَها، وقـرَّرت أنْ تحـدِّد يـومَ الاثنـين 4 مـارس 1946، يـومَ حـدادٍ وطنـي عـامٍّ عـلى شـهداء 24 فبرايـر.

وذهـب أعضـاء اللجنـة إلى الحكومـة، مُطالبـين باشـتراك البوليـس والجيـش والموظَّفـين في حِـداد 4 مـارس.

وأسرع صدقـي إلى مقابلتهـم، وحـاول أنْ يُثنيهـم عـن قرارهِـم هـذا، بدعـوى أنَّ السـفارة البريطانيـة قـد أنذرتـه بنـزول القـوات المسـلحة البريطانية لـضرب المتظاهرين. وطلـب منهـم أنْ يتركـوه يعمـل في هـدوءٍ.

ورد مندوبـو العُـمال والطلبـة أنـه إذا لم تشـترك الحكومـة في يـوم الحِداد، فالشـعب هـو الـذي سـيقيم الحِـداد، وأنَّـه إذا كان هنـاك مِـن خطـر مِـن نـزول قـوات الاحتـلال، فـإنَّ الشـعب مسـتعِدٌ أنْ يـردَّ الاعتـداء، وأنـه إذا كانـت الحكومـة تريـدُ أن تسـجل لنفسِـها صفحـة وطنيـة، فلتـصرح بحملِ السـلاح، ولتمـدَّ الشـعبَ بالسـلاح.

وجـاءت صبيحـة 4 مـارس... فـإذ الصحـف محتجِبـة والمَتاجِـر والمقاهـي والمَحـال العامـة مغلقـة، والمـدارس مُضْرِبـة، والمصانـع في جميـع أنحـاء القُطْـرِ مُعطَّلـة.

لقد استجاب الشعبُ المصريُّ كله لقيادته الوطنية الجديدة.

وكاد اليـوم يمـرُّ بسـلام، لـولا جنـود الاحتـلال، فقـد سـارت مظاهـرة سِـلمية مِـن العـمال والطلبـة في الإسـكندرية، ومـرَّت بأحيـاء عديـدة مـن المدينـة، وفشِـل البوليـس في تفريقهـا. ولمَّـا بلغـت المظاهـرة فندقـاً مخصصًـا لإقامـة بعـض رجـال البحريـة البريطانيـة، شـاهدت العلـم البريطـاني مرفوعـاً عـلى الفنـدق، وكان رفعـه في هـذا اليـوم بالـذات، تحديـاً صريحـاً للشـعور الوطنـي.

ونجـح المتظاهـرون - رغـم رصـاص البوليـس - في إنـزال العلـم وتمزيقِـه، وسـارت الجمـوع تحمـل قَتْلاهـا، ففوجئـت في شـارع سـعد الأول بعيـارات ناريـة تُطلـق مِـن نوافـذ البيـت رقـم 14، لقـد كان يقطُـن الأدوار العلويـة مِـن هـذا البيـت بعـضُ جنـود الاحتـلال.

فغضِبـت الجمـوع وصمَّمـت عـلى اقتحـام البيـت، وحـال بينهـما البوليـس بالرصـاص. واندفعـت الجمـوع، حتـى إذا مـا بلغـت كشـكَ البوليـس الحـربي البريطـاني بميـدان سـعد زغلـول، انتزعـوا لافتتـه، فأطلـق عليهـم الإنجليـز الرَّصـاص، فلـم تعبـأ الجماهـير برصاصهـم، وهاجمـت الكشـك وأحرقتـه وقتلـت العسـاكِر البريطانيـين القائمـين فيـه. وبلـغ عـددُ القتْـلَى مِـن المِصريـين 28 والجرحَـى 342.

وقـام العـمال والطلبـة السـودانيون في الخرطـوم وأمِّ درمـان بمظاهـرات قويـة في 12 مـارس 1946 مشـاركةً لشـعب مـصر في كفاحـه ضـدَّ الاسـتعمار.

لقـد تحـرك الشـعب المـصريُّ، وتحـرك الشـعب السـودانيُّ تحـت قيـادة مـن نـوعٍ جديـدٍ.

***

كـما كان للحركـةِ الوطنيـة أثرهـا في التنظيـمات الاقتصاديـة للعُـمال، فتكـوَّن "مؤتمـر نقابـات عُـمال القُطْـر المـصري" الـذي ضـمَّ ممثـلي عـشرات مـن النقابـات الكبـيرة، ووضـع برنامجـاً يحـدِّد أهـداف العُـمال، ووضـع عـلى رأس هـذا البرنامـج: الاسـتقلال التـامَّ سياسـيًّا واقتصاديًّـا، والجـلاء التـامَّ عـن وادي النيـل.

•إرهـــابٌ:

إلا أنَّ خطـة حكومـة كبـار الماليـين كانـت القضـاء عـلى القيـادات الجديـدة للحركـة الوطنيـة، وذلـك بتحطيـم اللجنـة الوطنيـة للعُـمال والطلبـة، فدفـع صدقـي بعـض صنائعـه إلى تكويـن مـا أسـمَوه اللجنـةَ القوميـة، وفتـح لهـا أبـواب النـشر المختلفـة، هـذا في الوقـت الـذي حـرَّم فيـه عـلى الصُّحـف مجـرَّد الإشـارةِ إلى اسـم اللجنـةِ الوطنيـةِ للعُـمال والطلبـة.

وكانت كلُّ هذه المحاولات لتحطيمِ الحركةِ الوطنية والحركة العملية تستهدف:

1. التمهيد لإجراء مفاوضات مع الإنجليز.
2. حماية مصالح كبار رجال المال على حساب العمال.

لقـد خفَّـض صدقـي ضريبـة الأربـاح الاسـتثنائية مِـن 75% إلى 50%، في وقـت انتـشرت فيـه البطالـة بـين صفـوف العُـمال، حتـى بلغـت المائـة ألـف. واسـتبقى صدقـي الضُّبـاط الأجانـب في البوليـس المـصري اسـترضاءً للمسـتعْمِر. وخـدم صدقـي شركـة القنـال بـأنْ أصـدر مرسـوماً يعفيهـا مِـن شرط الدفـعِ بالذهـب.

ولكـن المقاومـة الشـعبية اسـتمرت لا تهـدأ، واسـتمرت معارضـة الصحـف الوفديـة وغيرهـا، وأخـذت المفاوضـات مـع المسـتعمِر تتعـثَّر.

وأصـدرت اللجنـة الوطنيـةُ نـداء في 8/7/1946 نشرتـه الأهـرام مناديـاً بقطـع المفاوضـات، واعتبـار قضيـةِ وادي النيـل قضيـةً دوليـةً واجبـة العـرض عـلى مجلـس الأمـن، واعتبـار يـوم 11 يوليـو، يـومِ ضرب الإنجليـز للإسـكندرية، يـومَ تجديـدِ الجهـاد الوطنـي.

وأمـضى ممثلـو خمـسَ عـشرةَ هيئـةً شـعبية نـداء في 10/7/1946 جـاء فيـه: غـداً يحـلُّ موعـد الذكـر المؤلِمـة لـضرب الاسـتعمار للإسـكندرية... فـإلى جميـع طبقـات الأمـة وهيئاتِهـا، نهيـب بإظهـار الشـعور الوطنـي عـلى حقيقتـه، في هـذا اليـوم الـذي يحمـل مزيجـاً مِـن الألم والكِفـاح المريـر في سـبيلِ الحريـة.

***

ورأى صدقـي عندئـذ أنْ يـضرِب ضربتَـه... فاعتقـل في ليلـة 10 يوليـو 1946 المئـات مـن الصحفيـين والكُتَّـابِ والمثقَّفـين والعُـمال، كـما صـادر عـدداً مِـن الجرائـد وأغلـق عـدداً مِـن النَّـوادي.

وبدأت المفاوضات إثر هذا الاعتقال تقل تعثراً، وانتهت إلى مشروع صدقي - بيفن في 26 أكتوبر 1946، واضح فيه مقْدار الصِّلة الوثيقة التي تربط كبار رجال المال في مصر بالمستعمِر الأجنبي، إذ وافق صدقي على إنشاء لجنةٍ مشتركة للدِّفاع، مؤلَّفة مِن السُّلطات العسكرية المختصة في الحكومتين (المادة الثالثة).

وأنْ يتعهد الطرفان بألا يُبرِما تحالفاً، أو يشتركا في أي حلفٍ موجَّه ضدَّ أحدهما (المادة الرابعة).

وتعهَّدت بريطانيا أنْ تجلو عن مصر نهائيًّا في أول سبتمبر 1949 مقابل هذا. ولكن هذا التعهُّد منها كان في الواقع مجرَّد حبرٍ على ورقٍ، مجرَّد مخدِّرٍ لقبول فكرة الحلفِ المُشترك التي رفضها الشعبُ تماماً.

وقد اتضحتْ نيَّات المستعمِر بالنسبة لهذا الوعد في مفاوضاته مع الوفد طوال عامي 1950 و 1951. إذ قال فيلد مارشال سليم في مفاوضاته مع النحاس: سيكون مِن العسير جدًّا أنْ أوصي حكومتي بقبولِ الجلاء التامِّ، فإذا انسحبت القوات البريطانية من مصر، فسيكون لذلك أثر وخِيم على الحرب الباردة ضدَّ روسيا... ولست أدري كيف يُستطاع الدفاع عن مصر بغير وجود بعض القوات البريطانية.

وعندما قال الدكتور صلاح الدين للسفير البريطاني: هل كان في نيَّتكم، عندما وافقتم على مشروع صدقي - بيفن، أن تحتفظوا بهذه القاعدة في مصر بعد تمام الجلاءِ في سبتمبر 1949 ؟.

أجاب السفير البريطاني: أحسُّ أنكم بسؤالكم هذا قد أخذتموني على غِرَّة، وعلى غير استعداد، على أنني يُمكِن أن أقول لكم: إنَّه كان مُزمعاً نقل القاعدة كلِّها، ولكن الموقف في ذلك الوقت كان يختلف عن الموقف الآن.

وكرَّر السفير البريطاني هذا المعنى بشكل أوضح في جلسة أخرى حين قال: يجب على الحكومة المصرية أنْ تقبل هذه الحقيقة القاسية، وهي أنَّ الجلاء الكامل الناجِز لا يتَّفق مع الدفاع عن البلاد.

وألقى مستر مورسيون - وزير خارجية إنجلترا - في 30 يوليو 1951 خطاباً جاء فيه: لم يعد وجود القوات البريطانية في مصر اليوم مسألة لا تعني غير بريطانيا ومصر وحدهما، فنحن دولة تحمل بالنيابة عن بقية دول الكومنولث وحلفاء

الغرب، مسئوليات كبيرة في الشرق الأوسط، ومصر هي مفتاح الشرق الأوسط مِن بعض الوجوه، والادعاء باستطاعة مصر الوقوف موقف الحِياد في أي صراع دولي، ما هو إلا سرابٌ خادع!

واضح من هذا، أن التعهد بالجلاء في مشروع صدقي - بيفن، كان هو الآخرُ سراباً خادعاً، يمكن الرجوع فيه باسم تغير الظروف، باسم الحرب الباردة، وباسم الدفاع المشترك الذي وافق عليه صدقي.

والدفاع المشترك كان حتماً سيجرُنا إلى قيادة مشتركة تضمُّ أمريكا وتركيا وفرنسا، إلخ، بحجة دفع الخطر الشيوعي.

وهكذا كان مشروع صدقي - بيفن، سيجرنا حتماً إلى أنْ نتحوَّل إلى قاعدة عسكرية لصالحِ الاستعمار.

وقد أدرك الشعب - بفضلِ الوعي الجديد الذي اكتسبه - خطر الحِلف المُشترك، ولذا كان الاحتجاج على هذا المشروع عنيفاً حادًّا متواصلاً، فقامت عديد من المظاهرات، واشتدت حملة الصُّحف المُعارضة، ممَّا كان له أثره في نفس الوفد الرسمي الذي كوَّنته الحكومة لإجراء المفاوضات، إذ رفض المشروع سبعة من أعضائه، فكان أنْ حلَّ صدقي هذا الوفد الحكومي الذي كوَّنه بنفسِه!

واضطر صدقي أن يُلقي بتصريح عن الاتفاق بالنسبة للسودان، للتمويه على الشعب، ولكن هذا التصريح لم يكن يتفق وأهداف الاستعمار البريطاني، فاستنكره. وكان أن استقال صدقي. ودُفن مشروع صدقي - بيفن باستقالته.

ولم يجد الاستعمار مفرًّا إزاء الضغط الشعبي المتفاقم إلا أن يجلو عن القاهرة والإسكندرية، ويكتفي باحتلال منطقة القنال.

وهكذا انتصر الشعب على مؤامرات الاستعمار وكبار رجال المال، رغم كلِّ كبْتٍ وإرهابٍ.

وذلك بفضل الوعي الجديد والدور الذي قامت به القيادة الشعبية الجديدة.

*طبيعة القيادة الشعبية الجديدة:

لقد كانت القيادة الشعبية هذه تمثِّل جهة وطنية، ليست تابعة لحزب من الأحزاب التقليدية. أمَّا نوع تفكيرها، فيكفي أن نورد هُنا مقتطفات مِن خطاب ألقاه صدقي في مجلس الشيوخ يوم 15 يوليو 1946، مبرِّراً به حملته الإرهابية, لقد كان هذا الخطاب يضمُّ بدوره نماذج من كتابات وتفكير هذه القيادة الجديدة: الحكومة تزيد الأغنياء غنى، والفقراء فقراً. إنَّ جانباً ضخماً من ثروة مصر تحتكرها أقلية مِن الناس لا تبغي لغالبية الشعب غير المرض والفقر والجهل. إنَّ الباشوات الرأسماليين يشتركون في مجالس إدارة عدة شركات، بلغ استغلالها للشعب حدًّا كبيراً، ولا هدف لها غير توفير الأرباح الفاحشة لحفنةٍ من كبار الرأسماليين.

- إنَّ جموع الأمة عاقدة العزْمَ على تغيير الأوضاع الاجتماعية.
- إنَّ القوانين في معظمها لمصلحة الرأسمالية.
- الناس سواسية كأسنان المُشط، وإنَّ في هجرة الرسول إلى المدينة معنى الثورة على الجوع والفقر.ما الحكمة من هذه العبارة؟
- يجب على الطبقة الشعبية أن تقوم اليوم، بالدور الرئيسي في الحركات الوطنية؛ لأنَّ الطبقات الحاكمة الحالية تتعاون مع الاستعمار.
- إنَّ سوء توزيع الثروة القومية يتطلب إعادة توزيع الأرض، ومنحها الفلاحين في شكل ملكيات صغيرة، وإنشاء نظام تعاوني.
- إنَّ الشرق يتحرر، لا بالمُهادَنة والاستجداء، ولكن بالعنف والثورة.. وفي مصر ثورة تأخذ نيرانُها في ازدياد كلَّ يوم، بل كل ساعة.

هل يجدي مع الأحـــــرار	قضبـــــــــــان وسجَّان
إذاكنـــــــــــــا شراراتٍ	فنحن اليـــــــــوم بركان
يـا أخي تنعـم الكلاب لدى القوم	ونشـقى، فيالها مِـن مضحكات
أطلـق الثورة التي تسـكر الصدر	وجفــف دموعــك الماضيـات
هـي حـرب الحيـاة، إمَّـا حيـاة	وإمَّـا ممات يكـن معنى الحياة

هـذه بعـض المقتطفـات التـي أوردهـا صدقـي مـن الصحـف والمجلات التـي تمثـل الوعـي الجديـد والقيـادة الجديـدة.

وواضـح مِـن هـذه المقتطفـات أنهـا لم تكـن موجَّهـة ضـدَّ الاسـتعمار والأحـلاف الاسـتعمارية والحلـف المشـترك فحسـب. وإنمـا موجَّهـة أيضـاً ضـدَّ الإقطـاع والاحتـكار، ومـن أجـل رفـع مسـتوى الشـعب وتخفيـف عـبء الاسـتغلال البشـع الواقـع عليـه.

كـما بلـورت الأهـداف الوطنيـة والديمقراطيـة في شـعارات الجـلاء عـن وادي النيـل، دون قيـد أو شرط؛ رفـض الأحـلاف الاسـتعمارية؛ رفـض حلـف مشـترك مـع الاسـتعمار؛ القضـاء عـلى الإقطـاع والاحتـكار؛ حـق تقريـر المصـير للشـعب السـوداني؛ الكفـاح المسـلَّح سـبيل التحـرر.

*أوجهُ قوَّةٍ وأوجهُ ضعفٍ:

لم تعمِّـر اللجنـة الوطنيـة للعُـمال والطلبـة إلا بضـع شـهور، لقـد وقعـت في أخطـاء تـدل عـلى عـدم نضجِهـا النضـجَ الـكافي، فقـد اسـتمر نشـاطها قـاصراً عـلى المـدن في صفـوف الطلبـة والعُـمال والحِرفيـين، فلـم تمتـد إذ ذاك إلى الفلاحـين، والفلاحـون هـم جيـش الثـورة الوطنيـة.

كـما أنهـا لم تُحسـن تنظيـمَ صفوفهـا، فلـم تسـارع إلى خلـق لجـان ذات جـذور عميقـة بـين صفـوف الشـعب، فاسـتمرت اللجنـة الوطنيـة للعُـمال والطلبـة لجنـةً علويـةً، ليـس لهـا لجـان في كل مصنـع، وشـارع، وحـي، وفي كل كليـة ومدرسـة.

كـما أنَّ أهـم مـا كان يعيـب هـذه النُّـواة لقيـادة شـعبية جديـدة، هـو انقسـامها، فـكان عـدم التوحيـد في قياداتهـا مِـن أهـم مصـادر الضعـف في نشـاطِها.

ولهـذا لم تسـتطع أنْ تدفـع بالحركـة الوطنيـة دفعـات أكـبرَ للأمـام، ولكنـه مِـن الخطـأ أنْ نتصـوَّر أنَّ انتهـاء اللجنـة الوطنيـة للعُـمال والطلبـة، كان معنـاه انتهـاء القيـادة الشـعبية الجديـدة، المتميـزة عـن الأحـزاب التقليديـة، لقـد اسـتمرت باقيـةً وبـرزت لهـا صحـفٌ أخـرى.

لقـد أصبحـت - رغـم أخطائهـا وانقسـامها وضعفهـا - قـوةً سياسـيةً في مـصر، تلعـب دورهـا في تاريـخ الحركـة الوطنيـة... فهـي لا تلبـث أنْ تنتعـش وتزدهـر مِـن جديـد، مسـتفيدة مِـن أخطائهـا.

الفصل الثّامن

معركةُ القنال 1951

-1-

الظروف الدولية

أصيب المعسكر الاستعماري بأكبر نكبة أصابته في تاريخه، منذ انتصار الثورة الاشتراكية في أكتوبر 1917. لقد تحرَّرت الصين من القبضة الاستعمارية في أواخر سنة 1949، وأقامت حكومة ديمقراطية شعبية، تقف بالمرصاد للاستعمار في كل مكان.

وكانت ثورة فيتنام الشمالية على أشدِّها. وكانت الحركة الثورية في إندونيسيا تسير من نجاح إلى نجاح. وكانت الهند قد اتخذت طريقاً مستقلًّا في سياستها، إثرَ جَلاء القوات البريطانية عن أراضيها.

كما ظهر فشل الاستعمار واضحاً في كوريا، فرغم حشد كلِّ قواه العسكرية المزوَّدة بأحدث الأسلحة، ضدَّ بلد صغير، إلا أنه عجز آخر الأمر عن هزيمة كوريا الشمالية وإخضاعها له.

وكانـت الشـعوب المكبّلـة بالقيـود الاسـتعمارية تتحـرك في كلّ مـكان: مراكـش، الجزائـر، جنـوب أفريقيـا، كينيـا، أمريـكا الجنوبيـة.

لقـد بلغـت الحركـة الثوريـة في المُسـتعمَرات وأشـباه المُسـتعمرات مـن العنـف، مـا لم تبلغْـه قـط. وحققـت مـن النجـاح مـا لم تظفـر بمثيلـه مِـن قبـل. وكانـت الطبقـة العاملـة وحزبهـا في معظـم هـذه الثـورات يلعـب دوراً قياديًّـا عـلى رأس الجماهـير الشـعبية: الفلاحـون.

وكان لهذا انعكاسه ولا شك في مصر. لقد شدَّ من عزائم الشعب.

-2-

الظروف الدخلية

ورغـم كافـة الضربـات التـي أصابـت القيـادة الشـعبية في ظـلِّ وزارة السـعديين والدسـتوريين، سـواء أيـام النُّقـراشي أو عبـد الهـادي، إلا أنَّ السـخط عـلى الحُكـم الإرهـابي اشـتدَّ بـين صفـوف الشـعب.

هــذا في الوقــت الــذي ســاءت فيــه أحــوال التمويــن، واشــتد الغــلاء، ورددت الجرائـد الاسـتعمارية نفسُـها، أنَّ مـصر تغـلي وأنهـا توشـك أنْ تنفجـر، وبـدأت الهيئـات السـياحية تنصـح السـائحين، أنْ يتجنَّبـوا زيـارة مـصر خوفـاً مِـن الانفجـار.

وإزاء هـذا، رأى الاسـتعمار أنْ يلجـأ إلى أسـلوبه التقليـدي: السـماح ببعـض حريـات يتنفَّـس خلالهـا الشـعب، حتـى تهـدأ النفـوس قليـلاً. ومـن يـدري ؟ فقـد يـرضى الوفـد بعقـد مُعاهـدة عـلى غـرار سـنة 1936، بعـد أن أُقصِـي سـتَّ سـنوات عـن الحُكـم.

وجاء الوفد نتيجة انتخابات، فاز فيها بأغلبية 228 مقعداً.

وكان قـد تبلـور في قيـادة الوفـد جنـاح يمينـي، يمثِّـل بعـض كبـار مُـلاك الأرض، وبعـض كبـار رجـال المـال.

وقـد أخـذ هـذا الجنـاح يفـرض عـلى الوفـد سياسـة مُعيَّنـة: أمَّـا بالنسـبة للـسراي فسياسـة الاستسـلام والـترضِّي، سياسـة التغطيـة عـلى مخـازي الملـك وحاشـيته، سياسـة حمايـة الملـك مـن غضْبَـة الشـعب. فقـد أوحـى هـذا الجنـاح لبعـضِ عنـاصِره أنْ يتقـدَّم

بتشريع يحدُّ مِن سلطة الصحافة، ويحول بينها وبين نشر الأخبار التي تتصل بالقصر، إلا إذا أجيزت من السلطة التنفيذية!

وقد كادت هذه التشريعات تمرّ، لولا أصواتٌ قويَّة ارتفعت محتجَّة من صفوف الشعب، ومن عناصر كثيرة من الهيئة الوفدية نفسها والشباب الوفدي.

وأمَّا بالنسبة للحريات، فتردد في إطلاقها. فرغم مجيء الوفد إلى الحُكم في يناير سنة 1950، فلم يلغ الأحكامَ العُرفية إلا بعد خمسة شهور. وجاء قرار إلغائه أخيراً، يحمي كافة التصرفات الإرهابية لحكومات السعديين والدستوريين، فلا يُجيز إعادةَ النَّظر فيها أو تعويض مَن أصابهم الضرُّ بسببها.

كما حاول الجناح اليميني في الوفد إصدار قانون أسماه قانون المشبوهين السياسيين، سلاحاً في يد أية حكومة ضدَّ العناصر الشعبية والقيادة الشعبية.

أمَّا بالنسبة للاستعمار. فقد قرَّر الوفد العودة إلى سياسة المفاوضات التي أجمع الشعب على نَبْذها.

وقضى الوفد في محاولات المفاوضات هذه عاماً ونصف. ولا شكَّ أنَّ حكم الوفد في هذين العامين قد اتَّسم أيضاً بقيام بعض عناصره، وخاصة مِن اللائذين بالجناح اليميني في الوفد، ببعض صفات مريبة وتصرفات غير سليمة مِن ناحية النزاهة.

إلا أنَّ القوى الشعبية كانت في تعاظُم، وخاصة في ظلِّ الحُريات النسبية التي فازت بها في ظلِّ الحكومة الوفدية.

لقد تكوَّنت حركة سلام قوية، استطاعت أن تجذب إلى صفوفها كثيراً مِن الكُتَّاب والمثقَّفين مِن مختلف الميول والاتجاهات، كما تكوَّنت لجنة تحضيرية لاتحاد النقابات بالقُطْر المصري، كما بدأت تحركات للفلاحين في كفر نجم وبهوت.

كما عادت اللجنة التنفيذية للطلبة إلى الوجود، وبدأت مجهودات من أجل إيجاد اتحاد عامٍّ نسائي.

كان مستحيلاً في ظلِّ هذا التقدُّم المتفاقِم للقوى الشعبية، أنْ تنتهي مفاوضات الوفد مع إنجلترا إلى ما انتهت إليه عام 1936.

لقد كان الشعب مفتّح العينين، وقد أخذت تقوى قيادته الشعبية من عمال وطلبة ومثقفين، التي كانت تنبه الشعب وتجمعه ضدَّ أي تهادُن.

وقد عبّر عن ذلك النحاس نفسُه في مفاوضاته مع الإنجليز: أريد أن أصل إلى حلٍّ يمكن به إقناع الحكومة والشعب والمعارضة، ولا يمكن إنكار أن المعارضة مفتحة الأعين وتتربَّص بنا.

وقال صلاح الدين وزير الخارجية، خلال المفاوضات: يجب ألا يغيب عنَّا أن أكبر سلاح تستغله الدعاية الشيوعية في مصر وجميع البلاد التي يحتلُّها الأجنبي، هو هذا الاحتلال نفسُه، والآثار الاقتصادية والاجتماعية المترتبة عليه وتجد هذه الدعاية أرضاً خصبة في نفوس الوطنيين الحريصين على استقلال بلادهم حتى ليخشى أن يختلط الأمر بالتَّدرج بين الوطنية والدعاية الشيوعية.

ثمَّ قال صلاح الدين مرة أخرى خلال مفاوضاته مع الإنجليز: أرجو أن تعلم أن الرأي العامَّ في مصر، كان في السنوات الأخيرة، قد اقتنع بأنَّه لا جدوى من المفاوضات، وبأنه على مصر أن تعْدِل نهائيًّا عنها كوسيلة لإدراك حقوقِها، وأنْ تبحث عن وسيلة أخرى تستطيع بها تحقيق مطالبها... ولكن الوفد بعد انتصاره في الانتخابات العامة الأخيرة، استطاع مع ذلك أن يواجِّه الرأي العام بأنه سيحاول المفاوضة من جديد، وقبل الرأي العام ذلك منه على مضضٍ ولسبب واحد، هو يقين المواطن في مصر والسودان مِن أن الوفد إذا دخل المفاوضة، فإنما يدخلها على أساس تحقيق مطالب البلاد كاملة غير منقوصة، فإذا فشلنا في هذه المرة، فأخشى أن يفقد المصريون نهائيًّا كلَّ رجاء في إمكان حلِّ مشكلاتنا عن طريق المفاوضة، وبذلك تزداد أزمة الثقة استحكاماً، ونصل إلى المأزق الذي لا مخرج منه، ولا يخفى عليكم ما في ذلك من ضرر بالغ بالطرفين. وكيف تستطيع الدعاية الشيوعية أن تستغلَّه في الداخل والخارج بالإضرار بنا جميعاً!

كان مستحيلاً إذاً في ظلِّ الضغط الشعبي والوعي القومي المتزايد، وفي ظلِّ الظروف العالمية التي بدأ فيها ميزان القوى يرجع في جانب كفة الشعوب، أن يقبل الوفد العرض الإنجليزي بما فيه بقاء الاحتلال، والدفاع المشترك وقت السِّلم والحرب.

وكان حتماً إزاء هذا الضغط الشعبي المُتفاقِم، وإزاءَ إضرار إنجلترا على طلباتها بالنسبة للدفاع المشترك، أن ينتهي الأمر بالحكومة الوفدية إلى إلغاء معاهدة سنة 1936، وأحكام اتفاقيتي 19 يناير، 10 يوليو 1899 الخاصَّتين بالسودان.

بل وكان حتماً أن ترفض مقترحات الدول الأربعة - إنجلترا وأمريكا وفرنسا وتركيا - التي قدمت إلى مصر في 13 أكتوبر سنة 1951، إثر إلغاء المُعاهدة، عارضة هيئة للدفاع عن الشرق الأوسط، بإنشاء قيادة متحالفة تشترك فيها دول الشرق الأوسط جنباً إلى جنبٍ مع الدول الأربعة المذكورة، وأن تضمَّ مصر نهائيًّا للمعسكر الغربي، وأن تصبح قاعدة القنال قاعدةً للحُلفاء.

لقد رفضت الحكومة الوفدية هذه المقترحات فوراً ودون تردد.

وكان هذا إذاناً ببدء المعركة المسلَّحة في القنال.

-3-

تطوُّر معركة القنال

بدأت المعركة مبكِّرة، إثر إلغاء المعاهدة، بدأت بشكل يكاد يكون تلقائيًّا ولكن سرعان ما قامت معسكرات عديدة للفِدائيين وتبلور لها خطة واضحة.

وقد كانت خطة الفدائيين في جملتها موجهة إلى ضرب قوات الاحتلال في أربع نواحٍ: تدمير ونسف ما يمكن أن يصل إليه الفِدائيون من مخازن ومستودعات للعدوِّ، ثمَّ تمزيق خطوط المواصلات التي يستفيد منها العدوُّ، ثمَّ الحيلولة دون وصول التَّموين، ثمَّ جعل الحياة الاجتماعية مستحيلةً على جنود الاحتلال لإرهاقِهم.

وكان تكتيك الفدائيين قائماً على الضربات السريعة المُفاجئة في الظَّلام، ثمَّ الانسحاب في سرعة قبل أن يتنبَّه العدوُّ ويستعدَّ.

وقد نجح الفدائيون في تحقيق كثير من هذه الأهداف، رغم قلة خبرتِهم، ونقص تدريبهم ورغم كثير من الفوضى.

وكانت معارك الفدائيين تشتدُّ عنفاً بازدياد خبرتهم، بل بلغ الأمر ببعض الكَتائب أنْ دخلت في مُصادمات مسلَّحة مباشرة ومكشوفة مع قوات الاحتلال.

وكان مِن أبرز هذه المعارك المعركة التي استُشْهد فيها مصطفى أحمد محمود الشهير بالمردنلي، والذي كان عاملاً في المعسكرات البريطانية، وخبيراً في بثِّ الألغام وتفجيرها.

لقد علَّق العدوُّ على هذه المعركة بقوله: إنها أول معركة تصدر فيها مِن المصريين مقاومة مكشوفة للجنود البريطانيين، كما أنها أول معركة يصمُد فيها المصريون هذا الصمودَ الطويلَ المصمَّم.

وقد كان انسحابُ ثمانين ألف من العُمال المصريين من القنال الذين لم يتردَّدوا في التضحية بأجورهم العالية نسبيًّا، ضربة كُبرى لقوات الاحتلال، وإرباكاً شديداً لصفوفها.

لقد ترك هذا الانسحاب المعسكرات البريطانية في حالة سيئة حقًّا، إذ حرمَها من أيدي عاملة فنية مدرَّبة، كان من العسير استبدالها بنفس الأجر وبنفس السهولة.

لقد رفع هذا الانسحاب المعركة إلى مستوى عالٍ سياسيًّا.

لقد قام العمال بدور بطولي حقًّا في المعركة المسلَّحة.

كما لعب الكونستبلات الوطنيون في المعركة دوراً هامًّا، فكانوا ينقلون أخبار المعسكرات البريطانية وتحركاتها إلى الفدائيين، وقد أسر منهم الكثير، كما سقط منهم فريد يُسري شهيداً.

وقام جنود البلوكات - ومعظمهم من أبناء الريف - بدور رائع في المعركة، وسقط منهم عشرات مِن الضحايا، وأبدوا مقاومة عنيفة في الإسماعيلية، في معركة استمرت يومين بأكملِهما، قام الأهالي فيها بدور مساعد كبير حين كانوا يموِّلون الجنود بالطلقات، وقد اضطر العدوُّ إلى الإشادة ببطولتهم، رغم ضعف السلاح وقلةِ العَتاد والتفوق العددي الضخم لقوات الاحتلال.

كما أنَّ بعض ضباط الجيش المصري أعانوا، بشكل سري، في تدريب بعض الفدائيين، وإمدادهم بالعتاد الذي استولوا عليه من مَهمَّات الجيش المصري.

هذه هي الجهةُ المصرية.

أمَّا من جهة العدوِّ، فقد كانت هناك عوامل ضعف كثيرة، فقد تمرَّد جنود الموريشان في الجيش الإنجليزي أكثر من مرَّة، وكان تمرُّدهم وتمرُّد العُمال القبرصيين، عامل إضعاف وإرباك لقوات الاحتلال.

لقد رأى الصحفيون المصريون بأنفسهم سيارات نقل ممتلئة بجنود الموريشان، وقد شُدُّوا معاً ورُبِطت أيديهم من خِلاف، كما ثار جنود قبرص على الإنجليز في بورسعيد.

فكان هذا تضامناً يثير الإعجاب، بين شعوب البلاد المُضطهدة، فالمصريون والموريشان والقبرصيون صفًّا واحداً ضدَّ قوات الاحتلال.

لقد كانت الجبهة الداخلية في قوات الاحتلال ممزَّقة وضعيفة، بل أكثر من هذا، نجد التذمُّر يسود صفوف الجنود الإنجليز أنفسهم، حتى لتقول التيمس في 26 ديسمبر 1951: إن أعصاب الجنود الإنجليز قد أصبحت شديدة التَّوتر، وأنهم (أي الجنود) يتساءلون عن جدوى الاحتفاظ بقاعدة عسكرية فقدت كلَّ قيمة عسكرية لها، نتيجة للشعور الوطني المُعادي.

ولم تكن التيمس صادقةً تماماً في تصوير موقف الجنود على حقيقته. فقد كان بين الجنود الإنجليز شيوعيون واشتراكيون وأنصار سلام، وكانت شعاراتُهم التي يبثُّونها بين قوات الاحتلال: الجلاء عن مصر والعودة إلى بلادنا، فنحن لا نريد أنْ نكون ألعوبة في يد الرأسماليين الإنجليز، يستخدموننا لكَبْت شعب في سبيل أرباحهم.

كما أصدر الحزب الشيوعي البريطاني قراراً يُطالب فيه بالجلاء عن القنال.

كانت هذه كلها عوامل نجاح للمعركة المسلَّحة، كانت تضمن لها الفوز، لو قُدِّر لها الاستمرار شهوراً طويلة.

وكلَّما ازدادت المعركة شدَّةً، التهب الشعور الوطني، واستطاع أن يجتذب أشدَّ الأجزاء تخلُّفاً في الشعب.

لقد قامت الشرقية بأسرها تودِّع شهداءها، مِن أهالي الزقازيق:

مصطفى أحمد محمود الشهير بالمردنلي، شهيد معركة القُرِين، محمد رشاد جريش شهيد معركة التَّل، سلامة إبراهيم، سيد أبو شعيشع، محمد عبد العال هدهد، كما قامت الإسكندرية بأسرها، وعلى رأسها جامعة الإسكندرية في مظاهرة

صامتـة، تُحَـيِّ شـهيدها عبـاس الأعـسر الطالـب بكليـة التجـارة، وقامـت القاهـرة كلُّهـا تُحَـيِّ شـهداءها: عمـر شـاهين، وأحمـد المنـسي، والطيـار أحمـد عصمـت، وقامـت بورسـعيد تُحَـيِّ شـهيدها الطفـل نبيـل منصـور.

واسـتطاعت المعركـة أن تجـذب كثـيراً مـن الجمعيـات والهيئـات النسـائية، فقـام بعـض أعضائهـا بِمَهَمَّـة التمريـض.

لقد قدَّر البعض عدد الشُّهداء في معركة القنال بستِّمائة .

-4-

عواملُ ضعفٍ

وكـما كان في معركـة القنـال عوامـلُ قـوَّة، فقـد كان هنـاك أيضـاً عنـاصر ضعـف: فقـد كان جـوُّ منطقـة القنـال ملغَّـماً حقًّـا بجواسـيس الـسراي، وجواسـيس الأمريـكان والإنجليـز، وجواسـيس شركـة القنـال، والقلـم الخصـوصي والبوليـس الـسري، ممـن يعملـون لخدمـة الإنجليـز والأمريـكان، أو يخدمـون التيـارات الحزبيـة المُعاديـة للمعركـة.

وقـد كان لهـؤلاء جميعـاً عنـاصر تعمـل لحسـابِهم داخـل معسـكرات الفدائيـين، واطـلاع العـدو عـلى تحركاتهـم، مـما كان يعـرِّض الفدائيـين أحيانـاً لضربـات قاسـية.

ثـمَّ لم تكـن هنـاك قيـادة موحَّـدة للكتائـب المختلفـة. فكانـت تحـركات كل مـن هـذه الكتائـب تصـدر بنـاءً عـلى أوامـر قيـادة كلِّ كتيبـة في انعـزال عـن الأخـرى، مـما كان يضعـف المعركـة، بـل يعـرِّض الفدائيـين لأخطـار لا مـبرِّر لهـا. فكثـيراً مـا كان بعـض الفدائيـين يتسـلل في الليـل إلى المعسـكرات البريطانيـة، لينهـال عليهـم رصـاص العـدوِّ الـذي اسـتيقظ نتيجـة نشـاط بعـض الفدائيـين التابعـين لكتيبـةٍ أخـرى.

ثـمَّ كانـت أكـثر أعـمال الفدائيـين منعزلـة عـن الشـعب، منعزلـة عـن الفلاحـين في المنطقـة، تعـاني الأمَريـن بالنسـبة للغـذاء والسـلاح، مـما كان يعـرِّض الفدائيـين أنفسـهم لكثـير مـن الأخطـار، فهـم جاهلـون بطبيعـة المنطقـة ومسـالِكها... وهـم أغـراب يسـهل لمخابـراتِ العـدوِّ كشـفُهم.

لقــد كان اقتصــار المعركــة عــلى الفدائيــين تضييقــاً شــديداً للمعركــة، يعرِّضهــا للتصفيــة.

وقد تنبَّهت لهذا النقص الخطير القيادات الشعبية الواعية، فعقدت شبه مؤتمر. واستقر رأي المُجْتمعين على تدارك عناصر الضعف:

1. بتحويل المعركةِ من معركة قاصرة على الفدائيين إلى معركة فلّاحين أساساً.
2. بالاعتماد في الأسلحة على الفلاحين المسلَّحين بطبيعتهم.
3. بإنشاء تنظيمات سياسية في القُرى المعرَّضة لضربات الإنجليز، بحيث تستطيع أن تستمر في قيادة المقاومة، حتى ولو فكَّر الإنجليز في احتلال الشرقية كلِّها.
4. بالسعي لخلق قيادة موحَّدة للمنطقة كلِّها.
5. بإصدار مجلة سياسية عسكرية تربط مختلف أوجه النشاط.

وقد كان اتخاذ هذه القرارات والبدء في تنفيذها بمثابة نقطة تحول في المعركة وجاءت معركة القُرين دليلاً على ذلك فلم تكن معركة القُرين معركة فدائيين فحسب وإنما كانت أساساً معركةَ فلّاحين. لقد وصف مندوب أخبار اليوم نفسه معركة القُرين بأنَّ الفلاحين في القُرين هم كتائب التحرير....لقد تجمَّع اكثر من ألف منهم بسلاحهم...أقاموا المتاريس وحرسوا الكباري. ولكن الحقيقة كانت أكبر من هذا بكثير فقد خرجت القرية كلُّها عن بَكْرَةِ أبيها ضدَّ الدَّبابات البريطانية، والقُرين تُحيطها أشجار متكاثفة من النخيل فنصب الفلاحون مدافعهم الرشاشة فوق النخيل وانهالت رصاصاتهم مِن كل صوب على الإنجليز ودباباتهم.

واضطرت الدبابات البريطانية أنْ تعود، لقد عجزتْ عن احتلال قرية القُرين.

•تطورات سياسية:

وكقد تطوُّرتِ الجبهة في القنال تطوراً هامًّا فقد تطورت الجبهة الداخلية في القاهرة. فقد أُنشئت في معظم الأحياء لجانٌ وطنية. وكانت تُعقد في الجامعة مؤتمرات وطنية واسعة.

وأخذت اللجنةُ التحضيرية لاتحاد النقابات يتسع نشاطُها وتتصل بعدد كبير من النقابات وأرسلت لها مندوبين إلى الاتحاد العالمي للنَّقابات.

وهكـذا كلَّـما اشـتدت معركـة القنـال عنفـاً واتسـاعاً زاد الشـعب في أنحـاء القُطْـر نشـاطاً سياسـيًّا وتنظيـماً لصفوفـه وتمتـع بحريـات أكـبر وأخـذت التأييـدات مِـن الـدول المُحبـة للسـلام والحريـة تنهـال عـلى مـصر.

وإزاء هـذا التعاظـم للقـوى الشـعبية والتأييـد القـوي من معسـكر السـلام والحرية لم يملـك الوفـد في 10 ديسـمبر سـنة 1951 إثـر هـدم الإنجليـز لكفـر عبـده إلا أنْ يتخـذ بعـض القـرارات الوطنيـة: الاسـتيلاء عـلى نـادي الجزيـرة وإخـراج أعضائـه الإنجليـز، بحيـث قطـع العلاقـات التجاريـة والاقتصاديـة والدبلوماسـية مـع إنجلـترا.

اسـتدعاء عبدالفتـاح عمـرو سـفير مـصر في بريطانيـا مـن لنـدن، إباحـة حمـل السـلاح لـكل فـرد مـن أبنـاء وادي النيـل، تعويـض أهـالي كفـر عبـده، معاقبـة كلِّ مَـن يتعـاون أو يتعامـل مـع أيـة قـوة عسـكريَّة أجنبيـة في البـلاد.

كـما بـدأت الخطـوط الوطنيـة لسياسـة مـصر الخارجيـة تُـبرز معالِمَهـا في شـكل دعايـة وإثـارة قويـة فأصبـح التفكـير جديًّـا في عقـد اتفاقـات تجاريـة مـع دول الكتلـة الشرقيـة والاسـتغناء عـن الأسـواق الإنجليزيـة والـدول المُتحالفـة معهـا. وبـدأ التفكـير في حلـف عـربي خالـص لبـلاد الـشرق الأوسـط.

كـما اتضـح لمـصر تمامـاً مَـن هـم أعداؤهـا ومَـن هـم الأصدقـاء. فبينـما كان الأمريـكان ينتهـزون فرصـة المعركـة المسـلَّحة لإحـلال النفـوذ والسـيطرة الأمريكيـة محـلَّ البريطانيـة، ويديـرون في الوقـت عينـه معركـة القنـال إذا بالاتحـاد السـوفيتي كـما يقـول أنيـس عـاذر وزيـر مـصر المفـوَّض في موسـكو ينـشر أنبـاء الكفـاح المـصري كاملـة ويؤيـده تأييـداً مطلقـاً كـما توالـت احتجاجات موسـكو عـلى المُقترحـات الرُّباعية المقدَّمـة مـن أمريـكا وإنجلـترا وفرنسـا وتركيـا بالنسـبة لإنشـاء قيـادة حلـف مشـترك.

كـما جـاء مـن شـباب الصـين رسـالة إلى الشـباب المـصري: إنَّ ألـف يـد تنضـم إلى أيديكـم في كفاحِكـم البطـولي.

فالمعركـة المسـلَّحة في القنـال رغـم كل مـا فيهـا مـن ضعـف كانـت معركـة ناجحـة. لقـد أدركـت إنجلـترا أنـه يسـتحيل عليهـا البقـاء في مـصر، وأصبـح الجـلاء عـن مـصر أمـراً محتَّـماً إنْ عاجـلاً او آجـلاً..

فالسـفارة البريطانيـة في القاهـرة أصبحـت - كـما جـاء في أخبـار اليـوم بتاريـخ 13ينايـر سـنة 1952 - تـرى ضرورة إيجـاد حـلٍّ يقـوم عـلى أسـاس جـلاء القـوات

البريطانيـة مـن مـصر، وأن العسـكريين البريطانيـين أنفسـهم أصبحـوا يعتقـدون بـضرورة هـذا الحـلّ، لاستحالة تدعيـم القاعـدة العسـكرية في الظـروف القائمـة وفي وسـط المقاومـة الشـعبية المتزايـدة.

ولـو دامـت المعركـة بضـع شـهور أخـرى لـكان لذلـك شـأنٌ في تطـور الحُكـم الشـعبي في مـصر.

ولكن لم تدُم...لقد عملت كتلة الخونة في مصر على ألا تدوم.

-5-

حريقُ القاهرة

كان كل شيئ يشير إلى فزع الاستعمار، وفزع الأذناب والذيول.

كانـت الخطـوات للاعـتراف بالصـين الشـعبية موضـعَ التفكـير. وكان الاتجـاه لقطـع العلاقـات الاقتصاديـة والسياسـية أمـراً واضحـاً إثـر الاصطدامـات الداميـة بـين جنـود البلـوكات وقـوات الاحتـلال في 17، 19 نوفمـبر سـنة 1951، كـما أخـذت المظاهـرات الشـعبية تتسـع ويـتردَّد فيهـا هتافـات بسـقوط الملك. بـل انهالـت تقارير الدبلوماسـيين البريطانيـين محـذِّرة مِـن: أنَّ الـروس قـد تقدَّمـوا باقتراحـات قوامهـا، أن يـزوِّدوا مـصر بالخـبراء مـن العسـكريين الألمـان، إذا أرادت مـصر أن تدافـع بنفسِـها عـن منطقـة القنـال، وأن تظـلَّ محايـدة بـين معسـكري الـشرق والغـرب.

وأحـسَّ الإنجليـز بالتطـور الجديـد للمعركـة المسـلحة، فخرجـت النـشرة الإنجليزية الخامسـة والثلاثـون التـي أصدرتهـا قـوات الاحتـلال في 29 نوفمـبر 1951 تقـول بالحـرف الواحـد: لقـد كان مـن أوجـب واجبـات الصحافـة المصريـة، أن تهـوي بقبضـة مـن حديـد عـلى رؤوس متزعمـي هـذه الحركـة الإجراميـة (تقصـد حركـة الكتائـب والكفـاح المسـلح).

وتحـدى ضبـاط الجيـش قـرار الـسراي ورجـال الـسراي بإلغـاء اجتـماع الجمعيـة العموميـة لنـادي الضُّبـاط في 18 ديسـمبر، واجتمعـوا ليقـرِّروا عقـد انتخابـات في 3 ينايـر سـنة 1952. وعقـد الضبـاط جمعيتهـم العموميـة، فتحـدوا الـسراي مـرة أخـرى برفضهـم تمثيـل سـلاح الحـدود المُسـيطر عليـه رجـال الـسراي، واعتبـاره سـلاحاً مُنفصِلاً،

ثـمَّ انتخـاب مجلـس إدارة النـادي مـن أعضـاء ليـس فيهـم العنـاصر التـي ترغبهـا الـسراي.

كان كل شيئ ينـذر، إذاً، بإفلات الشعب والجيـش مـن قبضـة الملـك والإقطاعيـين وكبـار رجـال المـال، واحتـمال تكويـن جبهـة شـعبية واسـعة تضـمُّ الشـعب والجيـش معـاً، لا ضـدَّ الاحتـلال فحسـب، ولكـن أيضـاً ضـدَّ الـسراي والخونـة.

وكان لابـدَّ مـن عمـل سريـع حاسـم لـضرب الحركـة الشـعبية، قبـل أن يفلِـت زمامُهـا تمامـاً. فأخـذ الإنجليـز يضربـون في القنـال ضربـات وحشـيَّة: إبـادة كفـر عبـده مـن الوجـود، التفكـير في إبـادة فنـارة الحجَـر، ثـمَّ احتـلال السـويس وبورسـعيد.

ولكـن هـذه الإجـراءات لم تكـن تزيـد الشـعب إلا التهابـاً، وكانـت تدفـع بجمـوع جديـدة إلى المعركـة في استبسـال يثـير الإعجـاب. فـكان لابـدَّ مـن إجـراءات أخـرى، لابـدَّ مِـن مؤامـرة. وبـدأت خيـوط المؤامـرة تُحْبَـك في عابديـن ولنـدن وشـيكاغو، إذ فوجِـئ الشـعب بتعيـين حافـظ عفيفـي، الإنجليـزي أكثر مِـن الإنجليـز أنفسـهم، رئيسـاً للدِّيوان الملـكي يـوم 25 ديسـمبر، ونـدب عبـد الفتـاح عمـرو سـفير مـصر في إنجلـترا، وقـد قـضى أيضـاً جـزءً كبـيراً مـن حياتـه في إنجلـترا، مستشـاراً للشـؤون الخارجيـة بالديـوان الملـكي.

وهلَّلـت جريـدة نيويـورك تايمـز (الأمريكيـة) لتعيـين حافـظ عفيفـي، ووصفتـه بأنـه الشـعاع الأول مـن النـور الـذي يقـضي عـلى سـوء جـوٍّ مـصر منـذ أن قُطعـت العلاقـات مـع بريطانيـا.

وتنبـأت الدوائـر الرسـمية للاسـتعمار، وهـي ترحـب بحافـظ عفيفـي بحـدوث تطـورات داخليـة في مـصر؛ لأنَّ ذلـك مـن شـأنه أن يقسِّـم الجبهـة المصريـة ويحـوِّل اهتـمام الـرأي العـام مـن نضالـه ضـدَّ الإنجليـز إلى تطـورات الجبهـة الداخليـة.

بـل أخطـر مِـن هـذا جـاء بالحـرف الواحـد: ولكـن تخـشى بعـض الدوائـر هُنـا (أي في بريطانيـا) أن تجـري الحـوادث في الطريـق الخاطـئ. فينتهـي الحـال في مـصر إلى الفـوضى ووقـوع حـوادث لا تُحْمـد عُقباهـا.

لقد قيل هذا قبل حريق القاهرة في 26 يناير بقُرابة شهر.

وفي الوقـت الـذي كان يسـقط فيـه عـشرات مِـن الشـهداء في القنـال، وفي الوقـت الـذي زاد فيـه تعسُّـف الإنجليـز ووحشـيتُهم، وفي الوقـت الـذي كانـت فيـه الصِّـلات الدبلوماسـية بإنجلـترا في حكـم المقطوعـة، نجـد عمـرو، مستشـار الملـك في الشـؤون

الخارجيـة يجتمـع بالسـفير البريطـاني في دار السـفارة سـاعة كاملـة، ثـمَّ نـرى السـفير البريطـاني يجتمـع بحافـظ عفيفـي رئيـس الديـوان الملـكي سـاعة ونصـف، ثـم يعـود عمـرو لزيـارة السـفير البريطـاني، ثـم يـزور السـفير الأمريـكي حافـظ عفيفـي... ثـمَّ تحـدث اجتماعـات مُريبـة بـين جـلّاد صاحـب مجلـةِ الزمـان، وعـلي ماهـر.

ثـمَّ يسـود القاهـرة جـوٌّ مُريـب مُظلـم وحـركاتٌ مفتعلـة، ويسـود جـوٌّ أشـدَّ غرابة. لقـد احتشـد البوليـس السـياسي احتشـاداً لا عهـد لـه بالقنـال، وأصبـح كافـة الفدائيـون موضوعـين تحـت رقابـة مشـددة، وأصبـح واضحـاً أنَّ هنـاك نيَّـة مبيَّتـة لاعتقـال مَـن يمكـن اعتقالـه، بـل بـدأت حملـة اعتقـالات في الإسـكندرية، قبـل حريـق القاهـرة بأربـع وعشريـن سـاعةً!

بـل قيـل: إنَّ بعـض ضبـاط البوليـس السـياسي قـد سـحبوا أموالهـم مـن البنـوك. مَـن يـدري؟ لعـل المؤامـرة لا تفلـح!

وقـد اخُتـير يـوم 26 ينايـر بالـذات! إنـه اليـوم الـذي تعهَّـدت فيـه الـوزارة الوفدية بقطـع العلاقـات نهائيًّـا بإنجلـترا، وعقـد معاهـدة صداقـة مـع الاتحـاد السـوفيتي، لقـد نـشرت أخبـار اليـوم في صبيحـة 26 ينايـر، طبعـاً قبـل حريـق القاهـرة: إنـه مـن بـين المقترحـات المعروضـة للبحـث ردًّا عـلى الاعتـداء البريطـاني في الإسـماعيلية تسـليم السـفير البريطـاني جـواز سـفره... وإغـلاق القنصليـات البريطانيـة في البـلاد... وقطـع العلاقـات السياسـية والاقتصاديـة مـع إنجلـترا.

وقـال إيـوار الإنجليـزي مُراسِـل أخبـار اليـوم في 26 ينايـر: إن لنـدن تتوقـع اشـتراك الجيـش المـصري في معركـة القنـال.

وقـد اخُتـير يـوم 26 ينايـر بالـذات؛ لأنـه اليـوم السـابق عـلى عقـد أول مؤتمـر لاتحـاد عـام نقابـات العـمال المصريـين بتصريـح مـن الحكومـة، وهـو اليـوم السـابق لانتهـاء مـدة الإنـذار الـذي تقـدَّم بـه بعـض ضبـاط الجيـش مُهدِّديـن بالاسـتقالة الجماعيـة، وإنـه اليـوم الـذي التهـب فيـه الشـعور الوطنـي نتيجـة سـقوط خمسـة وسـتين شـهيداً في المعركـة التـي دارت بـين جنـود بلـوكات النظـام وقـوات الاحتـلال، فهـو يصلـح لتأليـب بعـض الأجـزاء المتخلِّفـة واسـتخدامها في المؤامـرة.

بدأ يوم 26 يناير بعصيان خطير - كما جاء في التقرير الرسمي للنائب العام - إذ اجتمع كافة عُمال المطار وجنوده وموظفيه المدنيين، حول أربع طائرات بريطانية، وحالوا دون نزول الركاب، كما منعوا تموين الطائرات بالوقود.

ثمَّ تمرَّد جنود بلوكات النظام في الأقاليم (أي أبناء الفلَّاحين) وأبوا أنْ يقوموا بما كُلِّفوا به مِن الذهاب إلى الجهاتِ المخصَّصة لهم لحفظ الأمن بالعاصمة، وخرجوا يحملون أسلحتهم في مظاهرة ساخطين على ما أصاب زملاءهم في الإسماعيلية، وأخذوا طريقَهم وهم يتنادون ويتصايحون بطلب السلاح، وساروا مُخترِقين العباسية فالأزهر فميدان الإسماعيلية، فالجيزة، حيث لم يجدوا زملاءً لهم كانوا يتوقَّعون وجودهم، فاتجهوا إلى جامعة فؤاد الأول في التاسعة والنصف واختلطوا بالطلبة... وسار الجميع في مظاهرة صاخبة إلى رياسة مجلس الوزراء حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف تقريباً.

ورغم أنَّ هذا التمرُّد كان ولا شكَّ فيه الدافعُ الوطني، إلا أنَّ يد المؤامرة ولا شك استغلته لتوجيه ضربتِها.

ثمَّ قامت في الحادية عشرة والنصف - كما يقول التقرير الرسمي - مظاهرات عدة، مظاهرات عُمال العنابر والسكك الحديدية، مظاهرة من كلية الأزهر، وأخرى من كليات إبراهيم... وقد تجمَّعت هذه المظاهرات بدار رياسة مجلس الوزراء. حيث اختلطت بالمتظاهرين مِن جامعة فؤاد الأول وبلوك النظام.

لقد كانت مظاهرة فريدة جمعت ما بين العُمال والفلَّاحين والطلبة والجنود أبناء الفلَّاحين في صعيد واحد.

وإزاء هذا لم تر حكومة الوفد إلا أن تَعِدَ المتظاهرين بقطع العلاقات نهائيًّا مع إنجلترا، وعقد معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتي.

وبينما كان المتظاهرون متجمِّعين في دار رياسة الوزراء يخطبون ويستمعون إلى الخُطب، اختار المُتآمرون هذه اللحظة بالذات لتنفيذ مؤامرتهم. فاشتعلت أولى الحرائق في الساعة الثانية عشرة والنصف في كازينو الأوبرا، وتلتها سينما ريفولي.

وكان عجيباً حقًّا أنْ يختار الملك هذا اليوم بالذات ليدعوا كبار ضباط الجيش والبوليس. وكان عجيباً أن يحدِّد للمقابلة الملكية الساعة الواحدة والربع، أي بعد

اشـتعال الحرائـق المدبَّـرة بثلاثـةِ أربـاع السـاعة! وأن يحتشـد الضبـاط إزاء هـذه الدعوة في الـسراي منـذ الحاديـة عـشرة صباحـاً.

ورأى المتظاهـرون المجتمعـون في دار الرياسـة دخـان الحريـق، وانطلقـوا يـرون مـا الخـبر... فـإذا بهـم يشـاهدون الحرائـق تندلـع بشـكل منظَّـم وبنـاءً عـلى تدبـير سـابقٍ مُحْكـم. وإذا باللوريـات تحمـل القائمـين بأمـر الحرائـق مـن أدنى المدينـة إلى أقصاهـا في سرعـة عجيبـة، بينـما يقـف رجـال البوليـس مُتكاسـلين، وبينـما يقـف رجـال المطافـئ عاجزيـن، وبينـما يقـف الحكمـدار ووكيلـه، إبراهيـم إمـام، رئيـس البوليـس الـسري متفرِّجـين...

ويُلـح وزيـر الداخليـة في نـزول الجيـش، فـلا تنـزل قـوات الجيـش إلا بعـد السـاعة الخامسة.

هـذا في الوقـت الـذي يعتقـل في نفـس اليـوم، أكـثر مـن مائتـين وخمسـين، غالبيتهم السـاحقة مـن الفدائيين.

ومـا أن تعلـن الحكومـة الوفديـة الأحـكام العُرفيـة، حتـى يأتيهـا أمـر الإقالـة، ليُعـيَّن عـلي ماهـر رئيسـاً للـوزارة.

ويتهلَّـل الإنجليـز فرحـاً، ويرسـل إيـوار مُراسِـل أخبـار اليـوم رسـالةً يقـول فيهـا بالحـرف الواحـد: إن هنـاك مجـالاً أوسـع للتفـاؤل، مـن أي وقـت مـضى، وتغيـير الحكومـة المصريـة هـو الـذي يُتيـح هـذه الفرصـة، وأهـم شـيئ هـو مـا قالـه رفعـة عـلي ماهـر، أنْ يمهِّـد لأحسـن جـوٍّ يصلـح للمفاوضـات، ولـكي يمهِّـد لهـذا الجـو، يجـب قبـل كل شـيئ، إعـادة الهـدوء والنظـام. ووقـف العـدوان.

العدوان المصري!

أي تصفية معركة القنال.

وقد صُفِّيت معركة القنال فعلاً.

وبـدأت الـسراي تتلهـف عـلى اسـتئناف المفاوضـات، فأبلـغ عبـد الفتـاح عمـرو مسـتر إيـدن: إن مـصر تريـد أن تحـل المسـألة المصريـة عـلى أسـاس جديـد وأن حكومـة مـصر ليـس لديهـا الوقـت الطويـل... إنهـا تريـد أن تسـير المباحثـات بـأسرع مـا يمكـن، وذلـك حتـى تتفـرغ مـصر لبحـث مسـائلها الداخليـة الخطـيرة، ولأن الإطالـة في هـذه المسـألة الآن يُحـدِثُ أسـوء العواقـب.

تلهُّفٌ عجيبٌ!

وفي سبيل هذا، أقامت السراي حكماً إرهابيًّا، واعتقلت الآلاف وحلَّ البرلمان، وعُطلت الحياة النيابية، وبدأت المحاكم العسكرية من جديد. وظنت أنها تشغل البلاد بما سُمِّي التطهير، وغيَّرت أربع وزارات في مدى ستة شهور!

ولكن الكفاح الوطني الذي بلغ درجة عالية في معركة القنال، والذي دخله عنصر جديد واعٍ، نجح في بث وعيه للأجزاء المتقدمة من العمال والطلبة والمثقفين، كان أقوى مِن السراي والاستعمار والإقطاع وكبار رجال المال جميعاً. لقد غدا مستحيلاً على أي حُكم أن يبقى في مصر إذا عرض شيئاً أقلَّ من الجلاء التامِّ، أو إذا فكَّر في الدخول في حلف مشترك مع الاستعمار.

لقد فشلت السراي، وفشل معها أربع وزارات متتالية، في عقد معاهدة مع الاستعمار.

لقد قرَّرت معركة القنال - رغم تصفيتها - لا مصير للاستعمار في مصر فحسب، ولكن مصير النظام الملكي نفسه.

لقد كشفت الملكَ كخائن متآمر مع المستعمِر، وكشفت الدستوريين والسعديين كمتآمرين مع المستعمِرين.

كما أظهرت السراي ورجالها في هذه الفترة، التي انفردت بها في الحُكم، عجزاً فاضحاً وإفلاساً تامًّا. لقد هبطت المبالغ المودعة في البنوك من 232 مليون جنيه عام 1951، إلى 189 مليون جنيه عام 1952، وبلغ العجز في الميزانية 36 مليون جنيه، وسادت الرشوة والفساد في كل مكان، وازداد تربص الشعب.

لقد كان كل شيئ ينذر بأنَّ الحكم الملكي، وحكم كبار الملاك وكبار رجال المال إلى زوال، وزوالٍ قريب.

لماذا صُفِّيت معركة القنال؟

لا شكَّ أن المسؤول الأول هو خيانة الملك ورجال السراي، وتآمرهم مع وكلاء الاستعمار لتدبير حريق القاهرة. إنَّ المادة التي استُخْدمت في إشعال حريق

القاهـرة، هـي نفـس المـادة التـي ألقتهـا الطائـرات الإنجليزيـة والفرنسـية في بورسـعيد في نوفمـبر 1956.

لقد كان هذا هو السبب المباشر ولا شك.

ولكن هذا السبب وحده لا يكفي.

1 - فهنـاك ضعـف القيـادة الوفديـة التـي كانـت في الحُكـم إذ ذاك، فقـد كانـت تتنازعهـا عـدة تيـارات، وكان بعـض هـذه التيـارات يتآمـر بالمعركـة الدائـرة في القنـال، ويريـد تصفيتهـا بـأي شـكل مِـن الأشـكال، واسـتئناف المفاوضـات للوصـول إلى اتفـاق يضمـن بقـاء الحكومـة في الحُكـم.

كما كان هناك تيار متردِّد يتهيَّب المعركة ونتائجَها.

فضـلاً عـن أن الحكومـة - ككل - لم تتخـذ أيـة إجـراءات جديـة لتنظيـم المعركـة، أو الدفـع بهـا إلى الأمـام.

وقـد كان في يدهـا أنْ تحـدَّ مِـن نفـوذ الملـك تمامـاً، وأن تحيـط الـسراي برجالهـا هـي، مسـتخدمة كراهيـة الشـعب للملـك، وتمـرد الضبـاط.

ولكنهـا لم تفعـل شـيئاً واحـداً مـن هـذا. لقـد كان تعيـين حافـظ عفيفـي رئيسـاً للديـوان الملـكي بمثابـة لطمـة وإنـذار بقـرب نهايـة الـوزارة الوفديـة. وكتبـت أخبـار اليـوم صراحـة في هـذا الأمـر، معـبِّرة عـن اتجاهـات الـسراي مدافعـة عنهـا. ولكـن الـوزارة قبلـت اللطمـة سـاكنة، بـل أمْعنـت في تقربهـا مـن الـسراي واسـترضائها لهـا.

وكانـت الـوزارة تحـسُّ بعديـد مـن المؤامـرات. لقـد صرَّح النحـاس في أكـثر مـن خطبـة لـه، مـا يشـعر بإحساسـه هـذا. ومـع هـذا لم تصنـع الـوزارة شـيئاً واحـداً لإفسـاد هـذه المؤامـرات أو الاحتيـاط لهـا.

كـما أن الوفـد كان يسـير عـلى سياسـة خـطٍّ عشـوائي، سياسـة تلقائيـة عفويـة، لا خطـة لهـا، ولا هـدف واضـح، ولا عُـدة ولا اسـتعداد.

لقد كان الضعف الشديد للقيادة الوفدية مسؤولاً عن تصفية معركة القنال.

2 - كـما أن القيـادة الشـعبية كان ينقصهـا الكثـير مِـن النُّضـج، فتخلَّفـت فـترة مـن الزمـن لا مـبرِّر لهـا، عـن الاشـتراك الإيجـابي في المعركـة المسـلَّحة، وعندمـا دخلـت المعركـة، لم تدخلْهـا بكامـل قوَّتهـا.

كـما أنهـا لم تظهـر اليقظـة اللازمـة ضـدَّ المؤامـرة حتـى تفسـدها بكامـل قوتهـا. لقـد اكتفـت بتوزيـع المنشـورات إثـر حريـق القاهـرة، تحلـل المؤامـرة وظروفهـا، ومَـن المسـؤول عـن القيـام بهـا.

3 - كـما كانـت الهيئـات الدينيـة منصرفـة للتدريـب في المعسـكرات. لمـاذا ؟ ولأي هـدف ومعركـة القنـال قـد صُفيـت وأودِع الفدائيـون في المُعتقـلات؟ كان الغـرض شـيئاً واحـداً، لألا وهـو إعـداد أنفسِـهم للوثـوب إلى الحُكـم بواسـطة الإرهـاب. ولتحـرق القاهـرة! ولتُصـف معركـة القنـال! ولتبـق جنـود الاحتـلال!

4 - كما أن موقف الأحزاب الأخرى كان سيئاً للغاية...

فكبـارُ المـلاك يقـف ممثلهـم أحمـد عبـد الغفـار في اجتـماع لمجلـس إدارة الحـزب- والقتـال دائـر في القنـال - يقـترح وجـوب النظـر في مبـدأ المفاوضـة مـع الإنجليـز، ودراسـة مـشروع المقترحـات الرباعيـة (أي مـشروع الدفـاع المشـترك) عـلى أسـاس مِـن العقـل، لا عـلى أسـاس مجـاراة الـرأي العـام!

وحـزب رجـال المـال يقـف رئيسـه في 29 ديسـمبر 1951، بعـد مُـضي قرابـة ثلاثـة شـهور عـلى معركـة القنـال، لينْعَـى عـلى هـؤلاء الذيـن يدفعونهـم (أي الشـعب)، في نشـوة لا يعرفـون أولهـا مِـن آخرهـا، يدفعونهـم إلى الخـراب وهـم لا يعلمـون!

فالكفاح المسلَّح - في نظره - خراب!

وأمَّـا الهيئـة الدينيـة، فيقـف رئيسُـها ليقـول في 15 ديسـمبر: إذا مـا أرادت الحكومة منَّـا أن نرسـلهم إلى القنـال فسنرسـلهم، ولكـن علينـا أن نطمـئن عليهـم، وإننـا لم نتأخـر إلا خوفـاً مـمَّا حـدث في المـاضي، وهـو مـا نرجـو ألا يحـدث وألا يتكـرَّر.

كأنما الدفاع عن الوطن يحتاج إلى إذنٍ وشروط!

***

لقـد كانـت الجبهـة الداخليـة إذاً ممزَّقـة، بـين شـعب يريـد القضاء على الاسـتعمار، مهـما كلَّفـه ذلـك مـن تضحيـات، وبـين سراي وأحـزاب وهيئـات، تمثِّـل طبقـات بأسرهـا مـن كبـار المُـلاك وكبـار رجـال المـال، يريـدون أنْ تظـلَّ قـوات الاحتـلال، وأنْ يبقـى نفـوذ المُسـتعمِر.

لقد كانوا يخشون الشعب أكثر مما يخشون الاستعمار.

لقـد كانـت روابـط المصلحـة التـي تربطهـم بالمسـتعمِرين أقـوى مِـن الروابـط التـي تربطهـم بـأرض الوطـن.

هكـذا اجتمعـت هـذه العوامـل جميعـاً لتسـهِّل عـلى الاسـتعمار تصفيـة معركـة القنـال، وتدبـير حريـق القاهـرة.

الفصل التّاسع
حركة الجيش سنة ١٩٥٢
-1-
الظروف الدولية

•قوة المعسكر الاشتراكي:

لـن نسـتطيع أن نفهـم تطـور الأحـداث المصريـة في السـنين الأربعـة الأخـيرة، إلا عـلى ضـوء الظـروف الدوليـة ومـا جـدّ فيهـا مـن تطـورات. إذ أنهـا ارتبطـت بالأحـداث في مـصر ارتباطـاً وثيقـاً.

إنَّ أبـرز هـذه التطـورات الدوليـة، هـو أنَّ الاشـتراكية لم تعـدْ قـاصرة عـلى بلد واحد فحسـب، أو عـلى بعـض بـلاد منتـشرة هُنـا وهُنـاك، وإنمـا قـد بـرزت كنظـامٍ عالمـي، يمتـد إلى قرابـة ألـف مليـون مـن البـشر.. عـالم مترابـط، متآخـي متعـاون، متسـاند.. جبهـة واحـدة، سـواء مـن الناحيـة الاقتصاديـة أو السياسـية.

ففـي عـام 1917 لم يكـن هنـاك سـوى بلـد اشـتراكي واحـد يضـم 9% مـن سـكان العـالم وقرابـة 16% مـن مسـاحة الكـرة الأرضيـة، ولا ينتـج أكـثر مـن 7% مـن الإنتـاج الصناعـي العالمـي.

أمـا في عـام 1955، فقـد أصبحـت الـدول الاشـتراكية تشـغل أكـثر مـن 26% مـن مسـاحة العـالم، وتضـمُّ 36% مـن سـكانه وتقـوم بإنتـاج 30% مـن جملـة الإنتـاج الصناعـي العالمـي.

لقـد أصبـح الاقتصـاد الاشـتراكي قـوة عالميـة ضخمـة، يطَّـرد نموُّهـا في سرعـة هائلـة؛ لأنـه لا يعـرف الأزمـات، ولا يعـرف البطالـة. نظـراً لملكيـة الدولـة الاشـتراكية للمصانـع، وإمـكان توجيـه الاقتصـاد لصالح الشـعب. واسـتخدام كافـة الإمكانيات الموجـودة داخل البـلاد مـن مـوارد وأيـدي عاملـة، دون انتظـار رأسـمالي لديـه المـال الـكافي لاسـتغلالها!

وقـد كان لهـذا ردُّ فعلِـه في بقيـة أجـزاء العـالم، إذ أصبـح للعـالم الاشـتراكي مـن القـوة الاقتصاديـة، مـا يتيـح لـه أن يمـدَّ يـد المعونـة الأخويـة لكافـة مـا يُسـمَّى بالبـلاد المتخلِّفـة، فيسـتطيع أن يبيعهـا أحـدث الآلات؛ بـل مصانـع بأسرهـا؛ بأثمـان معقولـة مـن المسـتحيل أن تحصـل عليهـا بنفـس السـهولة ولا بنفـس الأسـعار مـن البـلاد الاسـتعمارية.

لقـد أمكـن للاتحـاد السـوفيتي أن يسـاعد الديمقراطيـات الشـعبية في بنـاء 391 منشـأة صناعيـة، واسـتطاع أن يقرضهـا 21 مليـون روبـل بـشروط جـد مناسـبة... إذ لم تتجـاوز الفوائـد عـن هـذه القـروض 2%، ولم تـزد أحيانـاً عـن 10% بالنسـبة للصـين الشـعبية، بينـما يتقـاضى بنـك التعمـير الـدولي الخاضـع لأمريـكا مـا بـين 3.5%، 6%!

ومـا اسـتطاعه الاتحـاد السـوفيتي للديمقراطيـات الشـعبية، فـلا شـك أنه يسـتطيعه أيضـاً لغيرها.

وفعـلاً نجـد أن القـروض السـوفيتية للبـلاد غـير الشـيوعية، قـد زادت عـن 1000 مليـون دولار، منهـا 425 مليـون دولار للهنـد ويوجوسـلافيا وأفغانسـتان، بينـما لم تـزد المعونـة الأمريكيـة للشـعوب المحايـدة عـن 250 مليـون دولار، سـتون في المائـة منهـا المسـاعدات الحربيـة (مـن تقريـر لجنـة فرعيـة لمجلـس الشـيوخ الأمريـكي).

هـذه المعونـات يبذلهـا العـالم الاشـتراكي دون أي قيـد أو شرط، عسـكريًّا كان أو سياسـيًّا أو اقتصاديًّـا، ودون أدنى تدخـل في الشـؤون الداخليـة للبـلاد التـي تبـذل لهـا.

ومـن ثـم أتيحـت إمكانيـات واسـعة للبـلاد المتخلِّفـة التـي ظفـرت باسـتقلالها حديثـاً، أن تعـزز اسـتقلالها السـياسي بنهضـة اقتصاديـة سريعـة، ونمـو مسـتقل

لاقتصادها، معتمدة على العون الاشتراكي، فلا تقع فريسة مرة أخرى للمعسكر الاستعماري...

وقد كان مثل هذا التطور مستحيلاً، عندما كان النظام الرأسمالي هو النظام العالمي الوحيد، أو عندما كان النظام الاشتراكي قاصراً على بلد واحد يحيط به العدوان الرأسمالي من كلِّ جهاته.. فالبلدان الصغيرة أو المتخلِّفة، حتى لو فازت حينذاك باستقلالها السياسي، فقد كان عسيراً عليها أن تحتفظ بنمو مستقلٍّ لاقتصادها، ولذا سرعان ما كانت تقع فريسة للاحتكارات العالمية، لقد كانت شركات البترول الإنجليزية في إيران تقيم الحكومات وتبدلها، رغم الاستقلال الرسمي السياسي لإيران.. وقد كان ولا زال لاحتكارات الولايات المتحدة النفوذ الأول في أمريكا اللاتينية، فهي لا تتأخر عن التدخل المسلَّح للتخلُّص من الحكومات الوطنية التي تسعى للتخلص من سيطرة هذه الاحتكارات.

أمَّا اليوم فمن الممكن لمصر والهند وبورما وإندونيسيا وسوريا ولبنان والأردن والسودان، ومراكش وليبيا وتونس وغيرها، أنْ تقيم لنفسها صناعة ثقيلة، وأن تنهض بصناعتها، دون اعتماد على المعسكر الاستعماري، ودون أن تركع ساجدة عند قدميه.

هذه هي الحقيقة الكُبرى التي برزت خلال الأربع سنوات الماضية.

*ضعف المعسكر الاستعماري:

هذا في الوقت الذي ضعف فيه الاقتصاد الرأسمالي في النطاق العالمي، فهو أولاً لم يصبح النظام العالمي الوحيد ولا المسيطر.. وهو ثانياً قد اشتدت التناقضات في كل بلد رأسمالي منه.. ما بين الملكية الفردية للمصانع والصفة الجماعية للإنتاج، ما بين العمال والرأسماليين الاحتكاريين، ما بين زيادة الإنتاجية وضعف القوى الشرائية.

وفي الوقت نفسه زادت حدة التنافس ما بين الدول الاستعمارية، وخاصة بين إنجلترا وأمريكا. فقد أفلتت من قبضتها أسواق كثيرة، كأوروبا الشرقية والصين الشعبية، فأخذت الأسواق أمامها تنكمش يوماً بعد يوم.. ثمَّ برزت ألمانيا الغربية واليابان أخيراً تنافس في هذه الأسواق المحدودة، فاشتعل التنافس بشكل أقوى.

فالتناقضات تزداد حدةً وعنفاً، سواء في داخل كل بلد من البلدان الرأسمالية، أو في داخل الكتلة الاستعمارية ككل، مما يزيدها ضعفاً على ضعفٍ.

ولهذا مدلوله في سياسة العالم اليوم، فالمعسكر الاستعماري لا يستطيع أنْ يدخل في تسابق مع العالم الاشتراكي بالنسبة لمعونة البلاد المتخلِّفة... إذ أن معونته لهذه البلاد مشروطة بشروط سياسية وأخرى عسكرية وثالثة اقتصادية.

وإليك ما جاء في تقرير هوفر المقدَّم في يونيو سنة 1951 إلى الكونجرس الأمريكي: إنه في المنطقة الآسيوية الإفريقية باحتمال استثناء اليابان، لن تقوم مشروعات صناعية كبيرة، ولن تؤسس مصانع كبيرة، إلا لإنتاج مواد استراتيجية (أي متصلة بالحرب) وإلا فستستمر المعونة الصناعية قاصرة على الصناعات الصغيرة.

إن ممثلي الاحتكار الأمريكي يقولون في صراحة في تقرير لهم: إنه سيكون من الخطأ، إذا حدث وسارت عملية التصنيع في البلاد المتخلِّفة في النمو، على غرار الغرب.

وهم يشترطون ألا تمنح المساعدة الأمريكية إلا للبلاد التي تنبذ فكرة التصنيع الثقيل.

إنَّ معونات الدول الاستعمارية مكبلة بشروط من كل جانب، تَحوْل آخرَ الأمر دون أية نهضة اقتصادية حقيقية للبلاد التي تقبلها، تَحوْل دون نهضة صناعتها الكهربية والصناعات الثقيلة الأخرى.

ومِن ثمَّ أصبح حتماً لتطوير الاقتصاد في البلاد المتخلِّفة التي فازت باستقلالها حديثاً، أن تنصرف عن المعسكر الاستعماري ومعوناته وأحلافه العسكرية وسياسته العُدوانيَّة.

هذه هي الحقيقة الثانية الكبيرة التي برزت تماماً خلال الأربع سنوات الأخيرة.

•قوة الحركة التحررية:

لقد جاءت هزيمة ألمانيا وإيطاليا الفاشية واليابان الاستعمارية خلال الحرب العالمية الثانية، ضربة للمعسكر الاستعماري في النطاق العالمي، فبعثت الأمل في كثير من شعوب المستعمَرات وأشباه المستعمَرات، أن تتحرر وأنْ تفوز باستقلالها.

فهبَّت إندونيسيا وبورما وفيتنام والملايو وكينيا ومراكش وتونس والجزائر والهند ومصر ثائرة تطالب بالجلاء والاستقلال الحقيقي..

ثم جاءت ثورة الصين على يد الطبقة العاملة وحلفائها الفلَّاحين والمثقفين ضربةً قاسية للنظام الاستعماري، بعثت بالجرأة إلى الملايين المعذَّبة.

لقد ازدادت الطبقة العاملة في البلاد المضطهدة قوة وازدادت أحزابها تجربة وخبرة. واستطاعتْ أن تجتذب للمعركة التحريرية الملايين من الفلَّاحين والآلاف من المثقَّفين الوطنيين، فكانت هزيمة الاستعمار في كلِّ مكان.

فلم تصبح الحركة التحريرية مجرَّد تحركات ومظاهرات واحتجاجات، تقوم متناثرة هنا وهناك، كما كان الشأن إثر الحرب العالمية الأولى، وإنما أصبحت حركة عالمية مسلَّحة تواجه الاستعمار بقوة الجيوش، وحرب العصابات.

وليس أدل على الانهيار الذي أصاب الاستعمار من الأرقام التالية ففي أوائل الحرب العالمية الثانية أي حوالي سنة 1939، كان هناك 1500 مليون من البشر خاضعين للاستعمار في شكل مستعمَرات أو تابعات. أي حوالي 66% من مجموع سكان العالم.

ولكن في العشر سنوات التالية للحرب، استطاع أن يتحرَّر من القبضة الاستعمارية 1200 مليون من البشر. فلم يبق في قبضة الاستعمار سوى 6% فقط من سكان العالم.. ستة بعد أن كانوا ستة وستين ؟

وليس أكبر دليلاً على هذه الأرقام على مدى الانهيار الذي أصاب النظام الاستعماري، هذه البلاد التي تحرَّرت حديثاً، قد أصبحت قوة دولية كُبرى، لها مكانتها ولها أثرها في سياسة العالم، بعد أن كانت مجرَّد احتياطي للاستعمار.

وقد أحست هذه البلاد بقوتها وأهمية تضامنها وتساعدها الأخوي، مهما اختلفت نُظُمُها السياسية والاجتماعية.

فجاء مؤتمر باندونج خير معبّر عن تساند الحركة التحريرية العالمية، حين أعلنت هذه الدول مجتمعة ضرورة تعاونها الاقتصادي والسياسي من أجل رفاهية شعوبها، وضرورة وقوفها صفًّا واحداً ضدّ الاستعمار، وضرورة مساندتها كافة التحركات التحررية ثمَّ ضرورة كفاحها المشترك من أجل السلام العالمي.

لقد جاءت قرارات هذا المؤتمر، معبِّرة عن إرادة مئات الملايين من شعوب الشرق، كما جاءت ضربة قوية ضدَّ المشاريع العدوانية للاستعمار.

وقد ساعد مؤتمر باندونج على تخفيف حدة التوتر في العالم، فكان عاملاً هامًّا في نجاح مؤتمر الأربعة الكبار الذي عُقد في صيف عام 1955 في جنيف.

لقد برزت، إذاً قوة عالمية ضخمة تؤثِّر في مجرى الأحداث الدولية، وتستطيع أن تتساند فيما بينها اقتصاديًّا وسياسيًّا ضدَّ عدوِّها المشترك، ألا وهو الاستعمار ومن أجل تطوير مستقبل لاقتصادها.

فلم تعد تقف أية طبقة وطنية في بلد متخلِّف منعزِلةً أمام الاستعمار وتهديداته، وإنَّما أصبح لها من تأييد الدول والشعوب الآسيوية والأفريقية ما يشجِّعها على مناهضة الاستعمار والتمسك بسياسة الاستقلال والسلام.

هذه هي الحقيقة الثالثة الكبيرة في ميدان السياسة العالمية.

*التعايش السلمي:

لقد أصبحت هناك قوى جبَّارة تعمل من أجل السلام.

هناك المعسكر الاشتراكي بما لديه من قوة مادية وأخرى معنوية، يستطيع بها أن يرد على العدوان، اللطمة بلطمتين.

والنظام الاشتراكي يعمل للسلام، فليس من مصلحته أن تشتعل حرب عالمية. إنه لا يربح شيئاً من الحرب، إن مصانع الأسلحة هناك ليست ملكاً لفرد أو شركة، يسرُّها من أجل أرباحها، والمزيد من الأرباح أن يحترق العالَم كلُّه.

إن المصانع الحربية في المعسكر الاشتراكي ملك لدولة العمال والفلاحين.. وكل إنفاق من ميزانيتها في هذا السبيل، إنما يضرُّ بمشروعاتها الإنتاجية لرفع مستوى شعوبها المادي والثقافي.

ولهذا كان المعسكر الاشتراكي يعمل جاهداً من أجل السلام.

ثـم هنـاك قـوى الشـعوب التـي تحـررت مـن قبضـة الاسـتعمار حديثـاً، ورأت أنَّهـا لا تسـتطيع أنْ تبنـي اقتصادهـا، ولا أن ترفـع المسـتوى المنخفـض لمعيشـة أبنائهـا إلا بـأنْ تنـصرف للبنـاء السِّـلمي، فمِـن مصلحتهـا دولاً وشـعوباً أنْ يسـتمر السـلام عـلى هـذه الأرض.

وكان أن ظهـرت منطقـة ضخمـة في العـالم، أوروبـا وآسـيا وأفريقيـا، تضـم دولاً اشـتراكية ودولاً غـير اشـتراكية. ومنطقـة السـلام هـذه يبلـغ تعدادهـا اليـوم مـا يزيـد عـلى 1500 مليـون مـن البـشر.. وهـي كلهـا تجتمـع عـلى محاربـة الأحـلاف الاسـتعمارية، ووقـف التجـارب الذريـة، وتخفيـض السـلاح، واسـتخدام التفاهـم وسـيلة لفـض الخلافـات في العـالم.

هـذا في الوقـت الـذي قويـت فيـه حركـة السـلام العالميـة، لقـد جذبـت حركـة السـلام ملايـين البـشر، وانضـم إليهـا ملايـين مـن العُـمال والفلاحـين والمثقفـين والفنانـين مـن مختلـف الألـوان والعقائـد السياسـية. وأصبحـت حركـة منظَّمَـة وقـوة اجتماعيـة ضخمـة لم يسـبق للعـالم أنْ رأى مثلَهـا قـط.

وقـد سـاعد عـلى ازدهـار مبـدأ التعايـش السـلمي، تصحيـح الاتحـاد السـوفيتي في جـرأة لأخطـاء سـتالين، سـواء في السياسـة الخارجيـة أو الداخليـة، وحرصـه عـلى مبـادئ لينـين في التعايـش السـلمي، وتصحيحـه لنظريـات خاطئـة كانـت تزعـم أن الحـرب أمـر حتمـي لا مفـرَّ منـه، مغفلـة بذلـك تعاظـم القـوى السـلامية وإقـراره لإمكانيـة التطـور في الظـروف العالميـة الجديـدة، ومـن النظـام الرأسـمالي الاشـتراكي، تطـوراً ثوريًـا، ولكنـه تطـوُّر سـلمي، بالأسـاليب البرلمانيـة دون قيـام حـرب أهليـة.

وأعلـن الاتحـاد السـوفيتي تمسُّـكه بالمبـادئ الخمـس للتعايـش السـلمي، التـي وضعهـا نهـرو وشـوان لاي، وردَّدهـا مؤتمـر باندونـج كأسـاس للعلاقـات الدوليـة.

* الاحترام المتبادل لسياسة البلاد المختلفة والحرص على سلامة أراضيها.

* الكف عن أي عدوان.

* عدم التدخل في الشؤون الداخلية لأي بلد آخر.

* تطوير العلاقات بين الدول على أساس المساواة والمنفعة المتبادلة.

* مزيد من التعاون الاقتصادي بين الدول.

وطبق كل هذا فعلاً في علاقاته بيوجوسلافيا والنمسا ومختلف البلاد الشرقية.

هـذا الازدهـار لمبـدأ التعايـش السـلمي وتحوُّلـه إلى حركـة جماهيريـة، كان إضعافاً للمعسـكر الاسـتعماري ومشـاريعه العدوانيـة مـن جهـة، وكان تقويـة للشـعوب والدول المناهضـة للاسـتعمار مـن جهـة أخـرى، كـما كان تقويـة للفئـات الوطنيـة المختلفـة في البـلاد الصغـيرة والمتخلِّفـة أنْ تقـف في وجـه الاسـتعمار في صلابـة أكـبر، مـن جهـةٍ ثالثة.

ولكـن العامـل الـدولي وحـده لا يكفـي لفهـم التطـورات الهامـة التـي حدثـت في مـصر، فلابـد مـن دراسـة الموقـف الداخـلي، فهـو دائمـاً العامـل الحاسِـم.

إنَّ العـراق مثـلاً موجـودة في نفـس الظـروف العالميـة، ولكـن سياسـتُها عـلى النقيـض تمامـاً مـن سياسـة مـصر الوطنيـة والسـلامية والاسـتقلالية.

فلابـد، إذاً مـن فهـم التطـورات الداخليـة التـي أصابـت مـصر، والتـي ترتـب عليهـا قيـام حركـة الجيـش.

-2-

تطورات مصر الداخلية

*التطور الاقتصادي:

أصبحـت الصناعـة المصريـة، في تطورهـا خـلال الحرب العالميـة الثانية وفي السـنوات التاليـة للحـرب قـوة اقتصاديـة يؤْبـه لهـا، لقـد تـزودت بعـض المصانـع بأحـدث الآلات، واسـتطاعت 68 منشـأة منهـا، ممَّـن تسـتخدم 500 عامـلاً فأكـثر، أن تنتـج وحدهـا قرابـة نصـف الإنتـاج الصناعـي بأكملـه.

ولكــن الصناعــة المصريــة سرعــان مــا اصطدمــتْ بعقبــاتٍ كــؤد، تحــول دون اندفاعهــا إلى الأمــام، عقبــات تهــدِّد كيانهــا في الصميــم.

لقـد أصيبـت صناعـة النسـيج مثـلاً بأزمـة طاحنـة، اضطـرت الحكومـة معهـا، أنْ تعينهـا بمـا لا يقـل عـن 8 مليـون جنيـه في عـام واحـد.

ويكفـي أن نقلـب صفحـات تقريـر اتحـاد الصناعـات عـام 1952 - 1953 لنـدرك مـدى الأزمـة التـي تعرَّضـت لهـا الصناعـات المصريـة. وإلينـا بعـض مقتطفـات مـن هـذا التقريـر بالنـص:

واجهـت صناعـة الحريـر أزمـة شـديد لزيـادة إنتاجهـا عـن الاسـتهلاك المحـلي.. وواجهـت سـوق الغـزل والمنسـوجات القطنيـة ركـوداً شـديداً.. ومـا زالـت الصناعـات الغذائيـة تعـاني الكثـير مـن الصعـاب.. كذلـك مـا زالـت الأزمـة التـي واجهتها صناعـة حفـظ الخُضَر والطماطـم منـذ انتهـاء الحـرب الأخـيرة على مـا هي عليـه.. وقد اشـتدت أزمـة صناعـة الأرز.. وارتفعـت أرقـام المخـزون في مصانـع الزيـوت، واضطـرت صناعـة الصابـون إلى تحمـل الخسـائر الكبـيرة.. وقـد قـلَّ إنتاجنـا مـن المُسـتحضرات الصيدليـة.. وتأثـرت صناعـة الجلـود بشـدة مـن ضعـف تصريـف منتجاتِهـا.. كـما صادفـت بعـض الصعـاب في اسـتيراد المـواد الأوليـة.. وقـد واجهـت السـياحة أشـدَّ ركـودٍ عرفتـه في المواسـم العاديـة سـواء قبـل الحـرب أو بعدهـا.. ومـا زالـت صناعـة الحديـد تعـاني صعوبـة في الحصـول عـلى بعـض الخامـات.. وتباطَـأ نشـاط صناعـة الأثـاث المعـدني تبعـاً لحالـة الركـود العامـة. واضطـرت المصانـع إلى خفـض إنتاجهـا مـن 2000 طـن مـن مختلـف أنـواع الأثـاث إلى حـوالي 1200 طـن.. وهبـط الإنتـاج في عربـات النقـل والـترام في خـلال العـام هبوطـاً ملحوظـاً.. وقـلَّ إنتـاج مصانـع الأسـمنت بنسـبة 8% تقريبـاً عنـه في عـام 1951، وتوقَّـف نشـاط صناعـة الطـوب الأبيـض الرمـلي.

كـما هبطـت الودائـع لـدى البنـك الأهـلي بمقـدار 13 مليـون جنيـه. وأسـفرت نتائـج حسـاب السـنة الماليـة (لميزانيـة الحكومـة) لعـام 1952-1951، عـن عجـز فعـلي يبلـغ 38 مليـون جنيـه.

***

فهـل كانـت الأزمـة التـي تمـر بهـا الصناعـة المصريـة مجـرَّد أزمـة طارئـة؟ مجـرَّد أزمـة مـن الأزمـات الدوريـة التـي يصطـدم بهـا النظـام الرأسـمالي، مـذ قـام هـذا النظـام؟

لا، لقد كانت أزمة الصناعة المصرية أعمق مِن هذا بكثير.

كانـت الصناعـة المصريـة قبـل الحـرب العالميـة الثانيـة لا تمـدُّ إلا جـزءً صغـيراً مِـن القـوة الشرائيـة للسـوق المحـلي. فـكان كل مـا يلزمهـا أول الأمـر هـو أن تضغـط الحكومـات لزيـادة التعريفـة الجمركيـة، حتـى تحـدَّ مـن منافسـة الـواردات الأجنبيـة فيمْكـن لهـا بذلـك أنْ يـزداد نصيبُهـا مـن السـوق الداخليـة.

ولكـن الصناعـة المصريـة في عـام 1952 غيرهـا في عـام 1930، لقـد بلغـت مرحلـة هامـة مـن التطـور. إذ أصبـح يغطـي إنتاجهـا الجـزء الأكـبر مـن الطلـب الفعلي للسـوق المحليـة. فهـي تغطِّـي 100% مــن الطلــب الفعــلي مــن الســكر والســجائر والملــح، وهـي بالنسـبة للغـزل تغطـي مـا هـو أكـثر مـن الطلـب الفعـلي للسـوق المحـلي، فهـي مضطـرة إلى البحـث عـن سـوق خارجيـة أو الانكـماش، وهـي تغطـي 95% بالنسـبة للأقمشـة القطنيـة، 90% مـن الأحذيـة والأسـمنت والصابـون، 80% للأثـاث والكبريـت.

فلـم يعـد يكفــي زيـادة التعريفــة الجمركيــة، لــكي يتسـع المجـال لتصريــف منتجاتنـا الصناعيـة. وإنمـا أصبـح حتـماً لهـا أن تعـدِّل تعديـلاً جوهريًّـا مـن تركيبهـا، هـو، وتركيـب السـوق الداخليـة.

أصبح حتـماً لهـا أن تقلِّـل مـن تكاليفِهـا، وأن تزيـل مـن العقبـات التـي تقـف في وجـه التمـدُّد للسـوق المحليـة، هـذا إذا مـا أرادت أنْ تتطـوَّر وتتسـع، وإلا فالانكـماش والمزيـد مـن الانكـماش.. بـل والإفـلاس..

فماذا كان يمنعها مِن تحقيق هذا ؟

أولاً: الاستعمار:

إن السـبب الرئيـسي في ارتفـاع تكاليـف الصناعـة المصريـة هـو اعتمادُهـا في الوقـود والآلات والمـواد الكيميائيـة التـي هـي في حاجـة إليهـا عـلى الـواردات مـن الخـارج، والـواردات مـن الـدول الاسـتعمارية بالـذات: أمريـكا وإنجلـترا وفرنسـا أسـاسيٌّ. والـدول الاسـتعمارية تبيعنـا أدواتهـا بأسـعار احتكاريـة عاليـة، مـما يحمِّـل الصناعـة المصريـة تكاليـف باهظـة.

بـل كثـيراً مـا كانـت الصناعـة المصريـة تجـد نفسَـها عاجـزة عـن اسـتيراد أحـدث الآلات، إمـا بسـبب تجميـد الإنجليـز لمـا لنـا مـن أرصـدة اسـترلينية، وإمَّـا بسـبب عـدم توافـر الـدولار الأمريـكي.

فـإذا مـا أرادت الصناعـة المصريـة إقامـة صناعـة وقـود (كهربـة خـزان أسـوان، أو السـد العـالي) أو صناعـة حديـد، أو مـواد كيميائيـة في داخـل بلادهـا، اصطدمـت بعـشرات العراقيـل التـي يقيمهـا الاسـتعمار والـشركات الاحتكاريـة التابعـة لهـا في الداخـل.. حتـى تسـتمر الصناعـة معتمِـدة عـلى الـواردات مـن الخـارج.

بـل وأكـثر مـن هـذا نجـد أن السـيطرة الاسـتعمارية كانـت تحـول دون التوسُّـع في تصريـف قُطننـا خـارج المعسـكر الاسـتعماري، هـذا في الوقـت الـذي أصبـح فيـه هـذا المعسـكر عاجـزاً عـن شراء كلِّ القطـن المـصري، فقـد أصيبـت مصانـع الغـزل والنسـيج في إنجلـترا بالانكـماش، نتيجـة المنافسـة الحـادة التـي تلاقيهـا في كل مـكان في العـالم. بينـما يتوفـر لـدى أمريـكا مـن القطـن مـا تسـتطيع معـه أن تغـرق أسـواق العـالم، وبينـما تكـدس لديهـا المخـزون منـه بشـكل مزعـج.

ومـصر تعتمـد في بيـع قطنهـا عـلى شراء أكـثر مـن 70 مـن وارداتهـا، وكان معنـى السـيطرة الاسـتعمارية هـذه أولاً أن يتكـدَّس المخـزون لدينـا مـن القطـن حتـى ليبلـغ أكـثر مـن 10 ونصـف مليـون قنطـار قطـن أواخـر عـام 1952، وقرابـة ثمانيـة ملايـين قنطـار أواخـر 1953.

ومعنـى هـذا أيضـاً أنْ نسـتورد دون أنْ نصـدِّر، فيبلـغ العجـز في ميزانـنـا التجـاري 80.4 مليـون جنيـه أواخـر سـنة 1953! وكان اسـتمرار هـذه السياسـة معنـاه الإفـلاس التـامُّ لبلادنـا، وعجـز الصناعـة عـن اسـتيراد مـا تحتـاج إليـه مـن عـدد وآلات.

لقـد ارتطمـت الصناعـة المصريـة إذاً في مرحلـة معيَّنـة مـن تطورهـا بالسـيطرة الاسـتعمارية، بحيـث لم يعـد أمامهـا إلا أحـدُ أمريـن: إمَّـا التخلـص مـن السـيطرة وإمَّـا الانكـماش، بـل الإفـلاس. لقـد كان يكفـي الصناعـة المصريـة بالأمـس بعـض الضغـط، حتـى في ظـلِّ السـيطرة الاسـتعمارية، لتفـوز برفـع التعريفـة الجمركيـة عـلى هـذه أو تلـك مـن السـلع الـواردة مـن الخـارج، فيسـتمر إنتاجهـا بـل وينمـو هـذا الإنتـاج.

ولكـن لم يعـد كافيـاً. لقـد تطلـب تطوُّرُهـا أن تبيـع القطـن أنَّى شـاءت بالسـعر المجـزي، وأن تشـتري الآلات أنَّى أرادت بأرخـص الأسـعار. وأنْ تنْشـئ مـا يلـزم لهـا مـن صناعـة وقـود وكهربـاء ومـواد كيميائيـة وآلات، حتـى تقلِّـل مِـن تكاليـف إنتاجهـا، وأن توظِّـف أموالهـا المكدَّسـة في صناعـات مـن نـوع جديـد لا زال أمامهـا طلـب فعلـيٌّ. وأن تقلِّـل مِـن تكاليفهـا فتسـتطيع أنْ تبيـع بأسـعار أرخـص نسـبيًّا، فتجـد طلبـاً أكـبر.

وكان مسـتحيلاً أنْ يتـم هـذا دون التخلـص مـن القبضة الاسـتعمارية عـلى اقتصادنا القومـي. وهـذا يتطلـب بـدوره تحقيـق الاسـتقلال السـياسي لمـصر كالـشرط الأسـاسي، الـذي لابـد منـه للفـوز بتحررنـا الاقتصـادي.

ثانياً: الاحتكار:

ولم تكن سيطرة الاستعمار السياسية هي وحدها العقبة الوحيدة في سبيل تطور الصناعة المصرية، العقبة التي تهدِّد كيان هذه الصناعة.

فالاحتكار القائم قد أصبح عقبة هو الآخر، وعقبة كؤد، فشركة قناة السويس الاحتكارية، كانت تحرم مصرَ من 16 مليوناً من الجنيهات كلَّ عام، هي صافي أرباحها التي تذهب لحملة الأسهم وأعضاء مجلس الإدارة، دون أن ينتفع بها اقتصادُنا القومي بمليم واحد.

لقد استطاع بنك مصر على سبيل المقارنة، ورأسماله لا يتجاوز المليون جنيه إنشاءَ أكثر من عشرين شركة صناعية وتجارية يزيد رأسمالها عن عشرةِ ملايين من الجنيهات. وهذا ما لم تفعله كافة البنوك الأجنبية الأخرى مجتمعة بما فيها البنك المركزي، أي البنك الأهلي. ورغم أن ودائعها تبلغ ستة أضعاف ودائع بنك مصر.

وشركات البترول الأجنبية الاحتكارية تتعمِد الخفضَ في إنتاج البترول، كما يقول تقرير البنك الصناعي عام 1955، فأصبح هذا الخفض، ظاهرة مستمرة منذ عام 1950، ومعناه ضرورة الاستيراد من الخارج، أي ضرورة الاستيراد مِن نفس هذه الشركات الاحتكارية بأسعار عالية.

وشركة السكر الاحتكارية كانت تبيع السكرَ بضعف السعر العالمي! مما لا يضر بالمُستهلكين فحسب، وإنما يضرُّ إضراراً بالغاً بصناعة الأغذية التي يدخل فيها السكرُ إلى حدٍّ كبير. كما أنَّ هذه الشركات كانت تتعمِد عدم التوسع في الإنتاج، بل تتعمِد الانكماش. فبينما كانت تتيح 233 ألف طن من السكر عام 1939، تراها تهبط بهذا الإنتاج إلى 206 ألف طن عام 1953 حرصاً على الاحتفاظ بأسعار السكرِ عالية!

وشركات الأسمنت الاحتكارية ترفع من أسعار الأسمنت أضعافاً مضاعفة بمجرَّد ما يتمُّ الاتفاق الاحتكاري بينها.

بل تلجأ إلى نفس الحِلية بالنسبة لانكماش إنتاجها، إذ يهبط من 1130 طن عام 1951، إلى 947 ألف طن عام 1952.

وإليك ما يقوله الشمسي نفسه في خطاب له في 27 مارس سنة 1947 باعتباره رئيس البنك الأهلي: إنَّ حالة الاحتكار التي نشأت عن الحرب، أغرت بالمُبالغة في الأسعار.

فالاحتكار بما يحقِّقه من أرباح فاحشة، وبما يقتضيه من أسعار عالية للسلع التي ينتجها مسؤول عن ضيق السوق المحلية وانكماشه، وعدم استطاعة كثير من الجماهير المصرية أنْ تشتري ما تحتاجه لارتفاع أسعار الحاجات.

والاحتكار مسؤول عن عدم تجدد الصناعة وتطوِّرها، بما يحتجزه من أموال لا تستخدم في الصناعة، وبما يحول بينه وبين نشأة صناعات منافسة له.

كما أن الطابع الرئيسي للاحتكار في مصر هو الاحتكار الأجنبي، فهو يعمل بوعي حتى لا تنشأ صناعة ثقيلة في مصر، صناعة كيميائية وكهربية وصناعة صلب وحديد.

إذاً، فقد أصبح حتماً لتطور الصناعة المصرية، وللاقتصاد القومي، القضاء على الاحتكار، أجنبيًا كان أو مصريًا، حتى يمكن أن تستخدم رؤوس الأموال المكدَّسة في البنوك لصالح المشروعات الإنتاجية بشكل عام والصناعة بشكل خاص، وحتى تستطيع أن تتخلص من الضغط الاقتصادي والسياسي الذي تتعرَّض له من جانب الاحتكارات وممثليها في الحُكم، وحتى تستطيع أن تحصل على المواد المصنوعة أو الوقود أو الخامات التي تحتاجها بأسعار معتدلة.

ثالثاً: الإقطاع:

كما اصطدمت الصناعة المصرية في مرحلة معيَّنة، من تطوِّرها، بالسيطرة السياسية والاقتصادية للإقطاع.

فالإقطاع يضع عليها مبالغَ ضخمةً يقتضيها في شكل إيجار قدَّره الدكتور أنيس بمبلغ 130 مليون جنيه في العام ليُنْفق معظمُه إمَّا على مواد مستوردة من الخارج، أو في بناء قصور لكبار الملاك، أو بناء عمارات ضخمة لا يشغلها سوى أصحاب الدخول العالية، أو شراء أراضي صغار ومتوسطي المُلاك، فلا تستفيد الصناعة المصرية بشيئ من دخل الإقطاعيين.

كـما أنَّ الإقطـاع كان أحـد الأسـباب الرئيسـية في ضيـق السـوق المحـلي، وخاصـة في الريـف.

فإيجـار الفـدان الـذي يدفعـه الفـلاح المـصري في بعـض المناطـق في مـصر، يكفـي لـشراء فـدان بأكملـه في إنجلـترا! والإيجـارات في مـصر تزيـد - كـما يقـرُّر الدكتـور أحمـد حسـين - عـلى حقيقـة صـافي الدخـل للمـزارع المصريـة... وتكـون النتيجـة الحتميـة لهذا انخفاضـاً بشِـعاً لدخـول الفـرد في الريـف، وعجـزه عـن شراء أبسـط المـواد المصنَّعـة.

وليـس أدل عـلى هـذا مـن إحصائيـة قـام بهـا المهنـدس مـرزوق عبـد الحميـد، المديـر الفنـي لشركـة مـصر للحريـر، فقـد قـدّر متوسـط اسـتهلاك الفـرد في 1952-1951 لخمسـةَ عـشرَ مليونـاً مـن المصريـين السـاكنين في الريـف بمـا لا يتجـاوز خمسـةَ أمتـار مـن القـماش في العـام للفـرد، بينـما معـدَّل اسـتهلاك الفـرد في إنجلـترا يبلـغ مـا يزيـد عـن 45 مـتراً، وفي أمريـكا يتجـاوز التسـعين مـتراً! بـل بينـما يبلـغ معـدل اسـتهلاك الفـرد في العـالم كلـه 18 مـتراً!

***

كـما أن السـيطرة السياسـية للإقطـاع أصبحـت تـضرُّ أيضـاً بالصناعـة المصريـة... فقـد تقـدَّم بعـض الرأسـماليين المصريـين بإحصـاء يقـرِّر أنَّ نسـبة الضرائـب المبـاشرة المفروضـة عـلى الصناعـة تبلـغ 20 مليـون جنيـه في العـام... بينـما لا تزيـد الضرائـب المبـاشرة عـلى الزراعـة عـن 5 مليـون جنيـه! رغـم أن الدخـل الصـافي مـن الزراعـة يبلـغ أربعـةَ أضعـاف مثيلـه في الصناعـة.

وقـد لا تكـون هـذه الأرقـام دقيقـة تمامـاً... ولكـنَّ فيهـا تعبـيراً عـن مقـدار الـضرر الـذي يلحـق بالصناعـة، نتيجـة لسياسـة الضرائـب التـي تفرضهـا حكومـات كبـار المُلاك.

***

كـما أنَّ الارتبـاط التاريخـي مـا بـين الإقطـاع، والاسـتعمار، أصبـح يحـول دون اتبـاع سياسـة اسـتقلالية جريئـة، سـواء في النواحـي السياسـية أو الاقتصاديـة... الشيـئ الـذي أصبـح لا مفـرَّ منـه، كـما رأينـا، لتطويـر الصناعـة المصريـة.

وكان مسـتحيلاً أن تفـوز مـصر بهـذا الاسـتقلال، طالمـا اسـتمر الإقطـاع والـسراي مهيمنـةً عـلى شـؤون الحُكـم في مـصر.

***

ومِن ثمَّ أصبحت سيطرة الإقطاع السياسية والاقتصادية، عقبةً كؤد في سبيل تطوُّر الاقتصاد القومي بشكل عام؛ وتطوُّر الصناعة المصرية بشكل خاص.

لقد أصبح حتماً - لتطوير الصناعة المصرية والاقتصاد القومي - أنْ تحطم القيود التي تربطه بالاستعمار، وتُخضِعه للاحتكار والإقطاع.

وكان حتماً من تغيير سريع حاسم، وإلا أصيب اقتصادنا القومي بالانهيار.

ولم يكن هذا التغيير السريع يستطيع أنْ ينتظر حتى تتوحَّد قيادة الطبقة العاملة، وحتى يصبح لها من التأييد الجماهيري الذي يمكِّنها من قيادة المعركة الوطنية الديمقراطية ضدَّ الأعداء الثلاث: الاستعمار والإقطاع والاحتكار.. كما حدث في الصين مثلاً.

فإذا لم تكن الطبقة العاملة على درجة من الوعي والتنظيم، تكفل لها قيادة المعركة الوطنية، فيتعين ظهور قيادة جديدة غير قيادة الطبقة العاملة.. قيادة تمثل مصالح الاقتصاد الوطني، والأجزاء المتقدِّمة من الرأسمالية الوطنية، الأجزاء المتَّجهة إلى الصناعة الحديثة بشكلٍ خاصٍّ.

وكان مستحيلاً أنْ تظهر هذه القيادة خلال الأحزاب التقليدية القائمة حينذاك.

فحزب الأحرار الدستوريين يمثِّل - كما رأينا - كبار المُلاك، أي الإقطاع المُتصل بالاستعمار والسراي.

وحزب السعديين - واقع كما رأينا- تحت نفوذ كبار رجال المال، الذين يكوِّنون كتلة مع المستعمرين.

وحزب الوفد كان يمثل الرأسمالية الوطنية في مرحلة متخلفة من نموها، عندما كانت ضعيفة اقتصاديًا، ثم ضعيفة بالتالي سياسيًّا.. كما أن قيادته أخذت يتسرب إليها بعض كبار مُلاك الأراضي، وأخذت تقع تحت نفوذ بعض كبار رجال المال... فأصبحت أعجز من أن تقود المعركة الوطنية ضدَّ الاستعمار.

أمَّا الهيئات الأخرى، الدينية منها وغير الدينية، فلم يكن لها من الكفاءة ولا الوضوح السياسي، ولا حتى مجرَّد الإلمام البسيط بقوانين التطور، حتى تستطيع أن تقود المعركة الوطنية، وهي - لأُمِّيتها السياسية وتخلفها الذهني - كثيراً ما كانت تقع فريسة سهلة لكبار رجال المال وكبار مُلاك الأرض... فهي بذلك عاجزة عن قيادة المعركة الوطنية ضدَّ الاستعمار والإقطاع والاحتكار!

والحزب الاشتراكي كان من جانبه أضعف من أن يقود الحركة الوطنية.

وكانت اللجنة العُليا للحزب الوطني مركَّبة من جملة مثقفين مُنعزِلين كثيراً عن الشعب.

لقد كان الموقف إذاً يتطلب قيادة جديدة للرأسمالية الوطنية المتطورة بتطور الصناعة المصرية... غير قيادة الأحزاب القائمة...

-3-

الوعي القومي وامتداده للجيش

وكان الوعي القومي للجماهير قد ازداد ارتفاعاً، بفضل الاتجاهات الشعبية الجديدة، وبفضل تطوُّر الأحداث العالمية، وبفضل التجارب الثورية التي تمت في الصين وفيتنام.

لقد كانت مظاهرات 21 فبراير 1946، ومعركة الكفاح المسلَّحة في القنال عام 1951 تعبيراً صريحاً عن هذا الوعي، وإيذاناً بالقضاء المُبرم على الاستعمار.

كما أصبح شعار رفض الأحلاف العسكرية والدفاع المشترك، شعار الشعب كله، وتعبيراً عن مقدار النضج السياسي الذي تخلل صفوفه.

وكانت تحركات الفلَّاحين الدموية في بهوت و كفور نجم إيذاناً بالقضاء على الإقطاع.

وكانت المقالات الرَّنانة العلنية في بعض الصحف، وفي مختلف النشرات السرية ضدَّ باشواتِنا الرأسماليين، إيذاناً بالقضاء على الاحتكار...

وأصبحت شعارات الجلاء بالدِّماء، الجلاء العاجل الناجز، دون قيد أو شرط، استئناف المعركة المسلحة في القنال، الاتجار مع المعسكر الاشتراكي، الاعتراف بالصين الشعبية، الكفاح المشترك مع شعب السودان، حقُّ تقرير المصير لهذا الشعب الشقيق... أصبحت هذه الشعارات شعاراتٍ شعبيةً متغلغلة في صفوف الجماهير.

وجاءت حرب فلسطين، وصفقة الأسلحة الفاسدة، والكشف عن مخازي السراي إيذاناً بالقضاء على المَلكية...

وإزاء هذا الوعي القومي المُرتفع، أصبح مستحيلاً على أية حكومة.

أو أي نظـام يحكـم في مـصر أنْ يبقـى، إذ سـار في طريـق غـير الـذي آمـن بـه الشـعب مـن جهـة، والـذي أصبـح يعكـس مقتضيـات التطـور الاقتصـادي القومـي مـن جهـة أخـرى.

لقـد انفـردت الـسراي بالحُكـم مـدى سـتة شـهور، منـذ حريـق القاهـرة في 26 ينايـر 1952... ومـع هـذا لم تسـتطع أن توقِّـع معاهـدة مـع الإنجليـز، أو تدخـل في حلـف عسـكري اسـتعماري، أو تقـضي عـلى سـخط الشـعب المُتزايـد.

ولم يكـن الجيـش بمعـزل عـن الشـعب. إنَّمـا كان ينفعـل بانفعالاتـه ويتأثـر بالتيـارات السـائدة فيـه.

ولم يقتـصر هـذا الانفعـال عـلى مجـرد آراء مُنْبثَّـة هنـا وهنـاك بـين صغـار ضبـاط الجيـش.. وإنمـا قامـت في صفـوف ضبـاط الجيـش تنظيـمات سريـة تخـدم هـذه الآراء.

وقويـت هـذه التنظيـمات إثـر كشـف الضُّبـاط والجنـود بأنفسـهم في حـرب فلسـطين، مقـدار الفسـاد والتعفُّـن في الطبقـة الحاكمـة.. الـسراي، والأحـزاب الرجعيـة.. الأسـلحة الفاسـدة، العجـز الفاضـح في قيـادة المعركـة، التخبُّـط والمؤامـرات، الخضـوع لتوجيهـات الـسراي.

وبـدأت المنشـورات السريـة تتـوالى.. وكانـت كل كلمـة في تلـك المنشـورات - كـما يقـول أنـور السـادات - مسـتمدَّة مـن اتجاهـات الـرأي العـام في البـلاد... الشـعب يريـد القضـاء عـلى المسـتعمِر وأذنابـه، ونحـن نسـجِّل إرادتـه.. الشـعب يلعَـن الأحـلاف العسـكرية والدفـاع المشـترك. ونحـن نطبـع مئـات المنشـورات، لنؤيِّـد وجهـة نظـر الشـعب.

بـل بلـغ الأمـر بهـذه المنشـورات أن تحتـجَّ عـلى فظائـع الاسـتعمار في الحـرب الكوريـة.

وزادت قـوة التشـكيلات السريـة خـلال الكفـاح المسـلَّح في القنـال أواخـر سـنة 1951، فقـد اشـترك بعـض هـؤلاء الضبـاط فعـلاً في المعركـة، أمدوهـا بالسـلاح والذخـيرة مـن مسـتودعات الجيـش نفسـه.. وهـدد بعضهـم بطلـب الإحالـة عـلى الاسـتيداع، إثـر نـشر بعـض الجرائـد الإنجليزيـة أن الجيـش المـصري لا شـأن لـه بالمعركـة الدائـرة في القنـال.

لقـد كان الوعـي المُنتـشر إذ ذاك في صفـوف صغـار ضبـاط الجيـش امتـداداً للوعـي الشعبي.

وكان مسـتحيلاً أن يبقـى الجيـش إثـر انتشـار هـذا الوعـي وتنظيمـه أداة صـمَّاء في يـد الـسراي أو الاسـتعمار، كـما كان الشـأن في ثـورة 1919، بـل مـا بعـد ثـورة 1919.

لقـد بـدأ التحـدِّي واضحـاً لرغبـات الـسراي في انتخابـات نـادي الضبـاط أواخـر 1951.

ولم يكـن عجيبـاً إزاء هـذه الظـروف مجتمعـة، أن تظهـر القيـادة الجديـدة للحركـة الوطنيـة بـين صفـوف هـؤلاء الضبـاط.

ولم يكـن عجيبـاً أيضـاً أن تعـبِّر هـذه القيـادة عـن مقتضيـات التطـوُّر للاقتصـاد القومـي، عـن الرأسـمالية الوطنيـة المعاديـة للاسـتعمار في مرحلـة متقدمـة مـن تطوُّرها.

ولم يكـن عجيبـاً ولا شـاذًّا أن ينهـار النظـام المَلَـكِي والحُكـم الإقطاعـي في سرعـة لاهثـة، إثـر قيـام حركـة الجيـش في 23 يوليـو 1952.

حركة الجيش والحُكم الدستوري

وكان مـن المُمْكـن أن تسـير حركـة الجيـش في اتجـاه دسـتوري منـذ اللحظـة الأولى مـن قيامهـا.

فقـد كانـت التشـكيلات السريـة بـين ضبـاط الجيـش ترمـي أولَ الأمـر، وقبـل قيـام حركتهـا في 23 يوليـو 1952، إلى إعـادة الوفـد إلى الحُكـم.

وإليـك مـا يقولـه أنـور السـادات: اتصلنـا فعـلاً بفـؤاد سراج الديـن، وأوفدنـا إليـه البكبـاشي أحمـد أنـور، أحـد الضبـاط الأحـرار، وذهـب يسـأل سراج الديـن عـن موقـف حـزب الوفـد في حالـة مـا إذا فرضـه الجيـش عـلى المَلَـك.. وبعـد شـهر جاءنـا الـردُّ.. وهـو الرفـض.

وحتـى بعـد انتصـار حركـة الجيـش ونجاحهـا في التخلـص مـن المَلَـك، فقـد قـام هنـاك رأيـان مُتصارِعـان داخـل الهيئـة التأسيسـية للضبـاط الأحـرار.

وإلينـا مـا يقولـه أنـور السـادات عـن هذيـن الاتجاهـين: الـرأي الأول يقـول: مـاذا يمنـع لـو اسـتدعينا برلمـان الوفـد لتسـيير الأمـور، ونجلـس نحـن نراقـب الأحـوال

والخطـوات لتنفيـذ أهـداف الثـورة، الـرأي الثـاني يقـول: لا يصـح أن يحـدث هـذا، فالوفـد وكل الأحـزاب والهيئـات بمـا فيهـم الإخـوان قـد تخلّفـوا عـن التعـاون معنـا قبـل الثـورة.. وأن الثـورة تُحَتِّـم إلغـاء كل تلـك الأحـزاب والهيئات.. واسـتمرت المناقشـة واحتـدت تلـك الاجتماعـات للهيئـة التأسيسـية.. وكان الرأيـان المُتصارعـان هـما محـور كلّ المناقشـات.

بـل أخطـر مـن هـذا، نجـد أنـور السـادات يسجّل في صراحـة أن الهيئـة التأسيسية للضبـاط الأحـرار أعـدَّت قـراراً يقـضي بحـلِّ الأحـزاب كلِّهـا، وإبعـاد كل السياسـيين القُدامَـى الذيـن تعاونـوا مـع القـصر والمسـتعمِر.. فاعـترض جـمال عبـد النـاصر عـلى هـذا القـرار وقـال: يـا جماعـة، إننـي أخـشى أن يفهـم البعـض هـذا القـرار أننـا نتجـه نحـو الديكتاتوريـة. ومـضى جـمال يقـول لنـا: إن ثورتنـا ديمقراطيـة، ونحـن لا نسـتطيع أن نضـع ديكتاتوريـة في هـذه البـلاد، فلنُعْـط الأحـزاب والهيئـات فرصـة لتطهـير نفسـها وتحديـد برامجهـا وأهدافهـا بمـا يتَّفـق والوضـع الجديـد.

وهـدَّد عبـد النـاصر بالاسـتقالة إذا أصرَّت الهيئـة عـلى قرارهـا ونزلـت الهيئـة التأسيسـية عـلى رأي عبـد النـاصر وتحـدَّد موعـد أقصـاه شـهر فبرايـر 1953 لإجـراء الانتخابـات بعـد أن تنتهـي الأحـزاب مـن تطهـير نفسـها.

***

بـل وتمـت مقابلـة مـا بـين عبـد النـاصر وفـؤاد سراج الديـن، وهـذا مـا يقولـه أنـور السـادات بالحـرف الواحـد، وتكلَّـم جـمال عـن حـزب الأغلبيـة (يقصـد الوفـد) وعـن إيمانـه بأنـه مِـن الممكـن جـدًّا للحـزب الكبـير أن يُصلـح مـن الأوضـاع السـائدة فيـه وفي قيادتـه، ويغـيِّر مـن أهدافـه وبرامجـه بمـا يتفـق والوضـع السـياسي الجديـد بعـد فـاروق.

ومـضى جـمال يقـول لـسراج: إن حـزب الوفـد لـو فعـل هـذا لأصبـح مـن السـهل أن يُسـيِّر دفَّـة الأمـور، فالثـورة لا تريـد دكتاتوريـة، واشـترط لـكي يتـمَّ التعـاون بـين الثـورة وحـزب الوفـد شرطـاً واحـداً، وهـو أن يصـدر الحـزب بيانـاً يعلـن فيـه عـلى المـلأ موافقتَـه عـلى قانـون تحديـد المِلْكيـة. واسـتمرت المناقشـة أربـعَ سـاعات.. لكـن سراج الديـن رفـض الموافقـة عـلى تحديـد المِلْكيـة، وقـال إنـه سـيعرض الأمـر عـلى حـزب الوفـد. ورفـض الحـزب الموافقـة ولـو أنـه لم يصـدر بيانـاً بهـذا الموضـوع. وهُنـا فقـط

آمـن جـمال عبـد النـاصر بأنـه لا أمـلَ لـه عـلى الإطـلاق في تعـاون هـؤلاء السَّاسـة مـع الثـورة.

واضـح إذاً أنَّ تخلُّـف البـلاد عـن الحكـم الدسـتوري مـدى أربـع سـنوات كاملـة لم تكـن تقـع مسـئوليته عـلى كاهـل الهيئـة التأسيسـية للضبـاط الأحـرار وحدهـا.. ولا عـلى العنـاصر التـي لا تؤمـن بالدسـتور ولا الحيـاة النيابيـة مـن أعضـاء هـذه الهيئـة فحسـب، وإنمـا كان يعـود أيضـاً إلى تخلُّـف الوضـع الحـزبي في مـصر عن تطـور الأحداث الاقتصاديـة والسياسـية، الداخليـة منهـا والخارجيـة.

فالقيـادة السـعدية والدسـتورية كانـت مُعاديـة للحركـة الوطنيـة والدسـتورية طـوال تاريخهـا.. والقيـادة الوفديـة أصبحـت متخلِّفـةً عاجـزة عـن قيـادة الرأسـمالية الوطنيـة في تطوُّرهـا الجديـد.. والقيـادات الأخـرى إمَّـا متخلِّفـة رجعيَّـة وإمَّـا مُتقدِّمـة ولكنهـا ضعيفـة منقسِـمة عـلى نفسـها، غـير موحَّـدة في الـرأي ولا في التنظيـم.

الفصل العاشر

سياسة سلام واستقلال

-1-

كَشْفُ الاستعمار

أخذت سياسة مجلس قيادة الثورة ترسم خطوطها شيئاً فشيئاً. وأخذت تتحسس الطريق في حذر حينا وتردُّدٍ حيناً آخر.

ولم تكن الظروف الدولية مواتية إذ ذاك، فالحرب الباردة بين العسكرين كانت على أشدِّها، والتسابق على التسلُّح قد بلغ الجنون،والتكتلات العسكرية العدوانية تقوم في كل مكان .. والاتحاد السوفيتي لم يكن قد تخلَّص بعد تماماً، مِن الآثار الضارة التي ألحقتها به أخطاء ستالين، سواء في الحقل الداخلي أو الخارجي.

ثمَّ لم يكن الطريق سهلاً معبَّداً في الداخل، فالتآمر بالقيادة الجديدة لم يكن يَكُف ولا ينقطع، والتخوُّف من الشعب وتحركات الشعب كان قائماً، كما كان هناك بعض الرجاء في أمريكا.. وقد عبَّر أنور السادات في أكثر من مناسبة عن هذا الاتجاه في صراحته القاسية: لقد بذلنا ماء الوجه مع أمريكا وإنجلترا بدون جدوى.. قالها في أكثر من مناسبة في مقالاته الوطنية بجريدة الجمهورية.

وكان أن أفسح المجال للنقطة الرابعة ومكاتب الاستعلامات، وعدَّل من قانون الشركات، بحيث يعطي كافة الضمانات والتسهيلات لرؤوس الأموال الأجنبية، ومُنِحت شركة كونورادو الأمريكية امتيازاً سخيًّا للبترول.

كما تمت اتصالات منذ أواخر 1952 بأمريكا من أجل استيراد الأسلحة التي كان الجيش المصري في حاجة ملحَّة إليها.. وقام بالاتصال بكل من إنجلترا وأمريكا من أجل تمويل السد العالي، ثمَّ كانت المفاوضات والمباحثات من أجل تحديد موعدٍ للجلاء .

وماذا كانت النتيجة؟

لقد أخذت النقطة الرابعة تعتذر عن المساهمة في أي مشروع جِدِّي بحجَّة أن هذا لا يدخل في منطقة اختصاصها.

ولم يقدِّم الخُبراء الأمريكان بحثاً واحداً ذا قيمة فعلية.. لقد كانت كلها دراسات سطحية، موجَّهة وفق خطة مرسومة، ألا تقوم في مصر صناعات ثقيلة، ولم تكتشف شركة كونورادو بئراً واحدة للبترول.

ولم تزد الاستثمارات الأجنبية، رغم كل ما أُزيل أمامها من عقبات عن 700 ألف جنيه! عام 1954، ثمَّ 900 ألف جنيه عام 1955، وجهت معظمها إلى شركات البترول الأجنبية الاحتكارية، هذا في الوقت الذي بلغت فيه الاستثمارات من جانب مصر في هذين العامين 106.2 مليون جنيه ؛ 106 مليون جنيه مقابل 1ونصف مليون من الأموال الأجنبية!

وأخطر من هذا: بدأنا - كما يقول عبد الناصر- نتكلَّم عن تمويل الجيش المصري بالسلاح، مع استعدادنا لدفع ثمن السلاح، فرفضوا إلا إذا وقَّعنا ميثاق الأمن المتبادل، ومعناه أن تأتي بعثة أمريكية تُشرف على الجيش المصري.. ولذا رفضنا توقيع الأمن المُتبادل. ولقد قالوا في آخر عام 1953، إنهم مستعدون لتزويدنا بالسلاح، ولكن بعثتنا عادت خالية الوفاض .

هذا في الوقت الذي كانت تنهال فيه الأسلحة على إسرائيل ربيبة الاستعمار ممَّا كان يُغريها على العدوان والتحرُّش بمصر وبقية البلاد العربية.

واشترطت إنجلترا لإمداد مصر بالسلاح أن يسكت عبد الناصر في باندونج وأن يدعَهم ينفِّذون خطتهم في الأحلاف العسكرية.

أي إمَّـا الخضـوع للاسـتعمار والانضـمام لأحلافـه، وإمَّـا لاسـلاح، لا بالثمـن ولا مَجَّانـاً، كـما يقـول عبـد النـاصر.

وكلَّـما تمسَّـكت حكومـة عبـد النـاصر بالسياسـة السـلامية الاسـتقلالية، قامـت إسرائيـل بالتحـرش بمـصر.. لقـد بـدأ العـدوان الاسرائيـلي سـافراً في 1955 عـلى قطـاع غـزة.. وإسرائيـل لا تتحـرك حركـة إلا بـإذن الاسـتعمار، وتحرُّشُـها هـذا كان معنـاه ضغطـاً اسـتعمارياً غـيرَ مبـاشر عـلى مـصر وحكومـة مـصر.

••••

ثمَّ بدأت قصة تمويل السد العالي.

وبـدأ الاتصـال بالبنـك الـدولي عـام 1954 عـلى أسـاس أننـا مُسـاهِمون فيـه بعـشرة ملايـين مِـن الجنيهـات، كـما بـدأ الاتصـال بعـدَّة شركات في المُعسـكر الغـربي.

وبعـد طـول مفاوضـات كشـف البنـك الـدولي المزعـوم عـن وجْهـه الحقيقـي فـإذا بـه يضـع شروطـاً معناهـا كـما قـال عبـد النـاصر: أنْ يرسـل لنـا البنـك مَـن يجلـس مـكان وزيـر الماليـة، وآخـر يجلـس مـكان وزيـر التجـارة وثالـث يجلـس مـكاني أنـا.

فالبنـك يعلِّـق تمويلـه عـلى قبـول معونـة معيَّنـة مـن المعسـكر الغـربي، فـإذا ماحـدث خـلاف بيننـا وبـين هـذا المعسـكر، سـحب البنـك الـدولي اعتماداتـه! كـما اشـترط البنـك التفاهـم مـع الحكومـة المصريـة عـلى برنامـج الاسـتثمار، وعـلى منـع التَّضخـم وألا تشـغل الحكومـة نفسَـها بمشروعـات صناعيـة أو غيرهـا بجانـب السـدِّ العـالي، ثـم التقليـل مـن الاهتـمام بزراعـة القطـن، وضبـط المصروفـات العامـة، وضرورة التفاهـم مُقدَّمـاً مـع البنـك قبـل قيـام الحكومـة المصريـة بعقـد أي قـرض أو اتفـاق دفـع.

أي في عبـارة واحـدة، ضرورة السـيطرة التامـة عـلى اقتصادِنـا وربطـه بالعَجَلَـةِ الاسـتعمارية.

***

وكان أمـام مـصر تجربـة حيَّـة معـاصرة، ممثَّلـة في تركيـا وجنـوب فيتنـام. فقـد استسـلم حُـكام تركيـا للاسـتعمار الانجلـو أمريـكي وأغـدق هـذا الاسـتعمار عـلى تركيـا المسـاعدات والمعونـات منـذ عـام 1947 أي منـذ سـبع سـنوات.

فماذا كانت النتيجة؟

لقـد كان دخـل الفـرد في تركيـا عـام 1953 قرابـة 556 لـيرة تركيـة، فـإذا بـه يهبـط في عـام 1954 إلى 490 لـيرة! هبـوط 66 لـيرة تركيـة في عـام واحـد لدخـل الفـرد، وهنـاك في تركيـا 23 ونصـف مليـون مـن الافـراد.

وهــذه الإحصائيــات ليســت مُســتقاة مــن مصــادر أمريكيــة ولا مــن مصــادر ســوفيتية وإنمــا مــن البنــك الصناعــي نفســه!

وأوشـكت تركيـا عـلى الإفـلاس عـام 1956.. وعجـزت تمامـاً عـن أداء ثمـن وارداتهـا.. بـل توقَّفـت بعـض الشـحنات الذاهبـة إليهـا نتيجـة هـذا العجـز.. وفزعـت تركيـا إلى أمريـكا تطالـب بقـرض لا يزيـد عـن 300 مليـون دولار؛ لإنقاذهـا مـن الإفـلاس.

فماذا كان ردُّ أمريكا؟

لا .. نحن لا نثق باقتصاد تركيا.

إنَّ عبدالقـادر حاتـم صـادقٌ في تصويـره حـين قـال: إن مسـاعدات الغـرب لتركيـا كانـت سـبباً في إفـلاس تركيـا؛ لأنَّ جميـع هـذه المسـاعدات كانـت سُـلَفاً اسـتهلاكية وليسـت إنتاجيـة فترتـب عـلى ذلـك أن تعطَّلـت المصانـع التركيـة وشُـلَّت الحركـة الاقتصاديـة في جميـع أنحـاء تركيـا.

ثـمَّ إلينـا بلـد آخـر، فيتنـام الجنوبيـة. لقـد اسـتطاعت أمريـكا بكافـة المنـاورات والألاعيـب، أن تحـلَّ محـلَّ السـيطرة الفرنسـية هنالـك، وبـدأت المسـاعدات الأمريكيـة والحربيـة تنهـال عـلى فيتنـام الجنوبيـة.

فماذا كانت النتيجة؟

هبطـت المسـاحة المخصَّصـة لزراعـة الأرز في فيتنـام مـن 6.200.000 فـدان عـام 1939، إلى 4.026.100 عـام 1955! وهبـط إنتاجهـا الصناعـي في عـام 1955 بمقـدار 50% عـما كان عليـه قبـل الحـرب، وزاد سـعر الأرز، وهـو الغـذاء الرئيـسي للجماهـير، مـن ثلاثـة قـروش للكيلـو جـرام إلى 18 قرشـا في بحـر عـشرة شـهور!

لقد صدق عبد الناصر حين قال في خطابه التاريخي في 26 يوليو 1956: إنَّني لم أر أبداً معونة أمريكية متَّجهة إلى التصنيع؛ لأنَّ اتجاهها إلى التصنيع سيترتب عليه منافستنا لهم. ولكن المعونة الأمريكية تتَّجه إلى الاستغلال.

لقد كشف الاستعمار إذاً عن نواياه كشفاً تامًّا. ولم يعد وطني واحد شعباً وحكومة يطمئن لحظةً واحدة إلى المعونات والمساعدات الاستعمارية .

هذا في الوقت الذي أخذ فيه الواقع الاقتصادي للبلاد، يفرض نفسه فرضاً على سياستنا .. فقد تكدَّس القطن لا يجد مُنصرَفاً.. وأوشكت المشروعات الجديدة الإنتاجية أن تتعرَّض للتَّوقف.

وفي الوقت نفسه برزت سياسة الاتحاد السوفيتي، برزت واضحة لا تترك مجالاً للشك ولا للتردد - بعد تخلُّصها مِن الآثار السيئة لسياسة ستالين - برزت واضحة تمدُّ يدَ العون صادقة، دون أن تعلِّقها بشرط واحد سياسيًّا كان أو اقتصاديًّا، ودون أن تقوم بأي تدخل في شؤون البلاد الداخلية ولا في نظم حُكمها.

إزاء هذه الظروف مجتمعة، بدأت سياسة القيادة الجديدة للحركة تتبلور واضحة، فكانت سياسةَ سلام واستقلال وطني.

وكان لهذه السياسة شقَّان: سياسة داخلية مرتبطة بضرب الإقطاع والاحتكار، وسياسة خارجية مرتبطة بمقاومة الأحلاف العسكرية الاستعمارية وتدعيم الجبهة العربية والكفاح من أجل السلام العَالمي.

-2-

السياسة الداخلية

أمَّا بالنسبة للسياسة الداخلية لحكومة عبد الناصر فهي لاشك سياسة موجَّهة ضدَّ الإقطاع والاحتكار، سياسة قائمة على النهوض بالاقتصاد القومي، ومركز الثقل في هذه النهضة هو الصناعة الثقيلة.

1. فقانون الإصلاح الزراعي الذي صدر في سبتمبر 1952 كان ضربة موجَّهة ضدَّ الإقطاع .

حقًّا أنه لم يجتث جذور الإقطاع نهائيًّا، فقانون الإصلاح الزراعي لم يمس سوى 6.4% من الأراضي، بينما يملك الإقطاعيون 36% من الأراضي، وحقًّا أن المَالك الجديد للأرض لا زال عليه أن يدفع سنويًّا وفق الإحصاءات الرسمية 14جنيها ثمناً لأرضه مدى ثلاثين عاماً،كما أنَّ جزءً كبيراً من الأراضي المُصادرة لم يوزَّع بعدُ على صغار الفلَّاحين.

إلا أنه رغم هذا كله فقد كان قانون الإصلاح الزراعي ضربة موجَّهة للجزء العُلوي من الإقطاع، وتقويضاً لنفوذه الاقتصادي. كما أنَّ القضاء على الأسرة المَالكة والنظام المَلَكي رأس الإقطاع، كان ضربة للنفوذ السياسي للإقطاع.

كما تمت سلسلة من التشريعات موجَّهة ضدَّ الاحتكار إذ تمَّ تمصير البنك الأهلي وأُلغي فرعه في لندن.

كما صدر قانون يحرِّم الجمع بين عضوية مجلس إدارة أكثر من ست شركات فيما عدا أحوال استثنائية، ثمَّ قانون آخر يحرِّم على عضو مجلس الإدارة المُنتدب أن يكون عضواً في مجلس إدارة في شركة أخرى، ثمَّ قانون ثالث يحرِّم على مدير لبنكٍ ما أن تكون له وظيفة أخرى في بنك آخر.. وألا يُعيَّن مدير لشركة فوق سن الستين دون موافقة مجلس الوزراء، وأن يكون تعيين المديرين للشركات التي تقوم بخدمة عامة خاضعاً لموافقة وزارة المالية.

وكان أن تخلَّصت مصر بهذه التشريعات من أكثر من 400 من كبار السِّن المصريين، من الباشوات الذين استمروا يحتلون مقاعد مجلس معظم الشركات المساهِمة في العشر سنوات الأخيرة.

ثمَّ وضعت شركة السكر الاحتكارية تحت إدارة الحكومة، ثمَّ وضعت شركة الملح والصودا وهي شركة احتكارية هي الأخرى تحت نوع من الرقابة الحكومية وأُنشئت شركة أسمنت جديدة رفضت أن تدخل في اتفاق مع الشركة الاحتكارية القائمة، وهدف الشركة الجديدة هو إنتاج الأسمنت بسعر أرخص.

كما شجعت الحكومة الشركة التعاونية للبترول بكافة الوسائل لتستطيع أن تقف على قدميها إزاء منافسة شركات البترول الاحتكارية الأجنبية.

كما شجعت البنك الصناعي، فرفعت الحدَّ الأقصى للقرض المخصَّص له من 2 مليون جنيه إلى خمسة ملايين جنيه.

كـما شـجَّعت عـلى إنشـاء شركـة مـصر للتجـارة الخارجيـة التـي تسـتطيع أن تنافس احتـكار المسـتوردين للتجـارة الخارجية.

كـما وضعـت أخـيراً تحـت الحراسـة كافـةَ الـشركات الاحتكاريـة الانجلـو فرنسـية هـذه كلهـا كانـت ولا شـك ضربـات موجَّهـة للاحتـكار.

نهوض الاقتصاد القومي:

ولا شك أن الحكومة قد لعبت دوراً هامًّا في نهوض الاقتصاد القومي.

فقـد بلغـت جملـة الاعتـمادات الحكومـة المخصَّصـة لمشروعـات تنميـة الإنتـاج القومـي 143 مليـون جنيـه في السـنوات الثلاثـة الأخـيرة كـما أخـذت الحكومـة تضـع خططـاً لتوجيـه النشـاط الاقتصـادي.

وكانـت نتيجـة هـذه السياسـة أن زاد الدخـل القومـي في عـام 1955 بمقـدار %16 عـما كان عليـه في عـام 1954. وزاد إنتـاج الخامـات المعدنيـة زيادة تقدَّر بمقـدار %17.3 كـما سجَّل إنتـاج الصلـب زيـادة قدرهـا %16 والحديـد الخـام %93.7 والنحـاس %16.

كـما بُـدِئ بالفعـل في إقامـة عـدد مـن الصناعـات الهامـة، منهـا أول مصنـع حديث للحديـد والصلـب، سـيبلغ إنتاجـه 220.000 طـن مـن الصلـب في العـام الواحـد، كـما تـمَّ فعـلاً تشـغيل مصنـع للإطـارت وآخـر للأسـمدة الكيمائيـة، ويجـري بنـاء معامـل تكريـر للبـترول، ومصنـع للخـزف.

ولا شـك أن الحكومـة مُحِقَّـة في جعـل بنـاء السـد العالي محـورَ النهضـة الاقتصادية، فسياسـة الحكومـة واضحـة في الإسراع بتصنيع البلاد.

كـما نجحـت الحكومـة في تحريـر قسـم كبـير مـن تجارتنـا الخارجيـة مـن الارتبـاط بالمعسـكر الغـربي، فاتسـعت المبـادلات مـع المعسـكر الاشـتراكي، كـما اتسـعت العلاقـات التجاريـة مـع دول بابدونـج، مـما حـرَّر تجارتنـا الخارجيـة مـن كثـير مـن القيـود الاسـتعمارية التـي كانـت تربطنـا بهـا، إذ هبطـت تجارتنـا الخارجيـة مـع المعسـكر الاسـتعماري إلى الثُّلـث ، وقـد تجلَّـت فائـدة هـذا واضحـةً إثـر تأميـم القنـاة وتجميـد المعسـكر الغـربي لأرصدتنـا مـن الإسـترليني وشـنِّه حصـاراً اقتصاديًّـا عـلى بلادنـا، فلـم يُقَـدَّر لهـذا الحصـار النجـاح واسـتطاعت مـصر أن تقـاوم هـذا الحصـار في سـهولة ويُـسْر، وهـذا بالنسـبة للسياسـة الداخليـة.

-3-

السياسة الخارجية

*رفض حِلف بغداد:

أما السياسة الخارجية فقد بدت حازمةً، حين قال عبد الناصر: لا لن تنضمَّ مصرُ لحِلف بغداد.

لقد تبيَّن للعرب جميعاً - كما وضَّح الرئيس – أن ذلك الحلف ليس إلا سجناً كبيراً صنعه الاستعمار بما يوافق الأشكال التي يتشكَّل بها طِبقاً لمُقتضيات الزمن.

كانت سجون الاستعمار في أول الأمر، مناطق نفوذ تحكمها قوات احتلال ثمَّ تطوَّرت سجون الاستعمار إلى مُعاهدات تحالف.

وكان الشكل الأخير لسجون الاستعمار، هو تلك المواثيق التي يعقدها أعوانه ويتفانون في حَبْكِ سلاسلها وأغلالها، حول أعناق شعوبهم.

تبيَّن للعرب إذاً كما قلت أن ذلك الميثاق الجديد ليس إلا سجناً كبيراً، ورفضاً بطبيعة الحال أن يدخلوا برضاهم. ولم يستطع الوعد، وكذلك لم يستطع الوعيد أن يدفعهم إلى داخل أسوار السجن الكبير.

فماذا وراء حِلف بغداد هذا، وما السرُّ في حماسة انجلترا لهذا الحلف وإصرارها على ضمِّ البلاد العربية إليه؟

يجب أن نعود كي نفهم هذا السرَّ إلى الوراء قليلاً؛ فبعد استقلال الهند وبورما، وبعد قيام الصين الشعبية مظفرة تهاوت أعمدة الاستعمار البريطاني في الشرق الأقصى، وأخذت تركِّز همَّها في الشرق الأوسط. فقررت لندن أنَّ المنطقة الممتدة من أعلى النيل إلى شواطىء بحر قزوين والتي يسكنها 80مليون من العرب والإيرانيين، يجب أن تكون منطقة نفوذ بريطانية لتعوِّض بعض الشيئ من خسارتها السياسية والعسكرية والاقتصادية في الهند.

حقًّا إن سوق الشرق الأوسط لا يمكن أن يعوِّض خسارتها للسوق الهندي الضخم، ولكن هناك البترول.

فمنطقة الشرق الأوسط تنتج اليوم ربع بترول العالم الرأسمالي، ويحتوي جوفها على ثُلُثي الاحتياطي المخزون في العالم، وتمد 80% من حاجات بريطانيا وبلاد أوروبا الغربية من البترول الخام.

فبترول الشرق الأوسط كما وصفته جريدة الديلي ميل البريطانية هو القوة المحركة للقوات المسلحة البريطانية والصناعات البريطانية الرئيسية.

ولا شكَّ أن بريطانيا تستطيع أن تحصل على هذا البترول في سهولة، في شكل صفقات تجارية.

ولكن الاحتكارات البريطانية التي تسيطر على السياسة هناك، كانت تستهدف شيئاً أكثر من مجرد الحصول على بترول الشرق الأوسط بسبب رخص الأيدي العاملة لا يزيد عن عُشْر ثمن البيع فالاستيلاء على هذا البترول والتحكُّم فيه يضمن لهذه الشركات أرباحاً فاحشة.

ولم يكن هذا هو كل شيئ، فانجلترا كانت دائماً تحارب مستخدمة رجال مستعمراتها، وكانت الهند أهم مورد للرجال الذين تُلقيهم وقوداً في حروبها الاستعمارية، وقد استقلت الهند فلابد من البحث عن مورد آخر لوقود المدافع فإذا سيطرت انجلترا على منطقة الشرق الأوسط أمكنها أن تجنِّد منها مئات الألوف من الجنود تستخدِمهم في مشاريعها العدوانية.

ثمَّ إن الاستيلاء والسيطرة على الشرق الأوسط كان يُتيح لبريطانيا تحقق هدفٍ أهم، ولو أنها كانت تحرص على إبقائه سرًّا مكتوماً.. فإنه إذا تمكَّن لها الأمر في هذه المنطقة، فهي تستطيع أن تُعيد جزءً من سيطرتها على الهند وباكستان وبورما وأفغانستان..

كما أن السيطرة على الشرق الأوسط سيطرة عسكرية يمكنها من المحافظة بالقوة المسلحة على بقايا مستعمَراتها في أفريقيا، الثائرة على الاستعمار، ويحول دون الانهيار السريع للنظام الاستعماري المُتفكِّك.

*فماذا كانت خطة الاستعمار البريطاني لتحقيق هذه السيطرة؟

1. أُقيم اتصال مباشر بين الدوائر العسكرية البريطانية وشركات البترول البريطانية، فعُيِّن الفيلد مارشال الأنبروك، الرئيس السابق لهيئة أركان الحرب الامبراطوري، مديراً لشركة الانجلو إيرانية للبترول. وعُيِّن الأميرال كاننجهام

القائد السابق لأسطول البحر الأبيض المتوسط عضواً في مجلس إدارة الشركة الإيرانية للبترول، وعُيِّن في مجلس إدارة الشركة المنحلَّة لقناة السويس، وهي الممر الرئيس للبترول البريطاني، كلٌّ من لورد هانكي الذي استمر فترة طويلة سكرتيراً دائماً للجنة الدفاع الامبراطوري، ثمَّ سير الكسندر كاذوجان، الوكيل السابق الدائم لوزارة الشئون الخارجية البريطانية، وسير فرانسيس ويلي أحد المسؤولين الرئيسيين في قلم المخابرات الانجلو هندية...

2. ثمَّ كانت الخطوة الثانية وهي محاولة إقامة ما أسمَاه بسوريا الكُبرى مستعمَرة جديدة تضمُّ العراق وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين تحكمها الأسرة الهاشمية تحت السيطرة البريطانية.

وكان منظوراً في عرف بريطانيا أنَّ نجاح هذا المشروع سينتهي إلى إخضاع العربية السعودية، واليمن ثمَّ تركيا وإيران واليونان إلى النفوذ البريطاني، كما يدعم قبضة بريطانيا على مصر.

ولكنَّ شيئاً واحداً أغفله الساسة البريطانيون الاستعماريون، ألا وهو نهضة الشرق العربي، ألا وهو اشتعال الحركة التحريرية في هذه المنطقة، وبدء تضامُنها واتِّحادها، وكان أن رفضت الشعوب العربية مشروع سوريا الكبرى.

3. ورأت بريطانيا مرة أخرى في سنة 1955 أن تبدأ المشروع كله من جديد تحت اسم آخر، تحت اسم حلف بغداد، في شكل كتلة عسكرية لدول الشرق الأوسط، تكون فرعاً للحلف الأطلنطي وتحت سيطرة إنجلترا. أي نفس الأهداف... أي امبراطورية زيت بريطانية وقواعد عسكرية بريطانية، وسجن استعماري حديدي لعشرات الملايين من العرب والإيرانيين.

ولم يستطع إيدن أن يُخْفي أغراض هذه الحلف، ففي خطاب له في مجلس العموم البريطاني نراه يقول: إنَّ الهدف الذي نتوخَّاه من الانضمام لميثاق (بغداد) هو تعزيز نفوذنا ورفعنا صوتنا في شؤون الشرق الأوسط.. وقيام تعاون وثيق متواصل بين القوات المسلحة لكلا القُطْرين (إنجلترا والعراق)، كما سيظل العسكريون البريطانيون لخدمة الطائرات العسكرية البريطانية وسيكونون تحت إمرة الضباط البريطانيين.

أمَّا بالنسبة لموقف الحِلف من إسرائيل فقد قال إيدن بالحرف الواحد: إن الغرض من هذا الميثاق هو صرف نظر العراقيين إلى اتجاه آخر! ولما كان الإسرائيليون أُناساً أذكياء جدًّا، فقد تصورت أن هذا الميثاق سيجعلهم في أمن ودعة.

وقد جاء رفض جمال عبد الناصر لحلف بغداد مُنبعثاً من ضمير الشعب المصري وأعماقه، فقد قاوم الشعب المصري- كما يقول الدكتور محمد أنيس - مشروعات الأحلاف الاستعمارية، التي حاولت حكومات الرجعية والإقطاع، أن تفرضها عليه منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية.

ألم يسحق الشعب المصري مؤامرة الدفاع المشترك بين صدقي وبيفن في سنة 1949؟

ألم يرفض الشعب المصري منظمة دفاع الشرق الأوسط، الذي قدَّمته أمريكا وإنجلترا وفرنسا وتركيا في 1951؟

ألم تتقدم بريطانيا في أغسطس سنة 1952، بمشروع أسْمَته تعاون القوات العسكرية في الشرق، وكان أن أخفق هذا المشروع؟

ألم تتقدم الولايات المتحدة في صيف 1953، بمشروع قيادة موحَّدة، وطار مستر دالاس (وزير خارجية أمريكا) ليقنع الحكومات العربية وحكومات الشرق الأوسط بهذا المشروع، وكان نصيبه الآخر هو الإخفاق؟

لقد كان عبد الناصر معبِّراً إذاً عن كفاح الشعب المصري العريق، حين رفض حلف بغداد.

ولو قَبِلت مصر الانضمام لحلف بغداد، لكان ذلك معناه:

فرض صُلح مع إسرائيل، يكون في مصلحة إسرائيل وليس في مصلحة الشعوب العربية.

أن يخرج الإنجليز من القِتال، ليعود الإنجليز مرة أخرى، ومعهم الأمريكان والفرنسيون والاستراليون والأتراك، لا، لاحتلال منطقة القنال وحدها وإنما لاحتلال مصر كلها باسم الحلف المشترك والدفاع ضد خطر موهوم خطر الغزو الشيوعي!

أن تتحـوَّل ميزانيـة مـصر، كـما تحوَّلـت ميزانيـة تركيـا، وكـما تتحـوَّل ميزانيـة العـراق اليـوم، إلى ميزانيـة حـرب ، يُنفـق منهـا أكـثر مـن 60% للـشراء مـن المعسـكر الاسـتعماري، ولتجنيـد جيـش مـصري خاضـع للاسـتعمار.

أن تُهـدم كل سياسـة لتصنيـع البـلاد، وأن تُفلـس كثـيرٌ مـن الصناعـات الناشـئة، وأن تنتهـي إلى الإفـلاس الـذي انتهـت إليـه تركيـا.

أن يُهـدر كل اسـتقلال سـياسي لبلادنـا فتُـدار سياسـتنا الخارجيـة مـن واشـنطن ولنـدن وغيرهـا مـن عواصـم المعسـكر الغـربي، لا مـن القاهـرة.

أن يُفـرض حكـم إرهـابي بشـع في مـصر، كـما هـو الشـأن في تركيـا والعـراق لكَبْـت كلِّ تحـرُّك وطنـي.

أن تُقوَّض ثقافتنا الوطنية، فتصبح ثقافة استعمارية.

لقـد كانـت هـذه الأحْـلاف كـما صوَّرهـا عبـد النـاصر: أحـلاف الذئـب والحَمَـل، ولابُـد أنْ يـأكل الذئـبُ الحَمَـل.

فلـم تكـن معارضـة حلـف بغـداد ومقاومتـه في إصرار، مجـرَّد مسـاهمة مـن مـصر في قضيـة السـلام العالمـي فحسـب، وإنمـا كانـت دفاعـاً عـن اسـتقلالها السـياسي وكِيانهـا الاقتصـادي ضـدَّ الاسـتعمار الـذي اتخـذ ثوبـاً جديـداً لمضمـون قديـم، ثـوب الأحـلاف بـل كان دفاعـاً عـن الكيـان العـربي كلـه واسـتقلاله السـياسي والاقتصـادي.

وقـد جـاء العـدوان الاسـتعماري عـلى مـصر، مُثبتـاً صحـةَ نظـر الشـعب المـصري، وحكومـة عبـد النـاصر بالنسـبة لطبيعـة هـذا الحِلـف.

فقـد قـرر السـيد صـبري مديـر مكتـب الرئيـس جـمال عبـد النـاصر: أن حِلـف بغـداد قـد ارتبـط بالعـدوان الـذي وقـع عـلى مـصر.. فقـد كانـت تركيـا تقـوم بالدعايـة ضـدَّ مـصر، كـما اسـتخدمت القواعـد التركيـة لاخفـاء بعـض سـفن الغـزو بينـما كانـت مـصر تركـز رقابتهـا عـلى قـبرص..

كـما اسـتخدمت إحـدى القواعـد الجويـة في العـراق لإمـداد الطائـرات المعتديـة بالوقـود ونقـل الجرحَـى، كـما اسـتخدم الأعـداء المستشـفيات العراقيـة.

لهـذا كان موقـف مـصر وحكومـة مـصر سـليماً في رفضهـا القاطـع لأي حلـفٍ اسـتعماري.

ولم تكتف مصر بالرفض، وإنما شنَّت حملة سياسية من الدرجة الأولى على حلف بغداد. وأصبح للحكومة المصرية الوطنية استراتيجية سياسية حاذقة منذ أن تكوَّن حلف بغداد،محورها كما يقول الدكتور محمد أنيس:

أولاً: عزل العراق عن الدول العربية، حتى يتأتى له من ظروفه الداخلية ما يمكنه من رفض حلف بغداد والعودة إلى شقيقاته العربية الأخرى.

ثانياً: مقاومة كل المحاولات من جانب الدول العربية، للضغط على الدول العربية لدخول حلف بغداد. ولجأت مصر لتحقيق الشِّطر الأول من استراتيجيتها إلى سياسة المُحالفات الثنائية التي أدَّت إلى تكوين محور دمشق-عمان-الرياض-القاهرة.

وكان الضغط الاستعماري المُنبعث من حلف بغداد أقوى ما يكون في لبنان والأردن. ولبنان بلد عربي أصيل. ولكنه يُعاني من تيارات انعزالية قوية تهدف إلى عُزلته عن الشعوب العربية، والتمويه بأنَّ للبنان من الوجهة الجغرافية والثقافية ومن ظروفه الخاصة، ما يُملي عليه موقفاً مُختلفاً عن بقية الدول العربية. ويروِّج لهذه التيارات الرجعية والإقطاع في لبنان. ورغم ذلك فالقاعدة الشعبية اللبنانية لا تزال سليمة.

أمَّا الأردن: فهو مكان عام للمؤامرات الاستعمارية؛ لأهميته الاستراتيجية في المحلِّ الأول، ولأنه يربط جغرافيًّا بين سوريا ومصر، مركزي المقاومة العربية في الشرق الأوسط ضدَّ الاستعمار، ولأنه مرتبط بمُعاهدة غير متكافئة مع بريطانيا منذ 1948، تقوم على أن يكون لبريطانيا قواعد عسكرية داخل الأردن في نظير مساعدة مالية سنوية تقدِّمها للحكومة الأردنية، وقيادة الجيش الأردني كانت إلى عهد قريب في يد بريطانية، والأسرة الحاكمة في الأردن مربوطة بأواصر القرابة الوثيقة بالأسرة الحاكمة في العراق. ولكن وقفة الأردن أمام مؤامرات حِلف بغداد، إنْ دلَّت على شيئ، فعلى أن الشعوب في ظروف القرن العشرين تستطيع مهما ضعفت إمكانياتها، أن تُفسِد على الاستعمار مؤامراته وأن تسير في طريق التَّحرُّر. فالشعب الأردني الذي ذاق مرارة تآمُر الاستعمار والصهيونية على فلسطين وتآمر الاستعمار مع الرجعية الأردنية على الشعب الأردني نفسه، وقف وقفته المجيدة لمشروع تمبلر، الذي كان يهدف إلى ربط الأردن بحلف بغداد، وأطاح بوزارة هزَّاع المجالي، الذي حاول أن يقوم في الأردن بدور مُشابه لدور نوري السعيد في العراق.

وسـار الشـعب الأردني قُدُمـاً في المعركـة، فطـرد جلـوب (الإنجليـزي الـذي كان مسيطراً عـلى الجيـش الأردني) وطهَّـر الجيـش الأردني مـن جواسـيس الإنجليـز، ووثَّـق بالمرصـاد لـكل المحـاولات لتعطيـل الانتخابـات الأردنيـة، حتـى خرجـت هـذه معـبِّرة عــن إرادة شـعب الأردن.

ومعركـة الانتخابـات الأردنيـة، قـد حـدَّدت بشـكل قاطـع الطريـق الـذي سيسـير فيه شـعب الأردن، وهـو الوقـوف بجانـب الشـعوب العربيـة المتحـرِّرة ضـدَّ حلـف بغداد.

ولا شـك أن مقاومـة مـصر لحلـف بغـداد، وقيادتهـا هـذه المعارضـة كان لـه أثره في تحـركات شـعب الأردن، وهكـذا نجحـت مـصر بقيـادة عبـد النـاصر في طعـن المشـاريع الاسـتعمارية في الـشرق الأوسـط طعنـة قويـة، ونجحـت مـع الـدول العربيـة الصديقـة في تجميـد حلـف بغـداد، كخطـوة لتصفيتـه تمامـاً.

أعجيـبٌ بعـد هـذا أن يشـتدَّ حَنَـقُ الاسـتعمار عـلى مـصر، وعـلى حكومـة مـصر وعـلى شـخص جـمال عبـد النـاصر؟

-4-

جبهة عربية

وجـزء آخـر لايتجـزأ مــن السياسـة المصريـة اليـوم، سياسـة السـلام والاسـتقلال الوطنـي، هـو سياسـة الجبهـة العربيـة.

إن الروابـط التـي تربـط مـصر بالـدول العربيـة، هـي روابـط قديمـة حقًّا، ترجـع إلى مـا قبـل الفراعنـة، ثـمَّ تمتـد إلى أيـام الحكـم الـتركي والاسـتعمار الغـربي.

ولم يكــن هنــاك حركــة كفــاح شــعبي واحــد في مــصر إلا وكان لهــا صداهــا في الســودان وســوريا وفلســطين ولبنــان والعــراق..

ثمَّ كانت الجامعة العربية والكفاح المشترك ضدَّ الصهيونية سنة1948.

ولكــن جــمال عبــد النــاصر حــدَّد في ضــوح الأســس التــي يقــوم عليهــا الكفــاح العــربي المُشــترك.

فقـد جـاء في كتابـه فلسـفة الثـورة: إن المنطقـة واحـدة وأحوالهـا واحدة ومشـاكلها واحـدة، ومسـتقبلها واحـد والعـدو واحـد مهـما حـاول أن يضـع عـلى وجهـه مـن أقنعـة

مختلفـة، فلـماذا تتشـتت جهودنـا؟ وأعـترف أني كذلـك أرى العقبـات الكُـبرى التي تسـدُّ الطريـق إلى الكفـاح الواحـد، ولكنـي بـدأت أُومِـن أن هـذه العقبـات نفسَـها ينبغـي أن تـزول؛ لأنهـا مـن صنـع ذلـك العـدوِّ الواحـد نفسـه.. فنحـن مجموعـة مـن الشـعوب المتجـاورة المترابطـة بـكل ربـاط مـادي معنـوي... وأرضنـا لهـا الموقـع الاسـتراتيجي الهـام والمنطقـة أهـم مـورِّد عالمـي للبـترول.. والبـترول يعتـبر عَصَـبَ الحضـارة .. فإنتـاج البـترول في الـشرق الأوسـط عـام 1955 بلـغ 20.6% مـن مجمـوع الإنتـاج العالمـي، كـما أن احتياطـي البـترول في الـشرق الأوسـط يبلـغ ثلثـي الاحتياطـي المعـروف مـن البـترول في العـالم الرأسـمالي.

وقـد نجـح عبـد النـاصر في وضـع برنامجـه العـربي موضـع التنفيـذ، فقـد أزال كثـيراً مـن الشـكوك، كـما حطَّـم كثـيراً مـن العقبـات التـي كانـت تحـول دون تنسـيق وترابـط الكفـاح العـربي المشـترك.. ونجـح في إقامـة أحـلاف ثُنائيـة عربيـة خالصـة.

وتجـلّى هـذا الكفـاح المشـترك في الإجـماع عـلى معارضـة حلـف بغـداد - وذلـك باسـتثناء العـراق - كـما تجـلَّى بشـكل أروع في منـاصرة مـصر لـدى تأميمهـا لشركـة القنـال.. حتـى دولـة العـراق نفسـها، الداخلـة في حلـف بغـداد قـد اضطـرت إلى تأييـد مـصر ولـو ظاهريًـا.. كـما تجـلَّى في الإضراب الجماعـي يـوم 28 اكتوبـر احتجاجـاً عـلى الغـدر الفرنـسي بزعـماء الجزائـر ... كـما تجـلَّى أخـيراً وبشـكل بـارز في المعركـة المسـلَّحة ضـدَّ العـدوان الاسـتعماري عـلى أرضنـا.

وكانــت سياســة الجبهــة العربيــة ضربــةً حاســمة لكافــة المشــاريع العدوانيــة والمشــاريع الاســتعمارية في الــشرق الأوســط.

-5-

باندونج

ثـم جـاء مؤتمـر باندونـج، فـكان اشـتراك مـصر في هـذا المؤتمـر والـدور الإيجـابي الـذي قـام بـه عبـد النـاصر، تأكيداً لسياسـة مـصر الخارجية، سياسـة السـلام والاسـتقلال الوطني.

لقـد حـدَّد عبـد النـاصر في دقـة الأسـس التـي قـام عليهـا هـذا المؤتمـر يسـترعي النظـر بـين الظـروف القائمـة في بـلاد القارتـين، هـو تشـابه مـن شـأنه أن يوحِّـد بينهـما

فقد تخلصنا من عهد طال أمده، كنا فيه تحت تأثير نفوذ أجنبي في شؤوننا الاقتصادية والسياسية، وتواجهنا اليوم مشاكل النهوض الاقتصادي والتطوُّر الاجتماعي والسياسي.. فليس من العجيب أن تقرب هذه الأمور بعضنا من بعض، فنشعر بشعور واحد، هو ما يبدو جليًّا في وجهات نظرنا نحو السِّلم العالمي والعدالة الدولية.

كما حدَّد عبد الناصر سياسة مصر الخارجية في نفس الخطاب في صراحة وبساطة: وقوفها موقف المُدافع عن الحرية ورفاهية الشعوب وتأييد مبدأ تقرير المصير لكافة الشعوب، ومبدأ أن لكل دولة الحقَّ في أن تختار ما تراه صالحاً من النُّظُم السياسية والاقتصادية.

إيماننا الراسخ وتأييدنا الدائم لهيئة الأمم المتحدة كمنظمة عالمية فعَّالة، تعمل على صيانة الأمن والسلام العالمي، وتوفير الرفاهية لشعوب العالم.

توسيع نطاق التعاون بين دول الكتلة الأسيوية والإفريقية،

تصفية الاستعمار الذي طالما كان سبباً في الاحتكاك بين الدول.

إن التعاون بين الشعوب الأسيوية والإفريقية ليس عاملاً على تخفيف حدَّة التوتر الدولي القائم فحسب، بل هو مُعاوِنٌ لتلك الدول على تحقيق مستوى معيشة أرفع.

يجب أن يوقف فوراً ألاعيب الضغط السياسي التي بها تعمل الدول الكبيرة على استخدام الدول الصغيرة كأداة لتحقيق أغراض الأولى، فيجب على كل دولة أن تحترم الاستقلال السياسي لكل دولة أخرى وألا تتدخل في شؤونها.

إنها سياسة سلام واستقلال وطني.. ولم تكن مجرَّد خُطَبٍ تُلقى أو كلام للاستهلاك المحلي أو الاستهلاك الخارجي - وإنما كانت السياسة التي اتبعتها مصر حقًّا منذ باندونج، فلم تقم حركة تحريرية إلا وساندتها مصر: ثورة الأردن، ثورة الجزائر، ثورة قبرص.

ثمَّ جاء التوسع التجاري وعلاقات الودِّ والثقافة مع المعسكر الاشتراكي ثمَّ مع الدول الآسيوية.

ثمَّ توِّج هذا كله بالاعتراف بالصين الشعبية. وقد جاء هذا الاعتراف دليلاً على سياسة مصر الاستقالالية من جهة، وتدعيمها للسلام العالمي من جهة أخرى،

واعترافاً بواقع فعلي، واقع التبادل التجاري الذي تمَّ في عامي 1955، 1956 من جهة ثالثة.

كما توثقت عُرى الصداقة بين مصر والهند ويوغوسلافيا.. وتمخَّضت عن مؤتمر بريوني.. ولم يكن مؤتمر بريوني مجرد تطبيق لمبادىء باندونج وتأكيد لها .. وإنما جاء تطويراً لها .. حين أكد رؤساء الدول الثلاثة:

إن البحث عن السلام لا يتأتى عن طريق الانقسامات، وإنما يكون بالسعي نحو الأمن الجماعي على أساس عالمي.. وأنَّ التقدم المُطَّرد في نزع السلاح يُعدُّ شرطاً جوهريًّا لتقليل مخاوف المنازعات. وحين نادوا بضرورة وقف التفجير لأسلحة الدمار الشامل، ولو كان ذلك لأغراض تجريبية نظراً لما تنطوي عليه من خطر يهدد الإنسان.

إن إنماء المناطق المختلفة في العالم ليُعد إحدى المهام الأساسية في تحقيق السلام الدائم والاستقرار بين الأمم، وحين أكدوا الأهمية البالغة لإزالة العقبات وقيود الحظر التي تعترض السير الطبيعي للتجارة الدولية.. وحين أيدوا حل مشكلة ألمانيا بما يتفق ورغبات الشعب الألماني بواسطة تسويات سلمية عن طريق المفاوضات، وضرورة قبول الصين الشعبية عضواً في هيئة الأمم، وضرورة وقف إطلاق النار في الجزائر والمفاوضات بين الأطراف التي يعنيها الأمر من أجل تسوية سِلْمية.

وهكذا أصبحت سياسة مصر، سياسة الاستقلال الوطني والسلام العالمي، وكان لهذ أثره في رفع مكانة مصر السياسة في الحقل الدولي، فلم يعد مُمكِنا حلُّ أية مشكلة من مشاكل الشرق الأدنى، والبلاد العربية دون اعتبار رأي مصر، بل تعد هناك في أي مسألة دولية إلا ولمصر كلمتها المحترمة فيها.

ولم يكن عجيباً أن تثير هذه السياسة سخط الاستعمار على مصر وعلى جمال عبد الناصر قائد نهضتها الوطنية.

-6-

صفقة الأسلحة السوفيتية التشيكية

ثمَّ جاءت صفقة الأسلحة التشيكية ضربة جديدة للقيود التي تربطنا بعجلة الاستعمار، وكان لعقد هذه الصفقة مغزى عميق:

فقد جاءت دليلاً عمليًّا على صدق السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي فهي لا تتأخر عن عقد صفقة خطيرة كهذه دون أي قيود سياسية أو عسكرية أو اقتصادية، ودون أدنى تدخل في شؤون مصر، وبأثمانٍ معقولة جدًّا لا تُرهق اقتصادَنا القومي.

كما جاءت تأكيداً لأنَّ مصر مُعتزمة أن تتمسك باستقلالها، وأن تحرر تجارتها ومعاملتها الخارجية من أي قيد يضرُّ بمصلحتها هي ومصلحة شعبها.

وكان في هذه الصفقة تدعيم لاستقلال مصر، فلم يصبح من السهل أن يدفع الاستعمار بربيبته إسرائيل إلى الهجوم العدواني على مصر، كلما أراد أن يضغط على بلادنا... بل لم يصبح من السهل أن تشن القوى الاستعمارية ذاتها هجوماً عدوانيًّا مباشراً على مصر. إن غزو مصر لم يصبح سهلاً، كما أنه سيصطدم بشعب مُصمِّم على الدفاع عن حريته واستقلاله.

ومن ثم كانت عملية لطم الخدود والعويل الذي قام به المعسكر الاستعماري إثر صفقة الأسلحة. لقد أدرك مدى خطورة هذه الصفقة: لقد كانت بمثابة إنذار أن مصر قد أفلتت من قبضته... وإلى الأبد....

ومن ثم كان تصميم الاستعمار الأنجلو فرنسي على القضاء على القوات المسلحة المصرية المزودة بهذه الأسلحة حتى ولو أدى ذلك إلى مغامرة جنونية فاشلة.

-7-

تأميم شركة قناة السويس

لم يسـترح الاسـتعمار لسياسـة مـصر الحياديـة الإيجابيـة، سياسـة الاسـتقلال الوطني والحـرص عـلى هـذا الاسـتقلال.. سياسـة السـلام... كـما لم يرتـح لسياسـتها في الجبهـة العربيـة.

كـما لم يرتـح الاسـتعمار لـدور مـصر في باندونـج وبريـوني، وتأييدهـا للحـركات التحريريـة في مراكـش وتونـس والجزائـر والأردن وقـبرص.. ولم يرتـح لصفقـة الأسـلحة التشـكية، وإصرار مـصر عـلى رفـض أي شروط تقيـد اسـتقلالها السـياسي أو الاقتصـادي نظـير أسـلحة أو معونـات اقتصاديـة أو نظـير تمويـل السـد العـالي.

ومـن ثـم أصبـح حتـماً أن يرفـض تمويـل السـد العـالي، وأعلنـت أمريكا هـذا الرفض في مذاكـرة حاولـت أن تشـكك فيهـا في سـلامة الاقتصـاد المـصري وسرعـان مـا تبعتهـا إنجلـترا ثـمَّ البنـك الـدولي المزعـوم.

وجـاء رد عبـد النـاصر سريعـاً حاسـماً: تأميـم شركـة القنـاة.. لقـد كان تأميـم شركـة القنـاة ضربـة كُـبرى للرأسـمالي الاحتـكاري الأجنبـي، إذ حرمـه مـن أربـاح صافيـة لا تقـل عـن 16 مليونـاً مـن الجنيهـات، كل عـام.

ولم يكـن تأميـم شركـة القنـاة مجـرَّد ضربـة لشركـة احتكاريـة أجنبيـة فحسـب، وإنمـا كان تقويضـاً لقلعـة اسـتعمارية. ومركـزٍ اسـتراتيجي هـامٍّ للاسـتعمار العالمـي، يسـتخدمه وقـت الحـرب... ويسـتخدمه وقـتَ السِّـلم... ففـي وقـت الحـرب كانـت السـيطرة عـلى القنـاة سـلاحاً في يـد الإنجليـز وحلفائهـم ضـدَّ أعدائهـم. وفي وقـت السِّـلم كانـت الأمـوال التـي تبتـز مـن القنـاة تسـتخدم في ضرب الحـركات التحريريـة بـل كان لشركـة القنـاة جواسـيس وعيـون تـضرب الحركـة الوطنيـة المصريـة، وقـد تجـلّى هـذا واضحـاً أيـام المعركـة المسـلَّحة في القنـاة أواخـر 1951... بـل كانـت شركـة قنـاة السـويس مصـدر رِشـوة لحُـكام مـصر السـابقين، حتـى يمضـوا في خيانتهـم للقضيـة الوطنيـة واستسـلام مـصر للمُسـتعمر...

فتأميـم شركـة القنـاة نـصر مـن الدرجـة الأولى لمـصر في معركتهـا ضـدَّ الاسـتعمار، وتدعيـم لاسـتقلالنا الوطنـي، واسـترداد لأرضنـا وكرامتنـا وعزتنـا القوميـة، وتدعيـم لاسـتقلالنا الاقتصـادي.

كـما أن تأميـم شركـة القنـاة كان أعنـف ضربـة أُنزِلـت بسياسـة حلـف بغـداد، والقضـاء عـلى الخطـط الاسـتعمارية للسـيطرة عـلى الـشرق الأوسـط، إذ أن إفـلات قنـاة السـويس مـن القبضـة الاسـتعمارية، تشـجيع قـوي لكافـة الشـعوب عـلى التخلـص مـن القبضـة الاحتكاريـة عـلى البـترول العـربي، أي زوال السـيطرة الاسـتعمارية عـلى الـشرق الأوسـط التـي جعلتهـا إنجلـترا محـور سياسـتها بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة، كـما أن تأميـم شركـة القنـاة كان جـزءً مـن معركـة السـلام العالمـي، فالقنـاة في يـد شركـة استعمارية، إنمـا هـي أداة للحـرب لا للسـلام، والقنـاة في يـد مـصر المسـتقلة، إنمـا تسـير لصالـح شـعبها، ولصالـح الشـعوب جميعـاً، ولصالـح السـلام العالمـي.

لقـد كان تأميـم القنـاة تتويجـاً مـن مـصر لسياسـة الاسـتقلال الوطنـي وسياسـة الجبهـة العربيـة، تـؤذن بالانهيـار التـام لحلـف بغـداد، لا مجـرَّد تجميـده، وبالتقلـص النهـائي للنفـوذ الاسـتعماري السـياسي والاقتصـادي في الشرقـين الأدنى والأوسـط في منطقـة الـشرق الأوسـط.

لهـذا لم يكتـف الاسـتعمار هـذه المـرة بالعويـل، إنمـا أخـذ يعـدُّ العُـدة فـوراً لغـزو مصر !

الفصل الحادي عشر
العدوان الاستعماري
-1-
خطة الاستعمار

كانـت نيـة الاسـتعمار مبيتـة للعـدوان عـلى مـصر، فقـد بـدأت الاسـتعدادات العسـكرية فـور تأميـم مـصر للقنـال، مـن جانـب بريطانيـا وفرنسـا. لقـد صرحـت الديـلي ميـل في 30 يوليـو أن ممثـلي الغـرب يتناقشـون في الخطـط العسـكرية لمواجهـة الموقـف.. بـل بـدأ التفكـير مبكـراً في اسـتخدام إسرائيـل، إذ جـاءت التقاريـر في صحـف أغسـطس أن الـدول الغربيـة كانـت تبعـث بأسـلحة جديـدة لإسرائيـل، وأن هـذه كانـت تـسرع فى إنتـاج الأسـلحة، وقـد قالـت الديـلي سـكتش التـي تصـدر في لنـدن بتاريـخ 12 سـبتمبر: لـو ضمنـا سـلامة إسرائيـل، وبذلنـا لهـا وسـائل الدفـاع عـن نفسـها، فـإن هـذه الخطـوة كافيـة لوضـع جـمال عبـد النـاصر ومَـن يتبعونـه في مكانهـم ولفـترة طويلـة جـدًّا!

بـل حـددت النـشرة البريطانيـة الخارجيـة في 13 سـبتمبر نقطـة بـدء العـدوان في شـبه جزيـرة سـيناء، أي نفـس النقطـة التـي بـدأ فيهـا الهجـوم الإسرائيـلي بالفعـل في 29 أكتوبـر.

كـما أكـدت جريـدة ليمونـد الفرنسـية أن وحـدات بحريـة فرنسـية، قـد تحركـت إلى جبهـة غـير معلومـة، منهـا البارجـة الحربيـة جـان بـارت.

كـما تجمَّعـت قـوات بحريـة كبـيرة وأرضيـة وجويـة في البحـر الأبيـض بالقـرب مـن قـبرص ومالطـا، وحوَّلـت جـزءاً مـن القـوات الفرنسـية في الجزائـر إلى قـبرص. وفي نهايـة سـبتمبر تجمَّـع جيـش بأكملـه في الجـزء الشرقـي مـن البحـر الأبيـض، مـزوداً بكافـة المراكـب الحربيـة لـكل مـن إنجلـترا وفرنسـا، وقـد بلـغ عـدد القـوات المشـتركة الأنجلـو- فرنسـية، المواجَّهـة ضـدَّ مـصر مـا بـين 150-100 ألـف. وكان الاحتياطـي لهـذا الجيـش قرابـة نصـف مليـون رجـل مـن الاحتياطـي.

جيش بأكمله يزْعُم الاستعماريون أنها مجرد قوة بوليسية!

وقـد ثبـت أن القـوات التـي استولت عـلى رفـح، إنمـا هـي قـوات بريطانيـة تؤيدها الدبابـات البريطانيـة، وأن هـذه القـوات قـد نزلـت في إسرائيـل، قبـل أن تعلـن هـذه التعبئـة العامـة هنـاك بزمـن طويـل، وقـد قامـت هـذه القـوات بعمليـات حربيـة في شـبه جزيـرة سـيناء.

وقـال متحـدث بلسـان وزارة الخارجيـة السـورية في 20 نوفمـبر، أنـه ثبـت أن القـوات البريطانيـة الفرنسـية، اشـتركت اشـتراكاً فعليًـا في العمليـات الحربيـة، التـي قامـت بهـا القـوات الإسرائيليـة في سـيناء ورفـح وغـزة، وأن هـذا الاشـتراك قـد شَـمِل العمليـات الحربيـة .

بـل اعترفـت الـوزارة الفرنسـية بـأن بعـض المدربـين عـلى اسـتخدام الطائـرات النفاثـة، كانـوا في إسرائيـل أثنـاء الحملـة التـي شـنتها ضـدَّ مـصر.

بـل إنـه إثـر النقـاش الـذي دار في مجلـس الأمـن، بخصـوص التسـوية السـلمية لمشـكلة القنـال، سـمع البعـض بينـو وزيـر خارجيـة فرنسـا يقـول: إن اللعبـة لم تنتـه بعـد!

وقـد كشـفت مجلـة تاليـم الأمريكيـة أمـر الاتفـاق السـري بـين فرنسـا وبريطانيـا وإسرائيـل، وأمـر شـحن فرنسـا سرًا لاثنتـي عـشرة مـن طائـرات مسـتير لإسرائيـل،

وإطلاع إسرائيل لفرنسا على خططها، وذهاب بينو إلى إنجلترا في 13 أكتوبر ليبلغ إيدن أن إسرائيل مستعدة لشن الحرب على مصر، وتمخضت الاجتماعات بين الحكومتين الإنجليزية والفرنسية، عن إنشاء قيادة لعملية حربية مشتركة، أطلق عليها اسم اميكار.

وكانت خطة العدوان مُبيَّتة كالآتي:

1. أن تأخذ إنجلترا وفرنسا في عقد مؤتمرات دولية (كمؤتمر لندن الأول والثاني إلخ) لإثارة الرأي العام العالمي ضدَّ مصر، ولحشد أكبر ما تستطيع أن تحشده من دول ضدَّ مصر.
2. هذا في الوقت الذي تكون قد تمت فيه التعبئة العسكرية اللازمة لغزو مصر، من قوات برية وجنود مظلات ومراكب حربية وطائرات.
3. أنه إذا لم تخضع مصر لهذه التهديدات، فتقبل تدويل القناة، أي السيطرة الاستعمارية الجماعية على هذا الشريان الحيوي، رفعت إنجلترا وفرنسا الأمر إلى مجلس الأمن لعلها تكسب مكسباً سياسيًّا هنالك، ولعلها في نفس الوقت تُوهِم مصر، بأنها قد نبذت سياسة القوة، فتُفاجَأ مصر بالعدوان، فيصيبها الانهيار.
4. أن يقوم المعسكر الاستعماري بحصار اقتصادي على مصر، بدأ بتجميد الأرصدة، ومقاطعة مصر اقتصاديًّا، لعل هذا يساعد على انهيار الاقتصاد المصري، فتعجز عن مقاومة العدوان الاستعماري.
5. وكانت الخطة العسكرية قائمة على أن تهاجم إسرائيل، صحراء سيناء، بقوات يعززها السلاح الإنجلو فرنسي، وقوات إنجلو فرنسية مدرَّبة، كخدعة عسكرية، حتى تظن مصر أن الأمر قاصر على مجرَّد مغامرة إسرائيلية حمقاء.
6. ومن لندن جاء على لسان متحدث رسمي لوزارة الخارجية البريطانية، أن الحكومة البريطانية لا تنوي استغلال القتال، الذي نشب فجأة في سيناء لصالحها على الفور، حتى تطمئن الحكومة المصرية، فتوجه قواتها الأساسية الضاربة إلى صحراء سيناء لمواجهة الغزو الإسرائيلي.
7. أن تواجه مصر بإنذار إنجلو فرنسي، إثر تورُّط القوات في سيناء، بوقف القتال، والانسحاب إلى عشرة كيلو من القنال.

فإمَّـا أن تقبـل مـصر هـذا الإنـذار، فتتيـح بذلـك احتـلالاً إنجلـو فرنسـيًّا للقنـال، دون طلقـة واحـدة، وإمَّـا ترفضـه.

وقـد أعلـن إيـدن في مجلـس العمـوم أن قـوات رمزيـة فرنسـية بريطانيـة سـتدخل منطقـة القنـال، حتـى إذا قبلـت مـصر وإسرائيـل الإنـذار البريطـاني الفرنـسي بوقـف القتـال!

8. فـإذا مـا رفضـت مـصر الإنـذار، حُـوصرت القـوات المصريـة في شـبه جزيـرة سـيناء، بـين ناريـن، نـار الهجـوم الإسرائيـلي، ونـار القـوات الأنجلـو فرنسـية التـي كان مقـدَّراً لهـا أن تهبـط في سـهولة في منطقـة القنـال وتحتـل بـور سـعيد والإسـماعيلية والسـويس، وتسـارع إلى الاسـتيلاء عـلى القاعـدة البريطانيـة الموجـودة في التـل الكبـير، بموجـب اتفاقيـة أكتوبـر 1954 والتـي كانـت ممتلئـة بصنـوف المعـدات العسـكرية الصالحـة للاسـتعمار فـوراً.

9. أن تشـن القـوات المعتديـة، غـارات مركَّـزة عـلى المطـارات المصريـة، بهـدف القضـاء عـلى سـلاح الطـيران المـصري.

10. أنـه بمقـدار مـا يتـم نجـاح هـذه الخطـوة، تقـوم في كل مـن سـوريا والأردن، انقلابـات بواسـطة عصابـات مسـلحة في داخـل هـذه البـلاد، مـزودة بهـا هـذه القـوات، كـما جـاء في بيـان الحكومـة الأردنيـة، مـن تصميـم ألمـاني مـن النـوع الذي يصنـع في القسـم المحـلي مـن فلسـطين ،والـذي تتجهـز بـه العصابـات الصهيونيـة!

وهـذا بهـدف قلـب نظـام الحُكـم في تلـك البـلاد، وتنصيـب حكومـات مواليـة للمعسـكر الغـربي، خادمـة لـه.

11. أن يتـم انقـلاب في مـصر في نفـس الوقـت ضدَّ الرئيـس عبـد النـاصر، وتقـوم وزارة خاضعـة للاسـتعمار، تعقِـد صلحـاً مـع الـدول المعتديـة، وتفسـد بذلـك أي تدخـل مـن جانـب هيئـة الأمـم المتحـدة، أو أيـة دولـة راغبـة في مسـاعدة مـصر.

12. وأن يتـم هـذا كلـه في سرعـة لاهثـة، في ظـرف أسـبوع عـلى الأكـثر، والاتحـاد السـوفيتي قـد شـغلته المؤمـرات الاسـتعمارية والرجعيـة في المجـر، وأمريـكا مشـغولة بأمـر الانتخابـات لرئاسـة الجمهوريـة، فيواجـه العـالم بالأمـر الواقـع ويستسـلم لـه خاضعـاً.

هذه هي خطة العدوان الاستعمارية.

ولم يكـن الهـدف مـن هـذه المغامـرة الاسـتعمارية الحمقـاء، مجـرد إيجـاد حـل لمشـكلة القنـال، ولكـن كان الهـدف - كـما يقـول الرئيـس عبـد النـاصر- هـو تدمـير مـصر تدمـيراً كامـلاً شـاملاً.

وكـما قالـت حكومـة أذربيجـان: إنَّ العـدوان المسـلَّح عـلى مـصر الـذي شـنته بريطانيـا وفرنسـا وإسرائيـل، وإنمـا هـو موجَّـه ضـدَّ الشـعوب العربيـة كافـة، وضـدَّ كافـة شـعوب الـشرق التـي تكافـح ضـدَّ السياسـة الاسـتعمارية، مـن أجـل سـيادتها واسـتقلالها الوطنـي.

كان الهـدف هـو أن تتخـلى مـصر تمامـاً عـن سياسـتها السـلامية الاسـتقلالية، وأن تجثـوا راكعـة عنـد أقـدام المسـتعمر! وأن تسـقط وأن تسـقط معهـا سـوريا والأردن" ويحقـق حلـم الأمبراطوريـة العجـوز، حلـم تكويـن مسـتعمرة كُـبرى تمتـد مـن أعـالي النيـل إلى شـواطئ بحـر قزويـن.

وكان الهـدف أن يُقْـضى عـلى الحركـة التحريريـة المسلَّحة في الجزائـر، نتيجـة لفـتِّ عضدِهـا بعـد سـقوط مـصر، قائـدة الكفـاح العـربي التحريـري.

وكان الهـدف ألا تقـوم، لعـشرات السـنين، حـركات تحريريـة في بقيـة أفريقيـا التـي تغـلي وتوشـك عـلى الانفجـار.

وأن تتحـول هـذه المنطقـة بأسرهـا إلى مسـتعمرة بتروليـة، تُـدِرُّ أرباحـاً فاحشـة عـلى الـشركات الاحتكاريـة الأنجلـو فرنسـية، وأن تصبـح سـوقاً للسـلع البريطانيـة الفرنسـية التـي تبـاع بأسـعار احتكاريـة عاليـة، وألا تقـوم هنـاك نهضـة صناعيـة في الـشرق العـربي، مـن شـأنها تطويـر اقتصـاد هـذه البـلاد تطويـراً مسـتقلًا، يغنيهـا عـن الاعتـماد عـلى المسـتعمر... وأن تسـتمر مـصر وبقيـة الـشرق العـربي، والـشرق الأوسـط وشـمال إفريقيـا مـوردًاً للخامـات والمنتجـات الزراعيـة الرخيصـة.

وأن تسـتخدم مـوارد الشرقـين الأدنى والأوسـط مـن ثـروات ورجـال وقـوداً لحـرب عالميـة يشـنُّها الاسـتعمار ضـدَّ المعسـكر الاشـتراكي.

فـإذا مـا اسـتطاعت بريطانيـا وفرنسـا أن تحقِّقـا كل هـذا، اتخذتـا مـن منطقـة الـشرق الأوسـط، نقطـة وثـوب لإعـادة سـيطرتهما عـلى الهنـد وبورمـا وإندونيسـيا، وفي المسـتقبل القريـب أو البعيـد.

وأخيراً وليس آخراً، أن يحُول هذا الأمر دون الانهيار السريع للاستعمار عامة؛ وللاستعمار الأنجلو فرنسي خاصة.

وأن تسترضي إسرائيل، صنيعة الاستعمار، مقابل قيامها بدور مخلب القط، بشبه جزيرة سيناء، والضفة الغربية من شرق الأردن، وأن تفتح أبواب الشرق لصناعتها البائرة.

هذه كانت أهداف الاستعمار من عدوانه على مصر.

-2-

المقاومة المصرية الرائعة

ولكن الشيئ الوحيد الذي لم يتوقعه الاستعمار والصهونية هو المقاومة الباسلة لمصر، شعباً وجيشاً وحكومة.

*المقاومة العسكرية:

فقد تفوق السلاح المصري من طائرات الميج 17 على السلاح الإسرائيلي من طراز المستير الفرنسية تفوقاً باهراً، وسببت له خسائر فادحة.

كما قاومت قواتنا المسلحة ببطولة نادرة في أبو عجيلة و رفح و"شرم الشيخ. كما قام سلاح البحرية المصرية بأعمال انتحارية رائعة.

وأدرك الرئيس عبد الناصر الفخ الذي نصبه الاستعمار لقوات مصر المسلحة، باستدراجه لصحراء سيناء، فصدر الأمر في مساء 31 أكتوبر بضرورة الانسحاب السريع من سيناء، وتوحيد النشاط العسكري كله غرب القناة.

وكان انسحاب الجيش، مهما تكبَّد من خسائر، أمراً ضروريًّا، إذ كان فيه إحباط لخطة العدو، خطة القضاء التامّ على القوات المسلحة المصرية الضاربة.

ولو أن قرار الانسحاب - كما يقول الرئيس عبد الناصر - كان قد تأخر 24ساعة فقط، لكان الأمر كله الآن قد انتهى.

•استراتيجية ثورية جديدة:

ولأول مرة أصبح لمصر استراتيجية عسكرية ثورية، استراتيجية نابعة من المعركة ذاتها. وقد بدأت هذه الاستراتيجية بإعلان الرئيس عبد الناصر انضمام الجيش إلى الشعب في المعركة المسلحة. وتسليح الشعب وتدريبه تدريباً كاملاً على حرب العصابات والمقاومة السرية.

وها هى الخطوط البارزة للاستراتيجية الحربية لمصر كما تجلّت في المعركة:

1. أن الاستعمار لن يسكت عن السياسة الاستقلالية السلامية لمصر وبقية البلاد العربية، ولن يقف مكتوف الذراعين إزاء نفوذه في هذه المنطقة وأنه لن يتأخر عن القيام بمجازفات أخرى حمقاء، هذا إذا لم يستطع تدبير مؤامرات داخلية للقضاء على الحكومات الوطنية.

فالاستعداد السياسي والعسكري لمصر شعباً وجيشاً أصبح من أولى المهمات الواقعة على عاتق مصر.

2. إن أي عدوان إسرائيلي على مصر، لا يمكن أن يكون عدواناً حقيقيًا إلا بتأييد عسكري من جانب المعسكر الاستعماري. ويستتبع من هذا أن الدفاع الرئيسي عن مصر لا يمكن أن يكون في غزة أو رفح أو العريش وأبو عجيلة. فهذه نقط تعطيل ومناوشة لقوات العدو العدوانية. وخاصة إذا صحبتها قوة طيران ضاربة لإزعاج جيوش العدو.

3. إن عماد الدفاع عن مصر هو القوات المسلحة المصرية جنباً إلى جنب مع الشعب المسلَّح تسليحاً تامًا، والمُدرَّب تدريباً عنيفاً على حرب العصابات والمقاومة السرية.

4. إن قوات الطيران والقوات المسلحة يجب أن تكون مبعْثرة بعثرة تامة، بحيث لا يستطيع العدو أن يضرب أي تجمعات لها، هذا في الوقت الذي يجب أن توزَّع فيه هذه القوات توزيعاً يسمح لها بالتجمُّع السريع، لضرب العدو في أية نقطة تختارها مصر.

5. إن تسلُّح الموانئ المصرية الأساسية بأحدث المدافع المضادة للطائرات، ومدفعية السواحل، المدفعية المضادة للدبابات، وأن ينظم الشعب في هذه

الموانئ تنظيماً كاملاً لمقاومة أية جنود مظلّات هابطة، وأن يرحّل منها النساء والأطفال في الوقت المناسب.

6. أن يكون الدفاع عن أرض مصر، شبراً شبراً، ومدينة مدينة، وشارعاً شارعاً، وحارة حارة، وبيتاً بيتاً، وقرية قرية.

7. أن تقوم هناك مقاومة سريّة، مزودة بأسلحة مخبّأة، وبجهاز دعاية وبعناصر واعية سياسيًّا، لإزعاج قوات العدو في حالة احتلاله لأية مدينة أو قرية.

8. أن يجمع ما بين العمل العسكري والعمل السياسي بين صفوف الشعب والقوات المسلحة، بشرح الأهداف الوطنية، ويكشف المؤامرات الاستعمارية، وضرورة وحدة الشعب وتكتله مع الحكومة الوطنية، صفًّا واحداً ضدّ أي عدوان استعماري من الخارج، أو أي مؤامرات من الداخل.

هذه الاستراتيجية الثورية قد طُبِّقت فعلاً في كثير من النواحي، وخاصة في منطقة القنال والقُرى المحيطة بها، بحيث أدرك العدو استحالة مواصلة عدوانه في هذه المنطقة، وإلا كلّفه هذا ثمناً باهظاً حقًّا.

*معركة بور سعيد:

وقد سجلت بور سعيد مقاومة رائعة للعدوان الاستعماري، جعلت منها ستالينجراد الثانية. لقد سجلت هذه المدينة الصغير صفحة خالدة في تاريخ الحركات التحرير.

لقد شهدت بور سعيد- كما قال الدكتور محمد أنيس- بحق بداية دخول الاستعمار في بلادنا عام 1858 ممثلاً في شركة قناة السويس، وشاهد نهايته عام 1956... من بور سعيد دخل الاستعمار، ومنها يخرج إلى غير رجعية

وإلينا الخطوط البارزة من مقاومة بور سعيد الباسلة، كما استقيناها من عدّة مصادر:

بدأت طائرات المستعمر الإنجليز الفرنسي وربيتهما إسرائيل، الضرب بشكل مركّز في يوم 3 نوفمبر 1956، على عدة نقط في المدن، هي: مطار الجميل، كوبري

الجميل، ومحطة الرادار، المدفعية المضادة هناك، والمدفعية الساحلية ببور فؤاد، وخطوط السك الحديدية، وطريق بور سعيد الإسماعيلية.

وقد ركّزت طائرات العدو نيرانها على مدفعية السواحل، وقد أظهرت هذه المدفعية بطولة رائعة، فقد كان أحد المدافع يقف تحت الكباين، ويقذف الأسطول بقذيفة أو اثنتين، ثم يتراجع إلى الخلف، ويضرب الكابينة التي تستره، ليوهم الطائرات أنه قد أصيب، وبسرعة فائقة ينتقل المدفع إلى كابينة أخرى ويكرِّر العملية بنجاح.

اضطر العدو إلى استخدام عدد ضخم من طائرات حلف الأطلنطي، قبل أن ينجح في إسكات المدفعية المصرية.

في الساعة الخامسة من مساء الاثنين 5 نوفمبر سنة 1956، أخذت مئات الطائرات تحلِّق في سماء بورسعيد؛ بعضها من قاذفات القنابل، والبعض الآخر من حاملات جنود المظلات، وكانت الطائرات تلقي بقنابل محدثة دخاناً كثيفاً كي تتمكن من إنزال قوات الباراشوت في ستار هذا الدخان.

فهُرعت القوات المسلحة، مع القوات الشعبية التي كانت تحمل السلاح، وقد كان عددها قليلاً في ذاك الوقت، واستطاعت أن تقضي على القوات المعادية التي نزلت في منطقة الجبَّانات، وعلى معظم القوات التي نزلت في مطار الجميل.

بدأت توزيع الأسلحة الصغيرة على نطاق واسع للشعب. ولو أن هذا التوزيع تمَّ في عجلة، فكان أن استولى صغار الشباب، وكان أن وقع السلاح في أيدي أناس غير مدرَّبين.

بدأت لجنة المقاومة الشعبية كفاحها لإعادة توزيع السلاح على القادرين على حمله وامتلأت جدران بور سعيد بشعاراتها: كل منكم يدرِّب الآخر في سبيل وطنه.. لا تبخل على زميلك المدرَّب بالسلاح.. انكر ذاتك في المعركة. منتهى الوطنية أن تعطي زميلك الأكثر تدريباً على سلاحك.. لا تطلق رصاصاتك في الهواء. اقتصد في استعمال الذخيرة.

وأمكن بعد جهد كبير، وإعادة توزيع الجزء الأكبر من السلاح على المدرَّبين من رجال المقاومة الشعبية.

اشـتبك الشـعب المسـلَّح مـدى أربـع سـاعات متتاليـة مـع قـوات العـدو التـي هبطـت في منطقـة الرسـوة، وهـي تبعـد ثلاثـة كيلـو مـترات عـن المدينـة.

كانـت طائـرات العـدو في ذاك الوقـت ومعهـا مدفعيـة أسـطول الأعـداء، تـضرب الشـعب ضربـاً مركَّـزاً، لإحـداث الرعـب في صفـوف الشـعب مـن جهـة، ولحمايـة قـوات الباراشـوت الهابطـة مـن جهـة أخـرى، ولإمدادهـا بالسـلاح والذخـيرة مـن جهـة ثالثـة.

وكلـما لقيـت قـوات العـدو، مقاومـة شـعبية باسـلة، اسـتبد بالأعـداء الجنـون، فأخـذت طائراتـه تـضرب المواطنـين بمدافعهـا الرشاشـة، وتطلـق صواريـخ مشـتعلة عـلى المنـازل الخشـبية الواقعـة في منطقـة المنـاخ وكميـات كبـيرة مـن البـودرة المسـاعدة على الاحـتراق، وتـسرب تانـكات البنزيـن ومخـازن شـل للبـترول، وطريـق السـكة الحديديـة والمعاهـد، بـل أطلـق العـدو النـيران عـلى الأهـالي الذيـن كانـوا يهاجـرون، فـكان أن غـرق بهـم اللنـش الـذي كان ينقلهـم إلى المطريـة والمنزلـة.

كـما كان لوجـود الأطفـال والنسـاء أثـره المزعـج، وخاصـة وقـد اشـتعلت المدينـة بالنـيران.

بلغـت أنبـاء في مسـاء يـوم 6 نوفمـبر، عـن أن القيـادة المحليـة قـد اتفقـت عـلى هدنـة محليـة، ابتـداء مـن السـاعة السـابعة مسـاءً، وتبلبلـت الأفـكار، فانتهـز العـدو الفرصـة وأنـزل قـوات كبـيرة بالباراشـوت في مدينـة بـور فـؤاد، بل أنـزل بعـض الدبابات.

ولكـن جـاءت الأوامـر صريحـة مـن القاهـرة، بوجـوب الدفـاع عـن المدينـة حتـى آخـر رجـل. ونزلـت عربـة الاسـتعلامات في سـاعة متأخـرة مـن الليـل، تنبـه رجـال المقاومـة الشـعبية والقـوات المسـلحة إلى الاسـتمرار المعركـة، كـما أعلنـت هـذه العربـات أمـر الإنـذار السـوفيتي لـكل مـن إنجلـترا وفرنسـا، مـما سـاعد عـلى رفـع الـروح المعنويـة.

وكان أن زحـف رجـال المقاومـة الشـعبية والقـوات المسـلحة في اندمـاج بديـع إلى السـاحل، لسـحق أيـة قـوة تحـاول الدخـول إلى المدينـة، فجـن جنـون العـدو وانطلـق يـضرب المواطنـين في الشـوارع، ويُلقـي القنابـل الحارقـة، حتـى تصاعـد منهـا الدخـان الكثيـف.

لجـأ العـدو إلى حيلـة غـادرة، فاتجهـت بعـض دباباتـه مـن السـاحل، وهـي ترفـع العلمـين السـوفيتي والمـصري، وخـدع البعـض ولكـن سرعـان مـا نبهتـه لجنـة المقاومـة

الشعبية للخُدعة، وقد استطاع الشعب مع القوات المسلحة، الاستيلاء على خمس دبابات من العدو، رغم ما كلَّفه هذا من شُهداء لا يقلّون عن الأربعمائة عدًّا، وقد استخدم الشعب والجيش هذه الدبابات في مقاومة العدو.

كشف الطابور الخامس من العَرايا الفرنسيين والصهونيين عن نفسه، وأخذ يطلق الرصاص على قواتنا في شوارع الحي الإفرنجي، بل احتمت قوات العدو ببعض منازل الطابور الخامس.

وقد نجح بعض رجال المقاومة الشعبية في نسف المنازل بمَن فيها.

قامت دبابات العدو بضرب المنازل والشعب بنيران المدافع الثقيلة، وكانت طائرات الأعداء تمرُّ فوق المنازل على ارتفاع منخفض وتطلق نيرانها.

وأصبحت المعركة غيرَ متكافئة، مما اضطر بعض رجال القوات المسلحة إلى تغيير ملابسهم العسكرية واتخاذ الملابس المدنية والاندماج التام في صفوف الشعب لاستمرار المعركة.

قامت بعض السيدات والأطفال بدور رائع في المعركة، فقد استخدمن غطاء الحِلل والسكاكين، وكل ما استطاعت أن تمتد إليه أيديهن لضرب قوات العدو.

قضى المواطنون في بور سعيد ثلاثة أيام بِلا طعام وبلا ماء إثر احتلال قوات العدو، كما بقيت أسر كثيرة مشرَّدة في الشوارع، بسبب الحرائق التي شبَّت في الأحياء العربية كالمناخ.

هذه صور سريعة رائعة لمقاومة شعب بور سعيد الباسل، التي أفسدت خطة الاستعمار في الاستيلاء السريع على منطقة القنال، وأفسدت مؤامراته في التحكُّم في هذه المنطقة والقيام بنفسه بتطهير القنال قبل الجلاء، واتخاذها نقطة مساومة لفرض شروط باهظة مقابل الانسحاب.

*الجبهة المتحدة للمقاومة الشعبية:

ولكن المقاومة لم تكُف رغم احتلال العدو لبور سعيد، إذ رأى كثير من العناصر الواعية أن الوقت يُحتِّم - كما جاء في جريدة المساء - إعادة تنظيم القوى الوطنية المتناثرة، وإعادة الثقة للشعب، وربط كفاح الشعب بالجيش،

وخلـق الاسـتعداد لتأييـد المقاومـة المسـلحة، والوقـوف موقفـاً إيجابيًّـا مـن الأعـمال البشـعة التـي يقـوم بهـا المعتـدون.

وفي هـذه الظـروف القاسـية، تكوَّنـت الجبهـة المتحـدة للمقاومـة الشـعبية ببـور سـعيد، وهـي تضـم أعضـاء اللجنـة العليـا للمقاومـة الشـعبية وكافـة الوطنيـين الشرفـاء مـن أفـراد الشـعب والجيـش، وكافـة النقابـات العماليـة، وكافـة الطوائـف والفئـات، وكان هدفهـا الرئيـسي هـو التمهيـد والتحضـير للعمليـات العسـكرية المنظَّمـة، التـي قـام بهـا رجـال فرقـة الصاعقـة، ثـم تعبئـة الشـعب تعبئـة سياسـية ضـد المؤامـرات الاسـتعمارية.

لقـد كانـت الجبهـة المتحـدة للمقاومـة الشـعبية، جبهـة وطنيـة حقًّـا تضـم ممثـلي الشـعب بكافـة فئاتـه والحكومـة معـاً.

وابتـدأت عملهـا في كتابـة المنشـورات بخـط اليـد، وإلصاقهـا عـلى الجـدران وتوزيع بعضهـا عـلى الأهالي.

وقـد اشـترك الأطفـال في عمليـات توزيـع المنشـورات وإلصـاق صـور الرئيـس جـمال عبـد النـاصر عـلى عربـات قـوات الاحتـلال، والكتابـة عـلى أرض الشـوارع، باللغـات العربيـة والإنجليزيـة والفرنسـية.

وكان بعـض هـذه المنشـورات لا يزيـد عـلى عبـارة واحـدة: عـودوا إلى بلادكـم. إن الـشركات الاحتكاريـة هـي التـي دفعـت بكـم إلى أرضنـا، تذكـروا بيوتكـم وأمهاتكـم وأزواجكـم وأولادكـم.

وكان الهـدف مـن هـذه الأعـمال، كـما جـاء في جريـدة المسـاء: تأكيـد قيـادة الرئيـس جـمال للشـعب المـصري، ربـط الجماهـير بالسياسـة التحرريـة للمعركـة

رفـع وعـي الجماهـير، كراهيـة قـوات الاحتـلال، والقيـام بأعـمال إيجابيـة ضدهـم، مقاطعـة قـوات الاحتـلال وعـدم التعامـل معهـم، تفنيـد إذاعـات العـدو ومنشـوراتهم.

وقـد أزعـج العـدو عمـل الجبهـة المتحـدة، وكانـوا ينزلـون بدوريـات، مهمتُهـا نـزع اللافتـات ومسـح الكتابـة، فيُفاجَـؤون في اليـوم التـالي بغيرهـا، قـد وضِـع في مكانهـا أو في مـكان قريـب.

وقـد بعـث هـذا بالثقة في صفوف الشـعب، فبـدؤوا ينضمـون للجبهة ويسـاعدونها في أعمالها.

كما قامت الجبهة بإلصاق صور الرئيس جمال عبد الناصر واللواء عبد الحكيم عامر على الجدران وعلى عربات قوات الاحتلال.. بل اتبعت أساليب ماهرة في الدعاية للسخرية من المُعْتدين، فأقام الشعب تماثيل رمزية لكل من إيدن ومولييه تمثلها مشنوقين، وعُلِّق التمثالان على أحد الأسلاك، كما كتب اسم إيدن ومولييه على كلبين، وتُركا يجريان بين الجنود المعْتدين.

وقد نظمت الجبهة يوم وصول البوليس الدولي لمدينة بورسعيد، مظاهرة رائعة رافعة صور الرئيس عبد الناصر، وقد اشترك اليونانيون في هذه المظاهرة وكانت الهتافات العدائية ضدَّ المعتدين تتصاعد بالإنجليزية والفرنسية، مما أثار القوات الفرنسية، فأطلقت نيرانها على المتظاهرين، فسقط شهيدان لا يتجاوز عُمْرُ كلٍّ منهما عن الخامسة عشرة! هما حسن حموده ورمضان رضوان، وكانا يحملان صور الرئيس عبد الناصر.

كما قامت الجبهة بإخفاء الفِدائيين ورجال الجيش بالمدينة، ومساعدتهم أثناء القيام بأعمالهم ضدَّ القوات المحتلة.. وكان أن دُمِّرت أربع دبابات للعدو وقُتِل الكثير من أفراده. كما ألقيت قنبلة على الكولونيل وليامز مدير المخابرات في بور سعيد.

وقامت الجبهة بتنظيم مظاهرات صامتة، قوامها قرابة ستة آلاف متظاهر، يحملون صور الرئيس عبد الناصر ولافتات فيها نداء بسقوط الاستعمار ووحدة الشعب والجيش والحكومة.. وسارت المظاهرة في موكب رائع يتقدَّمه المئات من شباب بورسعيد على دراجاتهم، ومئات الأطفال .. كما اشترك في المظاهرة مئات النساء.. كما ألقيت خُطَبٌ وطنية في الجبَّانة، وتفرقت المظاهرة بعدها في هدوء دون أن تجرؤ قوات الاحتلال على التعرُّض لها.

ثم قامت الجبهة بإصدار جريدة غير دورية اسمها الانتصار ، تشرح للمواطنين طبيعة المعركة، وتطلعهم على الحقائق، ولاقت هذه النشرة إقبالاً كبيراً من جانب الشعب.

كما ساعدت الجبهة على حفظ الأمن ومساعدة السلطات المحلية في ذلك الأمر أثناء وجود قوات الاحتلال مما أدى إلى انعدام حوادث السرقة، اللهم إلا الحوادث التي ارتكبها جنود الاحتلال.

ثـمَّ نظمـت الجبهـة مظاهـرة ضخمـة لاسـتقبال رجـال البوليـس، الذيـن وصلـوا بورسـعيد أثنـاء وجـود قـوات الاحتـلال، باعتبارهـم رمـزاً لحكومـة عبـد النـاصر ثـم قامـت بتنظيـم المظاهـرة الكُـبرى يـوم 23 ديسـمبر احتفـالاً بالنـصر إثـر انسـحاب القـوات المعتديـة مـن بورسـعيد، وسـاهمت في الاسـتقبال الرائـع لقـوات الجيـش المـصري التـي دخلـت بورسـعيد في السـاعة الرابعـة.

ومـا أن أعلـن الرئيـس عبـد النـاصر إلغـاء اتفاقيـة أكتوبـر 1954 بـين مـصر وإنجلـترا، حتـى هـبَّ الشـعب البورسـعيدى بقيـادة الجبهـة، يحتفـل بهـذه المناسـبة حتـى سـاعة مبكـرة مـن الصبـاح.

إن في الجبهـة المتحـدة في بورسـعيد، والأعـمال التـي اسـتطاعت تحقيقهـا لدليـل عمـلي عـلى أنهـا الشـكل الرئيـسي الناجـح لجمـع صفـوف الشـعب في الوقـت الراهـن بكافـة فئاتـه، جنبـاً إلى جنـب مـع الحكومـة الوطنيـة.. إنهـا قيـادة نابعـة مـن الشـعب متعاونـة تعاونـاً وثيقـاً مـع الحكومـة، تتمتـع بثقـة كل مـن الشـعب والحكومـة، ويسـتجيب الشـعب لنداءاتهـا، وتسـتطيع أن تنظـم صفـوف الشـعب، وأن ترفـع وعيـه السـياسي، ومـن ثـم تسـتطيع أن تحقـق تنظيـم المقاومـة ضـدَّ الاسـتعمار مـن جانـب، وضـدَّ المؤامـرات الداخليـة مـن جانـب آخـر.

*لجان المقاومة الشعبية:

كـما هبَّـت في كل أنحـاء مـصر، لجـان للمقاومـة الشـعبية، تنظـم الدفـاع المـدني وحـرب العصابـات والتدريـب العسـكري تحـت إشراف جيـش التحريـر، في أكـثر أحيـاء المـدن الكبـيرة، ومـدن الأقاليـم.

وكانـت هـذه اللجـان تضـمُّ العـمال والطلبـة والحِرفيـين وصغـار التجـار والصنـاع والفلاحـين والموظفـين، متعاونـة تعاونـاً مُبـاشراً مـع ضبـاط جيـش التحريـر.

ولم تقتـصر هـذه اللجـان عـلى تنظيـم الدفـاع عـن أرض الوطـن مـن الناحيـة العسـكرية فحسـب ولكنهـا اشـتغلت أيضـاً بالدعايـة الوطنيـة، فقامـت بمؤتمـرات وإلقـاء محـاضرات شـعبية للفنانـين، وأفـلام سـينمائية، بهـدف شرح القضيـة الوطنيـة، وضرورة تدعيـم الجبهـة المتحـدة، جبهـة الشـعب وحكومـة عبـد النـاصر.

كما قامت النساء بدور باهر في المعركة الوطنية فقد حَمَلْن السلاح، ونَظَّمْن لجاناً للمقاومة الشعبية النسائية في كثير من الأحياء، واستطاعت هذه اللجان أن تجتذب جماهير غفيرة من نساء الشعب، وقامت بدور في تشجيع الفتيات على الإقبال على التدريب العسكري، والتدريب على التمريض وبذل المعونة للمهاجرات من بورسعيد، بل قامت بعض عضوات لجان المقاومة الشعبية النسائية بعملية التدريب العسكري لزميلاتهن في الريف، وذلك في منطقة القنال.

لقد أثبتت المرأة المصرية بحق أنها في الصفوف الأولى من المعركة الوطنية المقدَّسة.

إن لجان المقاومة الشعبية هذه، قد قامت بدور هام في تعبئة الشعب ضدَّ العدوان، وفي جمع الشعب حول حكومة عبد الناصر الوطنية، وفي القضاء على مفتريات العدو وإشاعاته الكاذبة، وفي تقوية الروح المعنوية.

وقد كانت ولا شك نواة للاتحاد القومي، والجبهة الوطنية التي نادى بها الرئيس عبد الناصر.

لقد نبعت هذه اللجان من صفوف الشعب، من المعركة ذاتها، وكانت شكلاً من أرقى أشكال التنظيم الجماهيري التي عرفتها مصر، للدفاع عن أرض الوطن المقدس، ولتوحيد صفوف الشعب، ولحماية البلاد من أية مؤمرات داخلية.

والاستعمار الذي لا زال يهدد بلادنا بالعدوان المباشر من الخارج، أو من المؤمرات من الداخل، يتطلب ولا شك استمرار هذا الشكل من التنظيم الجماهيري، بل وتدعيمه وتوسيع صفوفه، بحيث يشمل كافة الجماهير الشعبية ويقوم بدوره السياسي الوطني، دور التعبئة الجماهيرية المستمرة، كما يقوم أيضاً تحت إشراف جيش التحرير بدوره في التدريب العسكري، ومختلف الخدمات الأخرى التي تتطلبها واجبات الدفاع الوطني، وواجب الالتفاف حول الحكومة الوطنية وواجب الوحدة مع الشعوب العربية، هذا بجانب قيامه بالمساهمة في حلِّ كثير من المشاكل اليومية التي تصادف الشعب، وشرح طبيعة هذه المشاكل وإيجاد الصلات السليمة بين جماهير الشعب والسلطات المختلفة.

* **دور العمال المصريين:**

وقد قام العمال المصريون بدور بطولي رائع في المعركة الوطنية ضدَّ الاستعمار شأنهم في ثورة 1919، وهبَّة 1931، ومظاهرات 21 فبراير، ومعركة القتال أواخر عام 1951.

لقد انضم إلى كتائب المقاومة الشعبية والحرس الوطني قرابة 4500 عامل من عمال كفر الدوار وحدهم، كما انضم آلاف أخرى من عمال شبرا الخيمة ونسيج وغزل القاهرة وآلاف من مختلف فئات العُمال، وقد استشهد منهم الكثير في معركة بور سعيد الخالدة.

ولم يقتصر دور العُمال المصريين على التطوع فحسب وبذل دمائهم، وإنما كانت معركتهم معركة إنتاج أيضاً، فقد قررت كافة نقابات العمال واتحاداتها على دفع مشاكلهم اليومية إلى الوراء وعلى التركيز على زيادة الإنتاج.

كما أصدرت نقابة شبرا الخيمة، بياناً تُعاهد فيه الوطن: إننا سنكون في مقدِّمة الصفوف، وفي كافة الميادين، ميدان القتال، وميدان الإنتاج وميدان البناء، حتى نضمن لبلادنا النصر وإنزال الهزيمة بالمستعْمِرين الغُزاة - إننا سنبذل ما في طاقتنا لزيادة الإنتاج عمَّا كان عليه، قبل ذهاب زملائنا إلى ميدان المعركة.

وقد وجهت نقابات شركة الغزل الأهلية نداءً إلى العُمال بأن يكونوا في الصفوف الأمامية للمعركة، كما طالبتهم وتطالبهم بضريبة الدم؛ لأنَّ أي تهادُن في المعركة سيترتب عليه القضاء على استقلالنا وسيادتنا.

وقال رئيس نقابة الغزل الرفيع في كفر الدوار: كنا نحدد لكل فرد منا مكانه، إمَّا في طابور المقاتلين، أو طابور الذين يسهرون على المصنع، ولم تمض أيام قلائل حتى كان هناك 4500 عامل منا قد تحولوا إلى جنود مُكافحين من الطراز الأول. وكانت نسبة الإنتاج في المصنع 99%، أمَّا بعد الاعتداء، ورغم أنَّ ثُلثَ العُمال قد ذهبو إلى الميدان، فإنَّ نسبة الإنتاج وصلت إلى 125% عما كان عليه قبل المعركة.

ولم يقتصر كفاح العُمال المصريين على ميدان المعركة، ولا على ميدان الإنتاج وحدهما، إنما امتد إلى التبرع من أجورهم.. لقد تبرَّع العمال بمئات الألوف من الجنيهات، من أجل مهاجري بورسعيد وإعادة بناء بورسعيد.

لقد أصدرت النقابة العامة لعُمال الغزل والنسيج بالقاهرة وضواحيها نداء تقول فيه: إننا لن نبكي مَن اشتشهد منهم، بل سنخلِّد ذكراهم، لقد قرَّر مجلس إدارة النقابة التبرع بأجر يوم من جميع العُمال، والنقابة تأمل ألا يكون تبرعكم تنفيذاً للقرار فحسب، بل نرجو أن يكون التبرع نابعاً من اقتناعكم ووطنيتكم، نابعاً من إيمانكم وتقديركم لشهداء وطننا في أشرف معركة.

وبلغ ما جمعه عُمال النقابة أكثر من ألف جنيه. وبلغ ما تبرع به عُمال كفر الدوار 11.200جنيه، وشركة الغزل بالإسكندرية 3500جنيه، وعمال المنسوجات المصرية 2500جنيه، وعمال شركة سباهي 1500جنيه، واتحاد النقل المشترك قد تبرَّع بأجر يوم.

ونحن نذكر هذا على سبيل المثال لا الحصر، فقد تبرعت عشرات أخرى من النقابات والمصانع ومختلف عمال الجمهورية المصرية بآلاف أخرى راضين مسرورين.

لقد سجَّل العمال المصريون بطولاتهم الرائعة في الدفاع عن أرض الوطن، ببذل دمائهم في المعركة، وتحمُّل المشاق في سبيل زيادة الإنتاج، ودفع مشاكلهم اليومية إلى الخلف ثمَّ التبرع بنصيب من أجورهم لشهداء بورسعيد ولبناء بورسعيد.

هذه المقاومة الشعبية الضخمة من شعب مصر، من نسائها ورجالها وعمالها وفلاحيها وطلبتها.. كانت عاملاً حاسماً في ضرب العدوان الاستعماري ضربة ساحقة.

لقد ارتفع الكفاح الشعبي التحريري الوطني المسلح ضدَّ الاستعمار، أقصى ما بلغه في تاريخ الحركة الوطنية المصرية، سواء من ناحية البطولة أو التنظيم الشعبي الواسع، أو المساهمة الجدية من جانب فئات الشعب.

أعجيب بعد هذا ألا يستطيع المستعمر أن يحتل أكثر من مدينة مصرية واحدة رغم حشده جندَه وأساطيله البحرية والجوية، المزودة بأحدث الأسلحة؟ أعجيب بعد هذا، ألا يستطيع المستعمر أن يبقى في أرض الوطن المقدس أكثر من أربعين يوماً!

لقد كان أحقر عدوان عرفه التاريخ، كما كان أسرع انسحاب للاستعمار عرفه التاريخ أيضاً وأكثره خزياً وهواناً.

لقد حققت مصر استقلالها وسيادتها وخاصة بعد أن أعلن الرئيس عبد الناصر إلغاء اتفاقية أكتوبر 1954 التي كانت تخوِّل لبريطانيا اتخاذ قاعدة في القنال إثر أي هجوم على تركيا.

وقد سجَّل الشعب المصري هذه السيادة وذلك الاستقلال بدمائه، بدماء الآلاف التي سقطت في سيناء ورفح والعريش وأبو عجيلة وشرم الشيخ، والآلاف التي استُشهدت في بورسعيد، والمئات التي قتلتها طائرات العدو في مختلف أنحاء القُطْر.

-3-

التضامن الدولي

منذ أربعة وسبعين عاماً، قامت إنجلترا بغزو مصر، ولكن هذا الغزو لم يُثر أي رد فعل يؤْبه له في العالم؛ حقًّا تحرك بعض الساسة والقادة العسكريين وخاصة في فرنسا. إذ رأوا في هذا الغزو، حركة معادية للأطماع الفرنسية في مصر والشرق العربي، إلا أن الحكومة البريطانية لم تعبأ باعتراضات فرنسا، واستمرت في غزوها لمصر، ولم يهتم العالم الرسمي إذ ذاك بمأساة مصر، لقد تركت وحيدة في الميدان، تكافح وحدها كفاح الأبطال.

وبعد أربعة وسبعين عاماً، هاجمت إنجلترا وفرنسا، مصر، مع ذيلهما إسرائيل.. لقد كانت في جانبهما القوة، والقوة في ظن الاستعماريين، هي الحق، ولكن عام 1956، لم يكن كعام 1882!

لقد أثار هذا العدوان الغادر، ضمائر الملايين من الناس البسطاء في كل أنحاء العالم، ولم تكتف هذه الملايين بالاحتجاج أو الأسى، ولكن هذا العدوان قد دفعها للتحرك، وقد بلغ هذا التحرك حدَّ إعداد متطوِّعين مزوَّدين بالسلاح من أكثر من شعب ودولة من الدول والشعوب المحبة للسلام، وذلك مناصرة لمصر ضدَّ العدوان الغادر.

لقد أجبر الرأي العام العالمي، والدول والشعوب المحبة للسلام، امبراطوريتين كانتا إلى حين قريب مسيطرتين على جزء من العالم، على وقف القتال، ثم

الانسحاب نهائيًا من أرض مصر، دون أن يحققا هدفاً واحداً من أهداف هذا العدوان، وذلك قبل أن يمضي على هذا العدوان 40 يوماً.

إن كان هذا يدل على شيئ، فهو يدل على تغيير جوهري في علاقات القوى العالمية، وقد أشرنا إليه ببعض التفصيل في الفصل التاسع، ولا يسعُنا إلا أن نلخِّصه في الآتي:

- ظهور العالم الاشتراكي كقوة دولية، مادية ومعنوية مؤيدة للسلام وحركات التحرر القومي، ومعادية للعدوان في كل أنحاء العالم.
- بروز كتلة الدول الآسيوية والإفريقية، التي ظفرت باستقلالها حديثاً إثر الحرب العالمية الثانية كعامل قوي في المحيط الدولي، وتساندها مع الدول المكافحة من أجل تحرير أراضيها وتطور مستقل لكيانها السياسي والاقتصادي.
- بروز الجبهة العربية، كما وصفها الرئيس عبد الناصر، كحقيقة واقعة، كان لها أثرها الفعال في مساندة مصر في كفاحها ضدَّ العدوان.
- ارتفاع الوعي السياسي لدى الجماهير في كل مكان، ولدى الطبقة العاملة والفئات الشعبية، حتى في الدول الاستعمارية نفسها، وضغطها على حكوماتها العدوانية ذاتها.
- ضعف المعسكر الاستعماري، وازدياد حدَّة التناقضات في داخله مما أدى إلى وقوف الولايات المتحدة في مجلس الأمن والجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة، موقفاً غير مؤيد للعدوان الأنجلو فرنسي.
- الضعف الشديد للامبراطوريتين البريطانية والفرنسية، سواء عسكريًا أو اقتصاديًا، مما جعلهما أعجز من مواصلة العدوان إزاء المقاومة البطولية لشعب مصر، والضغط الهائل للقوى المُحبة للسلام.
- ارتفاع الوعي الشعبي، والوعي القومي التحريري لدى شعوب الشرق عامة، والشرقين الأدنى والأوسط وشمال إفريقيا ومصر خاصة.

ألم يهبْ الشعب الأردني الذي لا يتجاوز المليون عدًّا، متحدياً مشاريع الامبراطورية البريطانية الاستعمارية، ونجح في طرد جلوب، والتخلص من وزارة

خائنة ورفض الانضمام إلى حلف بغداد. واتَّبع سياسة عربية خالصة بفضل ارتفاع وعيه السياسي، وتنظيم صفوفه.

ألا يناضل الشعب الجزائري في بسالة نادرة ضدَّ أكثر من نصف مليون جندي فرنسي مزوَّدين بأحدث الأسلحة؟

فلم يكن عجيباً إذاً، وقد استطاع الشعب المصري بقيادة عبد الناصر، القضاء على السيطرة السياسية للإقطاع والاحتكار، أنْ يصمُد في بسالة نادرة ضدَّ العدوان الاستعماري.

هذه هي التغيرات الجوهرية في الموقف الدولي، التي جعلت ميزان القوى في صالح الشعوب، حتى الصغيرة منها، وهي التي تجعلنا لا نهيب أي عدوان استعماري آخر، حتى ولو جاء من أقوى الدول الاستعمارية، أو حتى لو جاء من هذه الدول الاستعمارية مجتمِعة!

ولنتناول الآن بشيئ من التفصيل، بعض الوقائع المتصلة بهذا التضامن الدولي لقوى السلام في الأرض ضدَّ العدوان على مصر.

الإنذار السوفيتي له أثَّر كبير في إجبار العدوان الاستعماري على التوقف ويجب أن نفهم الظروف التي صدر فيها الإنذار السوفيتي الذي وصفه أحد الدبلوماسيين الأمريكيين بأنه قد صِيغ في لهجة قويَّة، قويَّة جدًّا.

لقد أصدر اجتماع الطوارىء الذي عقدته جمعية الأمم المتحدة قراراً يحتِّم على بريطانيا وفرنسا وإسرائيل إيقاف إطلاق النيران فوراً، ويلزمها بسحب قواتها من الأراضي المصرية، ولكن هذا القرار في بادىء الأمر لم يأت بالنتيجة المطلوبة.

ونشأ عن ذلك حالة مفجعة حقًّا، كما قال د.ت. شبيلوف وزير خارجية الاتحاد السوفيتي في خطابه أمام الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة في 22 نوفمبر 1956: فالقنابل البريطانية والفرنسية تنهال كالمطر على شعب مصر الوديع الآمن والدماء تنزف منها بغزارة، وقد استغاثت تطلب النجدة، وكان أي تسويف أو مماطلة من شأنه أن يهدد مصر بكارثة، ويحمل معه خطر امتداد الحرب، وقد رأى الاتحاد السوفيتي - والحالة هذه - أنه لا مفرَّ من اتخاذ إجراء حازم. ففي 5 نوفمبر استحثَّ الاتحاد السوفيتي مجلس الأمن على أن يُخطر كلًّا من بريطانيا وإسرائيل وفرنسا بإيقاف كافة الأعمال العدوانية ضدَّ مصر فوراً، وبسحب قواتها

التي غزت الأراضي المصرية في غضون ثلاثة أيام. وقد أوصى الاتحاد السوفيتي بضرورة قيام الحكومات أعضاء هيئة الأمم المتحدة وعلى رأسها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي بصفتهما أعضاء دائمين في مجلس بتقديم المعونة العسكرية وغيرها من المساعدات لضحايا العدوان بالجمهورية المصرية، وبإمدادها بقوات جوية وبحرية ووحدات عسكرية وغير ذلك من المتطوّعين والمدرَّبين مع المساعدات المادية، وذلك في حالة عدم رضوخ بريطانيا وفرنسا وإسرائيل لقرار مجلس الأمن خلال المدة المحددة.

وفي نفس الوقت، قدَّمت الحكومة السوفيتية اقتراحاً لحكومة الولايات يقضي بالمساهمة مع باقي الحكومات الأخرى في مجهودات الاتحاد السوفيتي داخل نطاق هيئة الأمم المتحدة، لوقف العدوان، ومنع استمرار سفك الدماء ولكن مع الأسف لم تقم حكومة الولايات المتحدة بتعضيد هذه الخطوة من جانب الاتحاد السوفيتي.

ولم يعد مفرٌّ من أن يتخذ الاتحاد السوفيتي قراراً حاسماً أملته عليه مبادئه في سياسته الخارجية، أن يؤيد كافة الشعوب المكافحة ضدَّ الاستعمار من أجل استقلالها وسيادتها، مُستلهماً في الوقت نفسه مبادىء الأمم المتحدة، وقرار جمعيتها ومن ثمَّ كان الإنذار السوفيتي.

وقد جاء الإنذار في صورة أربع مذكرات، واحدة منها موجَّهة لرئيس مجلس الأمن، وأخرى موجَّهة لأنطونى إيدن رئيس وزراء إنجلترا إذ ذاك، وثالثة إلى جي موليه رئيس مجلس وزراء فرنسا، ورابعة إلى بن جورين رئيس وزراء إسرائيل وقد جاء فيه: لم تكن قناة السويس إلا ذريعة للعدوان الأنجلو فرنسي الذي له أغراض حربية أخرى. والحقيقة التي لا يمكن إخفاؤها هي أن حرباً عدوانية، تُشن ضد الدول العربية، بهدف القضاء على الاستقلال الوطني لدول الشرقين الأدنى والأوسط، وبهدف إعادة نظام العبودية الاستعمارية الذي لفظته الشعوب العربية.

وماذا يكون موقف المملكة المتحدة (أي إنجلترا) إذا هاجمتها دول أقوى لديها كافة أنواع الأسلحة الحديثة المدمِّرة؟ ودول كهذه تستطيع في الوقت الحاضر، أن ترسل قوات بحرية أو جوية إلى شواطىء بريطانيا، وأن تستخدم وسائل أخرى كالأسلحة الصاروخية، وإذا حدث هذا واستعملت الأسلحة الصاروخية ضدَّ المملكة

المتحدة أو فرنسا، فإنكم بلا شك ستصفون هذا بأنه أعمال وحشية. ولكن فيم يختلف هذا عن الهجوم الوحشي الذي تشنه القوات المساحة للملكة المتحدة وفرنسا على مصر التي تكاد تكون بلا دفاع؟

نعتقد أن حكومة المملكة المتحدة يجب أن تُصْغِي لصوت العقل وتوقِف الحرب في مصر.. ونحن مصمِّمون تماماً على سحق المُعتدين بالقوة وأن نعيد السلام إلى الشرق.

وجاء في نفس الإنذار السوفيتي لإسرائيل ما يلي: إن الحكومة الإسرائيلية بتنفيذها لإرادة غيرها؛ تلعب بإجرام وبغير شعور بالمسؤولية بمصير السلام وبمصير شعبها.. إنها تبذر بين شعوب الشرق بذور من الحقد لدولة إسرائيل. ما سيكون له بكل تأكيد أثره على مستقبل إسرائيل، وما يعرض للهلاك وجود إسرائيل نفسها كدولة.. ونحن نأمل أن تفهم حكومة إسرائيل هذا الإنذار فهماً سليماً وأن تعيه.

واضح جدًّا من كل هذا، أن الاتحاد السوفيتي لم يلجأ إلى هذا الإنذار، إلا بعد أن استنفد كافة الوسائل القانونية سواء في مجلس الأمن أو الجمعية العمومية للأمم المتحدة لاتخاذ إجراء مشترك لوقف العدوان بالقوة المسلَّحة، وإلا بعد أن رفضت الولايات المتحدة هذا الاقتراح، وإلا بعد أن استنجدت مصر بكافة شعوب العالم ودولها لمساعدتها.

ولم يكتفِ الاتحاد السوفيتي بإنذاره، بل اتخذ العُدة لتنفيذه هذا الإنذار فعلاً، إذ تقاطر ألوف المتطوِّعين السوفيت يسجِّلون أسماءهم في سفارة مصر بموسكو ويطلبون السفر لمصر.

وقام الشعب السوفيتي بمظاهرات، ضخمة موجهة ضدّ إنجلترا وفرنسا وإسرائيل، ومطالبة بوقف العدوان بالقوة المسلحة.

وقرر العمال السوفيت العمل ساعتين إضافيتين تخصص أجورها لمساعدة مصر.. وفي وقت قصير أمكن جمع 50 مليون روبل هدية للشعب المصري.

فضلاً عن أطنان من القمح والأدوية المحفوظة إلخ،

لقـد أثبتـت المعركـة عمليًّـا أن قـوةً ضخمـةً مـن أكـبر دول العـالم، تقـف معنـا شـعباً وحكومـةً، في كفاحنـا ضـدَّ الاسـتعمار، ومـن أجـل المحافظـة عـلى اسـتقلالنا وسـيادتنا القوميـة.

*دول باندونج:

وهبَّـت معظـم دول باندونـج شـعوباً وحكومـات، تؤيـد مـصر لا بالاحتجـاج فحسـب، وإنمـا بالمظاهـرات والمتطوِّعـين. فقـد تجمـع مئـات الألـوف مـن الصينيـين في مظاهـرات صاخبـة وتوجَّهـوا إلى سـفارة بريطانيـا في بكـين يعلنـون سـخطهم عـلى العـدوان وتأييدهـم التـامَّ للشـعب المـصري وحكومتـه الوطنيـة.

وفي 3 نوفمـبر؛ أعلـن ماوتـسي تنـج، رئيـس جمهوريـة الصـين الشـعبية، أن بـلاده مسـتعدة لإرسـال جيـش مـن المتطوِّعـين إلى مـصر وقـال: إذا انتـصر المسـتعمِرون في مـصر، فـإن عدوانهـم سـيمتد إلى الـشرق الأوسـط ومناطـق أخـرى، ولذلـك فلـن تـتردد الصـين في إرسـال جيـش مـن المتطوِّعـين إلى مـصر؛ إذا طلـب الرئيـس جـمال عبـد النـاصر.

ثـمَّ أرسـلت حكومـة الصـين تحذيـراً لبريطانيـا وفرنسـا بوقـف العـدوان. وفي 7نوفمـبر أعلـن السـفير المـصري في الصـين الشـعبية، أن 250 ألـف متطـوع صينـي أبلغـو السـفارة عـن رغبتهـم في السـفر إلى مـصر والمشـاركة في الدفـاع عنهـا.

وفي 13 نوفمـبر أعلنـت حكومـة الصـين، أنهـا قدمـت لمـصر هديـة نقديـة قيمتهـا 20مليـون فرنـك سـويسري، للمسـاهمة في كفاحهـا الباسـل ضـدَّ العـدوان الأجنبـي وأن الصـين تشـحن عـلى وجـه السرعـة، كميـات كبـيرة مـن الصُلـب والشـاي وزيـت بـذرة القطـن مسـاعدة لمـصر.

وأعلــن وزيـر خارجيـة إندونيسـيا أن حكومتـه سـتتخذ إجـراءات مشـدَّدة ضـدَّ بريطانيـا وفرنسـا، بسـبب عدوانهـا عـلى مـصر، ثـمَّ قـال إنَّ الموانـئ الإندونيسـية قـد قاطعـت السـفن البريطانيـة والفرنسـية.

وفي 8 نوفمبرأحرقـت الجماهـير الثائـرة في جاكرتـا، دار السـفارة البريطانية وحاصرت سـفارة فرنسـا ورجمتهـا بالحجارة.

وقاطعت مدينة جاكرتا جميع البضائع الإنجليزية والفرنسية وتقدَّم ألوف من الشباب الإندونسي للتطوُّع، لمشاركة مصر في الدفاع ضدَّ العدوان.

وقامت في أفغانستان مظاهرات كبيرة تأييداً لمصر، وأعلن المتظاهرون استعدادهم للسفر إلى مصر دفاعاً عنها، وصرح رئيس وزراء أفغانستان سردار محمد داود: إنَّ العدوان الوحشي ضدَّ مصر الصديقة العزيزة لأفغانستان قد أحدث ألماً عميقاً، وهزة عنيفة في نفوس جميع أفراد الشعب الأفغاني، وقد وعدت الحكومة بتقديم كل مساعدة ممكنة إلى هذا الشعب الباسل المجاهد وقد تلقت طلبات لاحصر لها من جميع أنحاء البلاد، يعلن فيها مرسلوها أفراداً وجماعات تطوعهم لمساعدة مصر.

وفي الهند أصدرت حكومتها بياناً رسميًّا في أول نوفمبر 1955 قالت فيه: إن العدوان البريطاني الفرنسي الإسرائيلي على مصر، يعد انتهاكاً صريحاً لميثاق الأمم المتحدة ومبادىء باندونج.

وقال نهرو: إنني لا أذكر أي حادث عدوان أن صارخ، أفظع مما هو حادث اليوم ضدَّ مصر.

وثار الشعب الباكستاني على العدوان، وطالب الحزب الديمقراطي وعلماء الباكستان بإلغاء حلف بغداد وجميع التكتلات العسكرية كما تظاهر الطلبة الباكستانيون في كاديشار وكويتا وغيرها من المدن الهامة، وأعلنوا مشاركتهم لمصر في نضالها ضدَّ المستعمرين.

ونددت جميع الصحف في سيلان بالعدوان، وطالبت المعارضة البرلمانية، بعدم تقديم أية تسهيلات في القواعد البريطانية بسيلان للطائرات والسفن البريطانية، التي تحمل الجنود أو العتاد للشرق الأوسط.

وفي 3 نوفمبر، قامت مظاهرات ضخمة احتجاجاً على الهجوم الاستثماري، وأنذر رئيس وزراء سيلان بانسحاب بلاده من الكومنولث، إذا استدعت التطورات المقبلة ذلك.

•الشعوب العربية:

وكان موقف سوريا حكومة وشعباً رائعاً حقًّا. فقد أعلنت التعبئة العامة ووضعت قواتها العسكرية تحت تصرف مصر، وقطعت علاقاتها الدبلوماسية والثقافية مع بريطانيا وفرنسا.

ووقفت الأردن الباسلة بجانب مصر، فأرسلت حكومتها الوطنية في أول نوفمبر إنذاراً إلى مجلس الأمن، بأنها ستنفذ الثلاثي العسكري بينها وبين مصر وسوريا.

وفي 3 نوفمبر أبلغت الأردن حكومة بريطانيا، بأنها لن تسمح لها باستخدام المطارات والقواعد العسكرية ضدَّ مصر، ثمَّ قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع فرنسا.

وفي 12 نوفمبر أعلنت الحكومة الأردنية التعبئة العامة، وقرر أكثر من ألف طالب أردني الالتحاق بجيش التحرير، وطالب النواب الأردنيون بقطع العلاقات مع بريطانيا وإلغاء المعاهدة الأردنية البريطانية.

وبالفعل قررت لجنة الشؤون الخارجية بمجلس النواب الأردني، إلغاء المعاهدة، وقبول المعونة العربية بدلاً من المعونة البريطانية.

وأعلن الشعب السوداني سخطة على العدوان، وسارت المظاهرات في الشوارع تهتف بكفاح الشعب المصري وسقوط الاستعمار. وقامت الجبهة المعادية للاستعمار بتسجيل أسماء المتطوّعين، وطالبت الحكومة السودانية بقطع علاقاتها مع بريطانيا وفرنسا وإعلان التعبئة العامة، وأضرب طلبة جامعة الخرطوم والمدارس الثانوية وتطوَّع الطلبة السودانيون في مصر في جيش التحرير. كما أصدرت الحكومة السودانية أمراً بمنع جميع الطائرات الحربية البريطانية والفرنسية من الهبوط بمطارات السودان.

وأعلنت حكومة ليبيا غداة وقوع العدوان على مصر، أن القواعد العسكرية فيها، لن تستخدم ضدَّ مصر .

وفي 2 نوفمبر قامت مظاهرات عنيفة في بنغازي احتجاجاً على العدوان. ورفض الضباط الكويتيون تفرق المظاهرات الوطنية، التي قامت احتجاجاً على العدوان على مصر، وسحب أهالي الكويت أموالهم من بنوك بريطانيا، وقاطعوا شركاتها، وبلغت التبرعات لمصر أكثر من مليون وربع مليون جنيه.

وفي العـراق، عندمـا اتضـح للشـعب، أن حكومـة نـوري السـعيد، يسّرت اسـتخدام الطائـرات البريطانيـة لمطاراتهـا وقواعدهـا، أثنـاء الغـازات عـلى مـصر، هـبّ الشـعب العراقـي ثائـراً ضدّ نـوري السـعيد، مطالبـاً بسـقوطه والانسـحاب مـن حلـف بغـداد، وقامـت مظاهـرات صاخبـة، استشـهد فيهـا المئـات مـن الوطنيـين العراقيـين.

•في البلاد الاستعمارية:

وقـد دلّـت الطبقـة العامـة في البـلاد الاسـتعمارية نفسـها، وكثـير مـن الجماهـير الشـعبية فيهـا عـلى مقـدار تمسـكها بمبـدأ التعايـش السـلمي، واسـتنكارها للأسـاليب العدوانيـة للدوائـر الحاكمـة في بلادهـا.

ففـي 4 نوفمـبر، اجتمـع في ميـدان ترافلجـار بلنـدن، أكـثر مـن 40ألـف بريطـاني، تلبيـة لدعـوة لجنـة السـلام، وحـزب العـمال، والحـزب الشـيوعي الإنجليـزي للاحتجـاج عـلى مـصر؛ وطالبـوا حكومـة إيـدن بوقـف العـدوان؛ وأصـدر عـمال المناجـم بجنـوب ويلـز بيانـاً اسـتنكروا فيـه العـدوان، وهـددوا بـالإضراب قائلـين: إن كثـيراً مـن العـمال يطالبـون بـالإضراب كأداة فعالـة لوقـف الحـرب الرجعيـة التـي شـنتها حكومـة إيـدن عـلى مـصر.

بـل اسـتنكر جيتسـكل، رئيـس حـزب العُـمال البريطـاني، وممثـل الجنـاح اليمينـي فيـه، تحـت ضغـط جماهـير الحـزب، هـذا العـدوان قائـلاً بتاريـخ أول نوفمـبر: إن ملايـين الشـعب البريطـاني، قـد هزتهـا في عمـق، وقـد أحسـت بالخجـل لإلقـاء سـلاح الطـيران البريطـاني قنابلـه عـلى مـصر، لا دفاعـاً عـن النفـس .. وإنمـا متحديًـا ميثـاق الأمـم المتحـدة.

وقالـت جريـدة المانشـتر جارديـان، الناطقـة بلسـان حـزب الأحـرار بتاريـخ 31 أكتوبـر: إن هجـوم الحكومـة البريطانيـة عـلى مـصر، كارثـة مـن الدرجـة الأولى، فهـو عمـل خاطـىء مـن ناحيـة - أدبيًـا وعسـكريًا وسياسـيًّا - إنـه ضرب قاسـية لسـمعة بريطانيـا ولحلـف الأطلنطـي وللأمـم المتحـدة؛ ولـن يحقـق أي شـيئ لازدهـار بريطانيا.

بـل أحسـت الجرائـد الإنجليزيـة المحافظـة نفسـها، بمقـدار عُزلـة بريطانيـا، فقالـت الديـلي مـيرور بتاريـخ أول نوفمـبر: إن بريطانيـا وفرنسـا تقـف منعزلتـين، وقالـت

فيناشيال نيوز: إنه لا شك أبداً في أن الرأي العالمي بشكل عام الفعلة الأنجلو - فرنسية.

وفي فرنسا، أضرب العمال الفرنسيون في مصانع الطائرات ومحطات القوى وأحواض السفن والمناجم ومصانع السيارات.

كما عقد الاتحاد العام للنقابات واتحاد العمال الكاثوليك اتفاقاً للإضراب احتجاجاً على العدوان الاستعماري، وسارت مظاهرات عمالية في معظم المدن الفرنسية، وقام الحزب الشيوعي الفرنسي بأكبر جهد لتهيئة العمال الفرنسيين والجماهير الشعبية الفرنسية ضدَّ العدوان، وكان النواب الشيوعيون هم الوحيدون الذين عارضوا العدوان على مصر وندَّدوا به.

وصرح وزير خارجية اليابان بأن بريطانيا وفرنسا لجأتا إلى استخدام القوة، وفي انتهاك صريح لمبادىء الأمم المتحدة وغاياتها.

وقال رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ المكسيكي، بأن الاعتداء البريطاني الفرنسي على مصر سبّب قلقاً بالغاً في المكسيك. إن الشعوب الحرة والعالم يُدين العمل الذي قامت به هاتان الدولتان.

وفي الأرجنتين أصدرت شركة كاستالدس البحرية أمراً بوقف الباخرة الأجنبية التي تنقل عدداً من المتطوّعين الإسرائيليين.

وقال وزير خارجية النرويج: إن نبأ العدوان الإسرائيلي، وكذلك التدخل البريطاني الفرنسي، قد أصاب الرأي العام النرويجي بصدمة عنيفة.

كان واضحاً، إذ أن المعسكر الاشتراكي، والدول المستقلة في آسيا وإفريقيا التي فازت باستقلالها حديثاً، ومعظم الدول العربية، والطبقة العامة في معظم البلاد الاستعمارية، قد أجمعت كلّها على استنكار هذا العدوان، وقد تحركت كلها بدرجات متفاوته من الحماسة والقوة، حركات فعلية من أجل وقف هذا العدوان.

لقد بلغ التضامن العالمي مع مصر من جانب القوى المُحبَّة للسلام، من القوة والعنف؛ ما جعله عاملاً حاسماً في وقف إطلاق النار، وفي انسحاب القوات الأنجلو فرنسية آخر الأمر من بورسعيد.

*التضامن العمالي الدولي:

وقد قام العُمال في كافة أنحاء العالم، بدور رائع في مساندة مصر وتأييد كفاحها البطولي ضدَّ العدوان .

فقد رسم الاتحاد الدولي لنقابات عمال العرب (الذي تكوَّن في 5 مارس 1955) خطة كاملة لمقاومة الاستعمار والاشتراك الفعَّال في حالة العدوان على مصر أو أي قُطر من الأقطار العربية، وقد أصدر القرارات الآتية في أغسطس سنة 1956.

أولاً: أن يمنع عُمال العرب البترول، في كافة البلدان العربية، من تسرب أية نقطة منه أو مستخرجَاته أو مشتقاته، خارج حدود الوطن العربي، بكافة الوسائل، ولو أدى الأمر إلى نسف وتدمير كافة الآلات والمنشآت في حالة الاعتداء على مصر.

ثانياً: مقاطعة شحن وتفريغ وتموين جميع السفن وطائرات الدولة التي تعتدي على مصر، أو تؤيد العدوان عليها.

ثالثاً: تدمير كافة المطارات والمنشآت الحربية الأجنبية في الوطن العربي للحيلولة دون استخدامها ضدَّ مصر.

رابعاً: مطالبة الحكومات العربية بتجميد أموال وممتلكات الدول التي جمَّدت أو قد تجمِّد أموال وممتلكات مصر، وكذلك سحب جميع أموالها وأرصدتها من تلك الدول.

خامساً: توجيه نداءات إلى الاتحادات النقابية الوطنية والمهنية والدولية لمؤازرة مصر في موقفها.

وبعد ساعة واحدة من العدوان الغادر على مصر، وجه الاتحاد نداء يطالب فيه عُمال الدول العربية بتنفيذ قرارات الاتحاد.

فقام العمال السوريون بنسف أنابيب شركة البترول العراقية الإنجليزية التي تمر بسوريا في ثلاثة مواضع، كما نسفوا خطَّين آخرين على الحدود بين لبنان وسوريا.

وقام عمال طرابلس بتخريب أنابيب البترول، ورفضوا شحن سفينة من سفن البترول.

وأحرق العمال في البحرين جميع المنشآت البريطانية ونسفوا بعض أنابيب البترول.

ورفض عمال المطارات بالسودان، إرشادات الطائرات الفرنسية والبريطانية، واستقال سبعون موظفاً يعملون بشركة الطيران بالخرطوم، احتجاجاً على قرار وقف الموظَّفين والعُمال الذين رفضوا إرشاد الطائرات الإنجليزية والفرنسية.

ولم يقتصر الأمر على العُمال العرب، وإنما امتد التأييد لمصر إلى جميع عُمال العالم، فأرسل الاتحاد العالمي للنقابات في 2 نوفمبر برقية يحتجُّ فيها بشدة على العدوان المُشين الذي شنته حكومات بريطانيا وفرنسا وإسرائيل ضدَّ مصر، إن البشرية بأسرها تستنكر هذا التدخل العسكري وتُعدُّه عملاً وحشيًّا.

وفي 17 نوفمبر، اجتمع المكتب التنفيذي للاتحاد العالمي للنقابات، وأصدر القرارات الآتية:

- حثّ العمال على جمع التبرعات والأغذية والأدوية لصالح الشعب العربي.
- إرغام الحكومات المعتدية على تعويض مصر من خسائر الحرب.
- التبرع بما يعادل 5000 جنيه استراليني لشعب مصر.

كما قرَّر عُمال الصين الشعبية زيادة ساعات عمل إضافية من أجل مصر؛ وكوَّنوا اللجنة الصينية لمساعدة مصر.

وأرسل اتحاد عمال النسيج للصين الشعبية برقية لرئيس اتحاد النسيج والغزل بمصر، جاء فيها: نحن نؤيد بقوة الشعب، الذي يقاتل في سبيل سيادته القومية وحريته وفي سبيل تحقيق السلام العالمي.

وتبرع عمال تشيكوسلوفاكيا وجمهورية منغوليا الشعبية بمبالغ محترمة لاتحاد عمال العرب.

لقد هبّ العمال في كل مكان لنصرة مصر أدبيًّا وماديًّا، وأثبتوا بذلك أنهم القوة الرئيسية في الكفاح ضدَّ الاستعمار، وفي مناصرة الشعوب المناضلة عن حريتها واستقلالها؛ ومِن ثمَّ كان للعمال في كافة أنحاء العالم دور حاسم في وقف العدوان.

كان مستحيلاً، إذاً إزاء الكفاح البطولي للشعب المصري، وإزاء التأييد العملي لملايين الشعوب في آسيا وأوروبا وإفريقيا، و إزاء الموقف الصلب الحازم للاتحاد

السوفيتي، وللصين الشعبية ولبقية المعسكر الاشتراكي، و إزاء مساندة الشعوب العربية ومعظم دولها، إلا أنْ يصاب الاستعمار الأنجلو فرنسي بهزيمة ساحقة آذنت بانهياره تماماً.

-4-

موقف الولايات المتحدة

لا شك أن الولايات المتحدة قد انضمت إلى صفوف الدول المعارضة للعدوان .

لقد صرح إيزنهاور: إن بريطانيا وفرنسا وإسرائيل قد أخطأت التقدير في عدوانها على مصر، فإسرائيل كانت تعلم أن بريطانيا وفرنسا ستشتركان في المعركة، وأن المعركة لن تستمر طويلاً، وستنتهي بنصرها، مما يُرغِم مصر على عقد صلح معها، كذلك كانت تظن بريطانيا وفرنسا أن انتصارهما على مصر سوف يُرغمها على تدويل قناة السويس، وكانت هذه الدول الثلاثة تعتقد أيضاً أن الولايات المتحدة ستؤيدها وستخذل قرارات الأمم المتحدة.

وقال هنري كابوت لودج مندوب أمريكا في الأمم المتحدة: إن أمريكا تشعر أن بريطانيا وفرنسا قد أقدمتا على خطأ كبير بانتهاكها ميثاق الأمم المتحدة.

كما أيدت أمريكا سواء في مجلس الأمن أو الجمعية العمومية لهيئة الأمم، قرار وقف النار، وقرار الانسحاب للقوات العدوانية من الأراضي المصرية.

ولا شك أن هذا الموقف من جانب الولايات المتحدة كان له أثره في وقف العدوان والانسحاب.

ولكن المسألة القائمة والتي لا تزال موضع بحث تاريخي هي: هل كانت أمريكا تعلم مُقدَّماً بأمر هذا العدوان؟ وهل كانت موافقة عليه بشكل مباشر أو غير مباشر من الناحية الفعلية؟

لا شك أن الإجابة على هذه المسألة تتطلب الاطلاع على أخص الوثائق السرّية والمحادثات الخاصة بين رؤساء الدول ورؤساء الوزارات في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإسرائيل.

ولكـن هنـاك جانـب مـن الحقائـق يسـترعي النظـر ويـدل عـلى أن أمريـكا كانـت عـلى علـم سـواء بطريـق مبـاشر أو غـير مبـاشر بهـذا العـدوان، وأنهـا لم تتخـذ أيـة خطـوات إيجابيـة عـلى الأقـل لوقـف هـذا العـدوان.

أنـه قـد جـاء في خطـاب دالاس في مؤتمـر لنـدن الثـاني الخـاص ببحـث مشـكلة القنـال والـذي تمخَّـض عـن جمعيـة المُنتفعـين عبـارات تـدلُّ عـلى عـدم اسـتنكاره اسـتخدام القـوة، وذلـك قبـل العـدوان.

فقـد قـال دالاس: إننـا جميعـا نرغـب في عـدم اسـتعمال القـوة. ولكـن هـذا هـو وجـه واحـد مـن وجهـي العملـة، إننـي لا أهتـم بصـدد مـا جـاء في ميثـاق الأمـم المتحـدة مـن كلـمات عـن عـدم اسـتخدام القـوة، طالمـا كانـت هنـاك مسـائل لا يمكـن أن تحـلَّ إلا بالقـوة!

كانـت هـذه هـي الفلسـفة- كـما يقـول فتحـي خليـل- التـي قدَّمهـا دالاس للمُجتمِعـين في مؤتمـر لنـدن الثـاني، فلسـفة الحـرب.

إنـه أثبـت أن الولايـات المتحـدة شـجعت بشـكل غـير مبـاشر عـلى إرسـال أسـلحة لإسرائيـل في فـترةٍ مـا بعـد تأميـم القنـاة، وإسرائيـل كـما هـو معلـوم، متوقفـة حياتهـا وصادراتهـا وتمويلهـا عـلى الولايـات المتحـدة، وهـي بذلـك لا يمكـن أن تتحـرك حركـة واحـدة، تعلـم حقًّـا أنهـا تغضـب سـيدتها الحقيقـة أمريـكا.

إن أمريـكا أخـذت تسـحب رعاياهـا مـن مـصر وسـوريا والأردن ابتـداء مـن 29 أكتوبـر 1956، أي يـوم العـدوان الإسرائيـلي عـلى مـصر. ولـو كانـت المسـألة مجـرَّد عـدوان إسرائيـلي، لمـا كان هنـاك أي خطـر لـه قيمـة يمكـن أن يهـدد الرعايـا الأمريـكان في مـصر أو بقيـة الـشرق العـربي.

وقـد قـال الجـنرال الأمريـكي راندولـف بيـت في تصريـح لـه: إن قـوات الأسـطول السـادس الأمريـكي في البحـر الأبيـض كانـت مسـتعِدة لشـق طريقهـا إلى القاهـرة، إذا دعـت الـضرورة لإنقـاذ الرعايـا الأمريكيـين! وإن فرقتـين مـن فـرق البحريـة الأمريكيـة الأولى تحركتـا لتقويـة الأسـطول الأمريـكي في البحـر الأبيـض، وفي الخليـج الفـارسي.. وإن أوامـر صـدرت لتعزيـز القـوات الأمريكيـة، خوفـاً مِـن اسـتيلاء المتطرفـين في مراكـش عـلى القاعـدة الأمريكيـة هنالـك، لتعطيـل تحـركات القـوات الأمريكيـة! وإن الأسـطول الأمريـكي في البحـر الأبيـض كان مـزوَّداً بالأسـلحة الذريـة!

هـذه الاسـتعدادات كلهـا، أكانـت لمجـرد إنقـاذ الرعايـا الأمريكيـين؟ أم توحـي بـأن الولايـات المتحـدة كانـت تُعـد العُـدة للوثـوب هـي الأخـرى في اللحظـة المناسـبة؟

إنــه ثابــت أن القــوات العدوانيــة عــلى مــصر قــد اســتخدمت أســلحة حِلــف الأطلنطـي. وقـد احتجَّـت الولايـات المتحـدة رسـميًا عـلى ذلـك، ولكـن أكان مسـتحيلاً عـلى قائـد قـوات الحلـف الأطلنطـي وهـو أمريـكي أن يَحُـول دون هـذا الاسـتخدام لأسـلحة الحلـف؟

ثـم أي إجـراءات عمليـة اتخذتهـا الولايـات المتحـدة لوقـف العـدوان ؟ لقـد اكتفـت بـأن تؤيـد قـرارات الجمعيـة العموميـة في وقـف العـدوان والانسـحاب فـوراً مِـن مـصر. إن أسـطولَها السـادس كان موجـوداً في البحـر الأبيـض. وكان يكفـي أبسـط اعـتراض منـه لوقـف العـدوان فـوراً، بـل أكـثر مـن هـذا رفضـت الولايـات المتحـدة بشـكل حاسـم عـرض الاتحـاد السـوفيتي في اسـتخدام قـوات مشـتركة مـن البلديـن، لوقـف العـدوان بالقـوة المسلحة، إذا أصرت القـوات العدوانيـة عـلى المُضي في عدوانهـا رغـم قـرارات الجمعيـة العموميـة للأمـم المتحـدة. ومـا جـدوى المواقفـة الرسـمية عـلى قـرارات بوقـف العـدوان، إذا لم تصحبهـا الإجـراءات العمليـة لتنفيذهـا؟

ثـم مـاذا كان موقـف الولايـات المتحـدة حينـما أعلـن الاتحـاد السـوفيتي عزمـه عـلى سـحق العـدوان. وحـين وجـه إنـذاره للـدول الثلاثـة المعتديـة؟

لقـد أعلنـت الحكومـة الأمريكيـة تحذيرهـا للاتحـاد السـوفيتي، وقالـت: إن تلـك المحاولـة سـتُقابَل بمعارضـة مـن الحكومـة الأمريكيـة.

وقـال نيكسـون نائـب رئيـس الولايـات المتحـدة: يجـب أن يعلمـوا أننـا لـن نتأخـر عـن نجـدة حلفائنـا إذا جـاء المتطوِّعـون الـروس. وحلفاؤنـا هُنـا هـم إنجلـترا وفرنسـا وإسرائيـل!

وقـال إيزنهـاور: إن روسـيا تؤيـد أحـد الطرفـين في معركـة الـشرق الأوسـط (أي تؤيـد العـرب) بينـما تتجاهـل مصالـح الطـرف الآخـر (أي إسرائيـل وبريطانيـا وفرنسـا) ولكـن الولايـات المتحـدة تسـتهدف العدالـة التامـة للطرفـين فهـي ترغـب في صداقـة كل مـن الـدول العربيـة وإسرائيـل؛ لأنهـا تشـعر أن كلًّا منهـما يحتـاج إلى الآخـر. وأنـه عقـب تسـوية تلـك المسـألة، سـتعود الصداقـة الأمريكيـة مـع بريطانيـا وفرنسـا أقـوى مـما كانـت في أي وقـت مَـضَى!

واضـح أن سياسـة الولايـات المتحـدة كانـت مزدوجـة الوجـه: وجـه رسـمي ظاهـري في مجلـس الأمـن والجمعيـة العموميـة للأمـم المتحـدة، يسـتنكر العـدوان لفظـاً وظاهريًـا، ولكـن الدوائـر الحاكمـة في الولايـات المتحـدة لم تكـن راغبـة قـط في اتخـاذ أيـة إجـراءات عمليـة لوقـف العـدوان الأنجلـو فرنسـي الإسرائيـلي عـلى مـصر.

بـل عـلى العكـس كانـت تُعـد العُـدة سياسـيًّا وعسـكريًّا للـضرب في الوقـت المُناسـب!

وما السرُّ في هذ الوجه المزدوج؟

إن الولايـات المتحـدة كانـت مُقبلـة عـلى انتخابـات الرئاسـة، وكان صعبـاً ألا تُراعـي الدوائـر الرجعيـة ذاتهـا، رغبـة للشـعب الأمريـكي في السـلام وعـدم الدخـول في مغامرات حربيـة شـأن مغامـرة كوريا.

لقـد كان زعـماء الحـزب الجمهـوري أنفسـهم بمـا فيهـم دالاس، يروِّجـون أثنـاء الانتخابـات لفكـرة أن العالَـم مُقبـل عـلى سـلام وازدهـار. بـل أشـار دالاس في خُطَبِـه الانتخابيـة إلى أن الولايـات المتحـدة تريـد أن تعتمـد أساسـاً عـلى القـوة الأدبيـة للأمـم المتحـدة!

كـما أن العـدوان عـلى مـصر أثـار - كـما رأينـا - مـن السـخط العالمـي والتحـرك الفعـلي للشـعوب، مـما جعـل الدوائـر الرجعيـة في الولايـات المتحـدة تـتردد في تأييـده تأييـداً رسـميًّا.

ولكـن هنـاك أسـباب لا تقـل أهميـة عـن هـذه الأسـباب، ألا وهـي سياسـة الاحتـكارات الأمريكيـة، التـي تهيمـن في الواقـع عـلى السياسـة الخارجيـة والداخليـة للولايـات المتحـدة.

لقـد كانـت هـذه الاحتـكارات تتطلـع منـذ أمـدٍ بعيـد لـثروات الشرقـين الأدنى والأوسـط: بترولهـا، وسـوقها والانفـراد بهـذه الـثروات.

إن تطلعهـا هـذا يعـود إلى مـا بعـد الحـرب العالميـة الأولى! فقـد طالـب الكولونـل هـاوس، وهـو يعلِّـق عـلى نقـاط الرئيـس ولسـن الأربعـة عـشرة، بـضرورة وجود سياسـة البـاب المفتـوح في تجـارة الـشرق الأوسـط، وضرورة وضـع القسـطنطينية تحـت إشراف دولي وتكويـن أرمينيـا المسـتقلة.

وكان مَعْنيًّا- بلغة بسيطة- أن تفتح أبواب هذه المنطقة للنفوذ الأمريكي فلا تبقى منطقة احتكار أنجلو فرنسية.

ثم في الفترة ما بين الحربين، بدأ نفوذ الاحتكارات الأمريكية يتسرب إلى الشرق الأدنى في الكويت والبحرين والمملكة العربية السعودية.

ولكن إثر الحرب العالمية الثانية، لم يعد يكفي الاحتكارات الأمريكية مجرَّد سياسة الباب المفتوح ، مجرَّد التسرب التجاري في هذه الأسواق والاستيلاء على امتيازات البترول هناك.

لقد أصبحت الاحتكارات الأمريكية ترغب في السيطرة الكاملة الاقتصادية والسياسية والعسكرية لتضمن سوق هذه المنطقة لها من جانب، ولتكون نقطة وثوب على الاتحاد السوفيتي والبلاد الاشتراكية الأخرى من جانب آخر، ولتستخدم رجال هذه المنطقة وثرواتها في حرب عدوانية ضدَّ المعسكر الاشتراكي من جانب ثالث، وليكون لها وحدها الأرباح الفاحشة من البترول من جانب رابع.

وكانت سياسة الولايات المتحدة تنتهز باستمرار فرصة ضعف أو عجز الاستعمار البريطاني، لتفوز بنصيب الأسد في هذه المنطقة.

ومن ثم كان مبدأ ترومان في سنة 1947 منتهزاً فرصة ارتباك القوات البريطانية في اليونان، وعجزها عن السيطرة على هذه البلاد، ليثبت أقدام الولايات المتحدة في كل من تركيا واليونان، كخطوة للقفز على الشرق الأدنى.

وكان مبدأ ترومان يتضمن المساعدة العسكرية والاقتصادية في نفس الوقت، وتمخَّض آخر الأمر عن إنشاء نقط عسكرية أمريكية في هذين البلدين.

وكانت الحجَّة التي قُدِّمت وقتذاك، هي نفس الحجَّة التي يقدِّمها اليوم مشروع إيزنهاور ألا وهي الخطر الشيوعي والحرص على استقلال هذه البلاد ضدَّ الغزو الشيوعي من الخارج والنشاط الهدَّام في الداخل.

وكانت الاحتكارات الأمريكية تنتهز فرصة أي ارتباك من جانب إنجلترا في منطقة الشرقين الأدنى والأوسط، لتزيد من قبضتها سواء البترولية منها أو العسكرية أو السياسية وكان واضحاً هذا في بترول إيران والأرقام التالية تدلُّ على مدى هذه السياسة. ففي سنة 1937 لم تكن الولايات المتحدة تملك من بترول الشرق الأوسط أكثر من 12.8% بينما كان لإنجلترا السيطرة على 80.9% من هذه المنطقة

14.4% بينما تهبط حصة بريطانيا إلى 50.9% وما أن يحل عام 1956 حتى ترتفع الاحتكارات الأمريكية إلى 65% من بترول الشرق الأوسط، وتهبط حصة بريطانيا إلى 30%! أي أن أكثر من نصف البترول الذي كانت تملكه بريطانيا تسرَّب إلى الاحتكارات الأمريكية في أقل من عشرين عاماً!

والأسطول السادس الأمريكي في البحر الأبيض قد بلغ من الضخامة حتى أصبح ثلاثة أضعاف حجم الأسطول البريطاني في هذه المنطقة. كما تملك أمريكا أضخم قواعد طيران في منطقة الشرق الأوسط.

ولهذا لم يكن للاحتكارات الأمريكية مغنم من الاشتراك مع القوات الأنجلو فرنسية الإسرائيلية في العدوان على مصر. إن اشتراكها إذ ذاك معناه أن تتقاسم مع الإمبراطوريتين في هذه المنطقة، وهي تريد الانفراد بالنفوذ وحدها، ولهذا فضلت الاحتكارات أن تُدين العدوان، وأن تؤيد قرارات الأمم المتحدة بالنسبة لوقف القتال وانسحاب القوات المعتدية، لتكسب نفوذاً أدبيًّا في هذه المنطقة، هذا في الوقت الذي كانت تعد فيه العدة لضربتها في الوقت المناسب.

ولكن الاحتكارات الأمريكية لم تكن مستعدة في نفس الوقت أن تمضي في إدانتها لهذا العدوان إلى حدٍّ اتخاذ خطوات عملية عسكرية لوقف هذا العدوان. إذ معناه أن تقضي قضاء نهائيًّا على التحالف الغربي. والاحتكارات الأمريكية رغم حرصها على ابتلاع كافة مناطق نفوذ الإمبراطوريتين المنهارتين، إنجلترا وفرنسا إلا أنها لا تنسى أن عدوَّها الألدَّ هو الاتحاد السوفيتي والمعسكر الاشتراكي، ثمَّ المحركات التحريرية في المستعمرات التي لا يدلها آخر الأمر أن تقضي على كل مطامع الاحتكارات والاستعمار بما فيها الاحتكار والاستعمار الأمريكي ولهذا تحرص الدوائر الحاكمة في الولايات المتحدة على الإبقاء على الحلف الغربي نفسه وعلى صداقة إنجلترا وفرنسا وقد عبَّر دلاس عن هذا الأمر في صراحة حين قال في الجلسة الأخيرة لمجلس حلف الأطلنطي: إنه لابد من استبعاد سوء التفاهم القائم بين أمريكا من جهة وفرنسا من جهة أخرى، وأنهم سيعملون على إيجاد تفاهم أقرب وأوثق.. ضدَّ مَن ؟ بالطبع ضدَّ شعوب آسيا وإفريقيا، وضدَّ الشعوب المُحبة للسلام في كل أنحاء العالم.

مِن هذا نستطيع أن ندرك تماماً، سرَّ الازدواج في موقف الولايات المتحدة بالنسبة للعدوان على مصر.

*مبدأ دالاس - إيزنهاور:

ومن هذا نستطيع أن نفهم أيضاً ما وراء مشروع إيزنهاور الذي قدَّمه للكونجرس الأمريكي، والذي عُرف بمبدأ إيزنهاور - دالاس"

ففي الوقت الذي لاقى فيه العدوان الأنجلو فرنسي على مصر، هزيمة ساحقة، وفي الوقت الذي صفيت فيه مراكز الاستعمار الأنجلو فرنسي في الشرق العربي، وفي الوقت الذي رفضت فيه الولايات المتحدة رفضاً باتًّا أن تستخدم قواتها المسلحة لوقف هذا العدوان بالاشتراك مع القوات السوفيتية، وفي الوقت الذي كانت تتطلع فيه دول الشرق العربي إلى مزيد من الاستقرار، وتطوير استقلالها السياسي والاقتصادي، نرى إيزنهاور يخرج بما يسميه سياسته بالنسبة للشرق الأوسط.

والنظرة السريعة لهذا المشروع، كما تقدَّم به إيزنهاور للكونجرس، تدل على حقيقة النوايا الأمريكية في هذه المنطقة.

فالحجة الرئيسية التي يتذرَّع بها المشروع للتدخل المسلح دون إذن من الأمم المتحدة في الشرق الأوسط، هي العدوان الشيوعي المزعوم. ومع هذا يعترف الرئيس إيزنهاور في مشروعه هذا اعترافاً صريحاً وبالنصِّ الواحد على أن رغبة روسيا في السيطرة على الشرق الأوسط لا تنبع من مصالحها الاقتصادية في هذه المنطقة، فروسيا لا تستخدم قناة السويس استخداماً رئيسيًّا، ولا تعتمد عليها. فمقدار حركة مرور السفن السوفيتية في القنال عام 1955 لم تكن تتجاوز ثلاثة أرباع المائة من جملة حركة السفن هنالك. والسوفيت لا يحتاج إلى موارد البترول التي تكوِّن الثروة الرئيسية الطبيعية في تلك المنطقة، هم لا يمكن أن يكونوا سوقاً لبترول هذه المنطقة، إذ أن الاتحاد السوفيتي هو في الواقع مصدِّر كبير لمنتجات البترول.

ولكن سبب اهتمام روسيا في منطقة الشرق الأوسط هو سياسة القوة فقط، فنظراً لأنَّ هدفها الذي تُعلنه هو تحويل العالم إلى الشيوعية، فمن السهل أن نفهم أملها في السيطرة السريعة على الشرق الأوسط.

هذا هو كلام إيزنهاور بالحرف، ونحن نعلم من تتبع تاريخ العالم كله، أن الرغبة في السيطرة كان مبعثها دائماً هو المصالح الاقتصادية، مهما اتخذت من أثواب وأعذار مختلفة.. فإذا ما انتفى الصالح الاقتصادي ، انتفت قطعاً الرغبة

في السيطرة، وقد صرَّح زعماء الاتحاد السوفيتي بشكل قاطع أن الشيوعية ليست للتصدير، ولا يمكن أن نتصور أن مبدأ مُعيناً يمكن أن يفرض بالقوة على أي بلد ما. إن محاولة فرضه بالقوة، يجعل هذا المبدأ كريها غير محبوب، ويأتي بنتائج عكسية تماماً.. ولم يحدث في أي بلد في العالم في تاريخ الإنسانية الطويل، أن سعت بلد للسيطرة على الأخرى واحتلالها لمجرد نشرِ مبادِئ معيَّنة.

إنما كانت السيطرة دائماً لتحقيق أرباح فاحشة أو إيجاد أسواق لتجارة بائرة أو الاستيلاء على مغانم.

وخبرة الشرق العربي خاصة في علاقاته مع الاتحاد السوفيتي تدل بشكل قاطع على أن الاتحاد السوفيتي لا يسعى بأي شكل لفرض أي نوع من السيطرة على أي بلد عربي، فليس هو الذي قام بالعدوان على مصر، وليس هو الذي يشترط أي شرط اقتصادي أو سياسي أو عسكري عندما يمدُّ يد المعونة للشرق العربي.

بل لا يشترط الاتحاد السوفيتي قطع علاقاتنا بالغرب بل ولا يسعى بأي شكل لتسوية علاقتنا بالغرب عندما يتاجر معنا أو يمدنا بالسلاح.

وقد أعلن الاتحاد السوفيتي في أكثر من مناسبة عن سياسته الخارجية، سياسة التعايش السلمي، سياسة الصداقة والتعاون مع كافة البلاد بغض النظر عن نظمها السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، وذلك على أساس المساواة التامة، وعلى أساس احترام سلامتها وأرضها، وعلى أساس عدم التدخل أبداً في شؤونها الداخلية.

ولكن من هي الدول التي لها مصالح اقتصادية في الشرق الأوسط؟... لقد وضح هذا إيزنهاور في رسالته للكونجرس فقال: إن الشرق الأوسط هو مفتاح الطريق بين أوروبا وآسيا وإفريقيا. وإن هذه المنطقة تحوي قرابة ثلثي الاحتياطي من بترول العالم. وإنها هي التي تمدُّ كثيراً مِن شعوب أوروبا بحاجتها من البترول. وأن شعوب أوروبا تعتمد اعتماداً خاصًّا على هذا المورد وهذ الاعتماد لا يقتصر على البترول نفسه وإنما على وسائل نقل البترول أيضاً، وقد اتضح هذا بوضوح أثناء إغلاق القنال وتخريب بعض أنابيب البترول.. وهذه الأشياء كلها تؤكد الأهمية القصوى للشرق الأوسط.

وقد أكد ترومان الرئيس السابق للولايات المتحدة هذا المعنى حين قال في رسالة له تعليقاً على مبدأ إيزنهاور: لا نستطيع أن نتردد، ولا نجرؤ على النكوص فيما ينبغي عمله في الشرق الأوسط، فإن سلام واقتصاد العالم كله يتوقف على الموارد المركَّزة في هذه المنطقة.

وأنت تَشْتَمُّ من هذه الأقوال، مصالح احتكارات البترول الأمريكية الواضحة، فهي المُهيمنة على بترول الشرق الأوسط وهي التي تربح من ورائها أرباحاً فاحشة قُدِّرت في عام 1955 وحده بما لا يقل عن ألف مليون دولار!

وطبيعي أن تُرهِب هذه الاحتكارات حركة الاستقلال السياسي والاقتصادي التي بدأت تشتد في هذه المنطقة.

إن تأميم عبد الناصر لشركة قناة السويس، إنما هو حافز للبلاد العربية أن تؤمِّم بترولها، لتفوز لنفسها بالمكاسب الفاحشة التي تذهب إلى جيوب هذه الاحتكارات. وها هو ما تقوله مجلة لايف الأمريكية في عددها الصادر في 12 نوفمبر سنة 1956: إن قوة ناصر تتجلَّى في سلاحين؛ زيادة الرسوم في القنال وإلا أغلق ناصر القنال. ثم إنه قد يدفع بفضل نفوذه في العالم العربي، بلاد الشرق الأوسط، لتمزيق الامتيازات التي منحتها وتأميم البترول، وأنابيب البترول، ومعامل التكرير التي شيَّدتها الاستثمارات والكشوف الغربية في مدى نصف قرن!

وتستطرد المجلة قائلة: إن مخزون البترول الخام في الشرق الأوسط يقدر بمائتين وثلاثين بليون برميل!.. كما أن إنتاجية البترول في الشرق الأوسط مرتفعة كل الارتفاع، فلكل قدم من الآبار المفحورة في الولايات المتحدة تنتج أقل من30 برميلاً!

فالبترول الخام للشرق الأوسط هو أرخص بترول في العالم.. فهل يبرر شعار التأميم السياسي، تمزيق عقود البترول والاستيلاء على ملكية الشركات؟

هذا هو ما قالته مجلة كبرى تعبِّر أصدق تعبير عن مصالح الاحتكارات الأمريكية، وهكذا هو حجر الزاوية في مبدأ إيزنهاور الجديد، ولكن كيف تضمن شركات البترول احتكاراتها وأرباحها الضخمة؟ وكيف تأمن تأميمها؟ إنه لابد من السيطرة السياسية الكاملة على بلاد الشرق الأوسط.

وكيف تحقق هذه السيطرة؟ بالاحتلال المسلح!

ومـن ثـم جـاء مـشروع إيزنهـاور، يطالـب الكونجـرس أن يخـوِّل لـه: اسـتخدام القـوات المسـلحة للولايـات المتحـدة لضـمان وحمايـة السـلامة الإقليميـة والاسـتقلال السـياسي لهـذه الشـعوب.. ضـدَّ أي عـدوان مسـلح مـن أي شـعب واقـع تحـت سـيطرة الشـيوعية الدوليـة.. ولكـن الدوائـر الحاكمـة في الولايـات المتحـدة تـدرك جيـداً أنـه لـن يحـدث أي عـدوان مسـلح مـن الـدول الشـيوعية. ومـن ثـمَّ يتـدارك مـشروع إيزنهـاور هـذه المسـألة بقولـه:

إن التشريـع المقـترح يسـتهدف في المحـل الأول أن يتنـاول إمكانيـة أي عـدوان شـيوعي مبـاشر أو غـير مبـاشر.

وهنـا يتسـع المجـال لاسـتخدام القـوات المسـلحة الأمريكيـة للسـيطرة التامـة عـلى الـشرق الأوسـط بحجـة حمايتهـا مـن عـدوان شـيوعي غـير مبـاشر!

ولكـن الرئيـس إيزنهـاور لم يملـك في رسـالته أن تفلـت منـه بعـض عبـارات تـدل عـلى الطبيعـة الحقيقيـة لهـذا التدخـل العسـكري!

فهـو يقـول بالنـص الواحـد: ينبغـي أن أضيـف أن الوطنيـة، في هـذه المنطقـة عاطفـة قويـة.. ولكـن الخـوف أحيانـاً يشـوِّه الوطنيـة الحقـة ويحوِّلهـا إلى تعصـب وإلى قبـول مغريـات خطـيرة مـن الخـارج.

وهـذه نغمـة قديمـة! فالحركـة الوطنيـة دائمـاً كانـت في نظـر الدوائـر الاسـتعمارية تعصبـاً! ولكـن النغمـة الجديـدة، هـي قبـول مغريـات مـن الخـارج، وقـد أفصـح ترومـان عـن هـذا في تعليقـة عـلى مـشروع إيزنهـاور، فهـو يـراه غـير كاف، وهـو يقـترح أولاً أن يفـرض الحظـر عـلى أي شـحن للأسـلحة والذخـيرة مـن جانـب روسـيا للـشرق الأوسـط... إني أسـمع بـأن الـروس ماضـون في إرسـال أسـلحة لسـوريا، وإني أتوقـع أنهـم سيسـتأنفون الإرسـال لمـصر، ويحـب أن يُحـذَّر الـروس بـأن يوقِفـوا هـذه الأمـور.

وعقـد صفقـات تجاريـة مـع المعسـكر الاشـتراكي يدخـل أيضـاً في بـاب المغريـات الخطـيرة مـن الخـارج. وهكـذا يريـد مـشروع إيزنهـاور أن يفـرض علينـا قيـوداً في تسـليحنا وفي تجارتنـا الخارجيـة بدعـوى الخطـر الشـيوعي المبـاشر وغـير المبـاشر!

ثـم فَلْتـة أخـرى جـاءت عـلى لسـان إيزنهـاور فهـو يقـول: في الموقـف القائـم الآن، يكمـن الخطـر الأكـبر، كـما هـو الحـال غالبـاً، في إسـاءة تقديـر بعـض المسـتبدين الطامحـين!

وقد علقت جريدة نيويورك تيمس: إن الرئيس قد رد بذلك على هؤلاء الذين كانوا يخشون، بعد معارضة واشنطن للغزو الإنجلو فرنسي لمصر، إن هذه البلاد (أي الولايات المتحدة) كانت ستتخذ موقفاً محدوداً, سلميًّا بالنسبة للتطورات في هذه المنطقة!

وكلمة مستبد، ومستبدين، قد استخدمها العدوانيون الإنجليز والفرنسيون والإسرائيليون لتبرير عدوانهم على مصر، فقد نعتوا الرئيس عبد الناصر بكافة النعوت التي يمكن أن يتصورها أو لا يتصورها العقل! وها هي الإشارة مرة أخرى تبدو في ثنايا مشروع إيزنهاور لتبرير استخدام القوات المسلحة!

ثم ما الذي تقدمه الولايات المتحدة مقابل السيطرة العسكرية والسياسية على مصر؟

معونة اقتصادية لا تتجاوز 200 مليون دولار في السنة المالية 1958 و200 مليون دولار أخرى في السنة المالية 1959، وذلك للشرق الأوسط كله، بما فيه إيران وإسرائيل ، معونة لا توازي خُمس ما تحققه الشركات الاحتكارية الأمريكية من أرباح صافية من بترول الشرق الأوسط! معونة يخوِّل للرئيس استخدامها وفق تصرفه هو كسلاح اقتصادي، فقد قال الرئيس إيزنهاور: إنه من الضروري أيضاً أن تساهم اقتصاديًّا لتقوية هذه البلاد التي لها حكومات قد وهبت نفسها بوضوح للمحافظة على الاستقلال ومقاومة النشاط الهدام!

وأي بلاد تنطبق عليها هذه الشروط فيعرف الدوائر الحاكمة الأمريكية إنها عِراق نوري السعيد، وتركيا مندريس.

أمَّا مصر وسوريا والأردن، فهي في نظر الاحتكارات الأمريكية، وفي نظر دالاس، المعبِّر عن هذه المصالح، دول شيوعية، أو خاضعة للشيوعية! طالما أنها تُصرُّ على المحافظة على استقلالها السياسي واستقلالها الاقتصادي.

ثمَّ إن لمشروع إيزنهاور جانباً آخر لا يقل خطورة، هو استخدام أراضينا ميداناً لحرب ذرية، تهلك الحرث والنسل. فقد روت الصحافة الأمريكية أن الدوائر الرسمية في الولايات المتحدة تبحث الآن مشكلة إنشاء وحدات أمريكية عسكرية ذرية، مسلَّحة بالأسلحة الذرية، في أراضي البلاد الأخرى، وتتردد أسماء

أوروبا الغربية وتركيا وإيران واليابان وجزيرة أوكينارا كمناطق يُحْتمل أن تعسكر فيها هذه الوحدات الذرية.

ومعنى هذا ببساطة أن تتعرض هذه البلاد لهجوم مضاد ذري من جانب الاتحاد السوفيتي، في حالة إشعال الاستعمار لحرب ذرية. وأن تتلقى هذه البلاد الضربات الذرية الأولى... ولا شك أن مشروع إيزنهاور ودالاس، يرمي إلى استخدام الشرق العربي كله كنقط هجوم ذرية على المعسكر الاشتراكي.. ومعنى هذا بلغة أبسط، أنه مقابل معونة لمصر قد لا تتجاوز 50 مليون دولار في العام، تتحول مصر إلى قاعدة ذرية أمريكية، تُعرِّض مصر للخراب التام.

ثم إن لمشروع إيزنهاور صلة كُبرى بموقف إسرائيل العدوان الآخر، فقد خرجت وزيرة خارجية إسرائيل ورئيس وزرائها، يتحديان قرارات هيئة الأمم المتحدة بالانسحاب فوراً دون قيد أو شرط، ويعلِّقان هذا على ضمانات معيَّنة: حرية الملاحة الإسرائيلية في خليج العقبة وفي قناة السويس، وتدويل منطقة غزة.

وواضح أن إسرائيل ما كانت لتجرؤ على هذا التحدي الوقح لهيئة الأمم المتحدة، لولا إداركها تماماً أن من ورائها الولايات المتحدة، وفعلاً نرى سبعين من أعضاء الكونجرس الأمريكي يتقدمون باقتراحات مشابهة، كما يردد وزير خارجية إنجلترا نفس الاقتراحات.

فإسرائيل هذه قد خلقها الاستعمار خلقاً، كشوكة في جانب الحركة الوطنية العربية، ومنذ قيام إسرائيل كدولة، رأيناها تلعب أقذر اللعبات الاستعمارية، فكانت تستخدم باستمرار في يد الاستعمار الإنجليزي منه أو الأمريكي للقيام بحركات استفزازية، بل وبعدوان مكشوف كوسيلة من وسائل الضغط على حكومات وشعوب الشرق العربي، حتى لا تمضي في سياستها الاستقلالية الوطنية.

وفي الوقت الذي تحمي فيه حكومة الولايات المتحدة واحتكاراتها، إسرائيل وتمولها وتشجِّعها على سياستها العدوانية التعسفية، نرى الرئيس إيزنهاور يتحدث في رسالته إلى الكونجرس عن أنه هناك عوامل أخرى ترتفع عن الماديات، فالشرق الأوسط هو مولد ديانات ثلاثة عظيمة (الإسلام والمسيحية واليهودية)، ولا يطاق أن تخضع الأماكن المقدسة لحُكم يمجِّد المادية الأحادية.

وتذكـر كلـمات إيزنهـاور بالحقائـق المريـرة، عـن الإسـلام والـدول الإسـلامية لم تتعـرض للمهانـة والذلـة والتخلـف مثلـما تعرَّضـت لـه أيـام سـيطرة الاسـتعمار،وإن الإسـلام والـدول الإسـلامية في الـشرق المـصري ليسـت في حاجـة إلى حمايـة أمريـكا، فقـد كانـت موجـودة قائمـة ومزدهـرة قبـل أن تكتشـف أمريـكا نفسـها.

وعـن المسـلمين والمسـيحيين في الـشرق العـربي اليـوم لا يطلبـون أكـثر مـن أن يتركهـم إيزنهـاور والولايـات المتحـدة وإنجلـترا وفرنسـا، دون تدخـل مسـلَّح، بـل دون معونـة اقتصاديـة، وهـم الكفيلـون بتطويـر اقتصادهـم في ظـلِّ حكومـات وطنيـة مسـتقلة.

والمسـلمون والمسـيحيون في الـشرق العـربي لا يسـتفزهم اليـوم، مثلـما تسـتفزهم إسرائيـل ودوائرهـا الحاكمـة الخاضعـة تمامـاً لتوجيـه أمريـكا وإنجلـترا وفرنسـا.

إن الطائـرات والدبابـات والمدافـع التـي قتلـت آلاف المسـلمين والمسـيحيين في بورسـعيد والقاهـرة والإسـكنْدرية، إنمـا كانـت أسـلحة إسرائيليـة إنجلـو فرنسـية بـل أسـلحة أمريكيـة، مـن هـذه التـي تـزود بهـا الولايـات المتحـدة حلـف الأطلنطـي!

إن مـشروع إيزنهـاور ليـس بالشـيئ الجديـد عـلى منطقـة الـشرق الأوسـط ولا الـشرق العـربي، إنـه متابعـة صريحـة للسياسـة الاسـتعمارية، التـي درجـت عليهـا كل مـن بريطانيـا وفرنسـا، الاسـتعمَارين العجوزَيـن، وهـي تسـتخدم نفـس الأسـلحة الفكريـة، ونفـس التهديـد بالقـوة المسـلَّحة، ونفـس الأسـاليب العدوانيـة، ونفـس الضغـط الاقتصـادي.. مسـترة تحـت سـتار المحافظـة عـلى اسـتقلالنا وسـيادتنا ضـدَّ الغـول الشـيوعي المزعـوم! أو تحـت سـتار المحافظـة عـلى ديننـا! وإذا كانـت الـدول العربيـة قـد نجحـت في التخلـص مـن الاسـتعمار الأنجلـو فرنـسي والقضـاء عليـه، فهـي لا شـك ناجحـة في الوقـوف أمـام التهديـد الاسـتعماري الأمريـكي.

كـما يلاحـظ أن السياسـية الأمريكيـة تقـوم اليـوم عـلى أسـاس البلطجـة السياسـية، سياسـة التخويـف والتهديـد، ففـي الوقـت الـذي لا زال فيـه مـشروع إيزنهـاور موضـع بحـث مـن الكونجـرس، نـرى الرئيـس إيزنهـاور يصـدر أوامـره للأسـطول السـادس أن يقـوم بتحـركات إرهابيـة، وتشـاع الشـائعات عـن تسـليحه بأسـلحة ذريـة، حتـى تندفـع بعـض الـدول العربيـة فتؤيـد المـشروع وتعلـن موافقتهـا عليـه، ومـن ثـمَّ تكـون هـذه بمثابـة حجَّـة لـدى إيزنهـاور ودالاس لحمـل الكونجـرس عـلى الموافقـة عليـه. إن ثبـات الـدول العربيـة وإصرارهـا عـلى عـدم قبـول هـذا المـشروع واسـتنكارها لـه، مـن شـأنه

أن يشـيع الانقسـام في الدوائـر الحاكمـة في الولايـات المتحـدة، فـلا يمـضي مـشروع إيزنهـاور في سـهولة.

إن الشـعوب العربيـة في ظـروف مواتيـة حقًّـا اليـوم، فهنالـك ارتفـاع للوعـي والإحسـاس بالكرامـة والقـوة لم يسـبق لـه مثيـل، وهنـاك حكومـات وطنيـة عربيـة في سـوريا والأردن ومـصر، تقـف في جـرأة إزاء المطامـع الاسـتعمارية وهنـاك الوحـدة العربيـة التـي تـزداد قـوة عـلى مـرِّ الأيـام....

وهنـاك قـوى عالميـة ضخمـة تؤيدهـا. فلـم تمـض أيـام عـلى مبـدأ إيزنهـاور، حتـى خرجـت الحكومتـان السـوفيتية والصينيـة. وهـما أقـوى دولتـين اشـتراكيتين في العـالم تضـمَّان 800مليـون مـن البـشر، ومجهزتـين بأحـدث الأسـلحة، بمـا فيهـا الأسـلحة الذريـة والهيدروجينيـة، تقـولان في بيـان مشـترك، هـذا نـصُّ إحـدى فقراتـه: إن كلا الجانبيـن يلاحظـان أنـه إثـر هزيمـة بريطانيـا وفرنسـا وإسرائيـل في عدوانهـا عـلى مـصر، يسـعى الاسـتعمار الأمريـكي في اسـتغلال الموقـف ليحـلَّ محـلَّ الـدول الاسـتعمارية - بريطانيـا وفرنسـا - في الشرقـين الأدنى والأوسـط، كـما يسـعى للقضـاء عـلى حركـة الاسـتقلال القومـي واسـتعباد شـعوب هـذه البـلاد، ويحـاول أيضـاً أن يسـارع مـن سياسـة العدوان والاسـتعدادات الحربيـة في تلـك المنطقـة.

وهـذا هـو بالدقـة جوهـر مـا يسـمَّى بمبـدأ إيزنهـاور. إنَّ السياسـة الاسـتعمارية للولايـات المتحـدة في منطقـة الشرقيـن الأدنى والأوسـط، لمِـن شـأنهما أن تخلُقـا توتـراً جديـداً في هـذه المنطقـة التـي كانـت أخـيراً ميـدان معـارك سـبَّبها العـدوان عـلى مصر.وتديـن حكومتـا الاتحـاد السـوفيتي وجمهوريـة الصـين الشـعبية، في عـزم سياسـة الولايـات المتحـدة هـذه، وهـما مسـتعدتان لأن تسـتمرا في بـذل التأييـد الـلازم لشـعوب الشرقيـن الأدنى والأوسـط، حتـى يحـولا دون أي عـدوان أو تدخـل في شـؤون بـلاد هـذه المنطقـة.

وتتمسـك الحكومتـان، بهـدف التصفيـة التامـة لنتائـج العـدوان الاسـتعماري عـلى مـصر، بوجـوب إجابـه الحكومـة المصريـة لمطالبهـا المشروعـة بالنسـبة لتعويـض كامـل مـن جانـب بريطانيـا وفرنسـا وإسرائيـل عـن الخسـائر التـي سـببتها الأعـمال العدوانية.

وتقـف الحكومتـان في عـزم ضـدَّ أي مؤامـرات اسـتعمارية تسـتهدف إعـادة وضـع قنـاة السـويس تحـت إشراف دولي، وهـما يؤيـدان تسـوية المسـألة الخاصـة بحريـة

الملاحة في قناة السويس، عن طريق مفاوضات بين الدول المختصة في الأمر ، مع الاحترام الكامل للسيادة المصرية.

••••

ثم هناك الدول الأسيوية والأفريقية المُحبة للسلام.

إن الظروف مواتية حقًّا، تجعلنا قادرين فعلاً على هزيمة الاستعمار الأمريكي، كما هزمنا الاستعمارين الإنجليزي والفرنسي.

الفصل الثاني عشر
الغـــــد

لقـد قطعـت مـصر كـما رأينـا، شـوطاً مـن تطورهـا الاقتصـادي والسـياسي، ولكـن عجلـة التطـور ذاتهـا لا يمكـن أن تقـف ... فـماذا في الغـد؟

وقبل أن نبحث هذا، يجب أن نحدِّد في دقة علمية حالة مصر اليوم.

فـلا يمكـن أن نصـف مـصر بأنهـا مسـتعمَرة، أو شـبه مسـتعمَرة، أو منطقـة نفـوذ لدولـة اسـتعمارية.. فمـصر اليـوم مسـتقلة سياسـيًا، وقـد تأكـد هـذا الاسـتقلال بإلغـاء الرئيـس عبـد النـاصر لاتفاقيـة أكتوبـر 1954، التـي كانـت تخـوِّل لبريطانيـا اسـتخدام مـصر كقاعـدة عسـكرية في حالـة العـدوان عـلى تركيـا أو أي بلـد عـربي مُشـترك في ميثـاق الدفـاع المشـترك للجامعـة العربيـة.

ومـصر اليـوم تعمـل جاهـدة لتدعيـم هـذا الاسـتقلال السـياسي باسـتقلال اقتصادي كـما لا يمكـن أن نصـف مـصر اليـوم بأنهـا إقطاعيـة، فمـصر اليـوم بلـد رأسـمالي، رغـم وجـود بقايـا إقطاعيـة.

إلا أن مـصر بلـد رأسـمالي متخلِّـف، فنصيـب الصناعـة مـن الدخـل القومـي فيـه، لا يتجـاوز- عـلى أحسـن تقديـر- 12% مـن هـذا الدخـل، وعـدد الدخـل وعـدد العُـمال

المشـتغلين بالصناعـة لا يتجـاوز 13% مـن مجمـوع الأيـدي العاملـة مـن الذكـور، ممـن تـتراوح أعمارهـم مـا بـين 15، 60 عامـا.

والصناعـة في مـصر لا زالـت متخلِّفـة. فهـي لا زالـت حِرفيـة في كثـير مـن أوجـه نشـاطها. وإلينـا الجـدول الآتي المُسْـتخلَص مـن تقريـر لجنـة الصناعـات (القاهـرة - 1948)

النسبة المئوية للانتاج الحِرفي وإنتاج المصانع

الصناعة	الإنتاج الحرفي	إنتاج
نسيج القطن	55.6	44.6
غزل ونسيج الحرير	43.2	66.7
الأسماك	50	50
الأغذية	64	26

كـما أن الصناعـة المصريـة لا زالـت صناعـة اسـتهلاكية في الغالـب، تنقصهـا صناعـة الوقـود والآلات والصناعـات الكيمائيـة، فهـي أساسـاً صناعـةُ غـزلٍ ونسـيج وأغذيـة.

هـذا إذا اسـتثنينا الاتجاهـات، التـي أخـذت بهـا منـذ 1954، بالبـدء في إقامـة صناعـة للحديـد والصلـب وأخـرى للسـماد، ومعامـل لتكريـر البـترول ذي طاقـة إنتاجية كبـيرة.

وضعـف الصناعـة في بلـد مـا، يترتـب عليه حتـماً تخلـف الزراعـة. فالقـوة الإنتاجية للفـلاح المـصري، وفـق تقديـر الفريـد بونيـه، لا تتجـاوز 90 وحـدة دوليـة، بينـما هـي تبلـغ في نيوزيلنـدا 2444 وحـدة، أي أن الفـلاح الواحـد في نيوزيلنـدا، بسـبب تقـدم الآلات التـي يسـتخدمها، والوسـائل الفنيـة الحديثـة في الزراعـة، ينتـج قرابـة 2500 ضعـف مـا ينتجـه الفـلاح المـصري، كـما أن فـدان القمـح في أمريـكا وفـق تقديـر بعـض مصـادر أمريكيـة، لا يحتـاج إلى أكـثر مـن يومـين وربـع يـوم مـن عمـل الرجـال، أمـا فـدان القمـح في مـصر فهـو يحتـاج إلى 40 يـوم عمـل لنفـس العـدد مـن الرجـال.

وقـد يكـون في هـذه التقديـرات مبالغـة مـن جانـب كُتَّـاب اسـتعماريين، ولكـن الحقيقـة هـي أن الزراعـة في مـصر متخلِّفـة لاسـتخدامها وسـائلَ بدائيـة نسـبيًا.

ومستوى المعيشة للملايين الكادحة في مصر منخفض انخفاضاً واضحاً. ومن بين هذه الملايين من لا يتجاوز دخله الحقيقي ثلاثة أو أربعة جنيهات في العام.

فأي طريق تسلكه مصر لمتابعة نهضتها وتطورها؟ ليس أمام مصر سوى طريقين: طريق التطور الرأسمالي، أي بقاء الملكية الفردية للمصانع والمتاجر والأرض ووسائل النقل سواء كانت ملكية فرد معيّن أو ملكية مُساهمين أو أصحاب سندات في شركات مُساهمة.

أو طريق التطور الاشتراكي، أي الملكية الجماعية للمصانع والأرض والمتاجر ووسائل الإنتاج المختلفة، سواء كانت ملكية لدولة العمال والفلاحين أم ملكية تعاونية، أي ملكية المزارعين في قرية بأسرها.

وليس هناك في نُظُمِ العالم اليوم، ولا يمكن أن يكون هناك غير هذين النظامين.

*طريق التطور الرأسمالي:

ولو تابعت مصر طريق التطور الرأسمالي، فسينتهي الأمر إلى تركيز الملكية لوسائل الإنتاج، في يد حفنة من الشركات والبنوك الكبرى.

وهذا التركيز قائم اليوم إلى حدٍّ كبير. فوق الإحصاء الصناعي في عام 1954 تجد هناك 69مصنعاً تنتج ما يزيد على 50% من جملة الإنتاج الصناعي للمصانع التي توظِّف عشرة عمال فأكثر، كما أنها توظف ما يزيد 44% من عمال هذه المصانع مجتمعة.

ومن دراسة ميزانيات 103 شركة مساهمة، تمثل 22% من مجموع عدد الشركات، وجد أنها تمثل 50% من مجموع رأس المال المدفوع في نهاية 1953.

وهذا التركيز، لو اتبعنا طريق التطور الرأسمالي، سيتطور إلى تركيز أكبر، وإلى دخول البنوك والشركات الكُبرى في اتفاقيات احتكارية، أي سينتهي إلى الرأسمالية الاحتكارية، حيث تسيطر حفنة من كبار أصحاب الأسهم والسندات في الشركات والبنوك على الاقتصاد المصري، يهدف تحقيق أقصى ربح ممكن، عن طريق الإمعان في استغلال العمال، وعن طريق تحديد الكمية المنتجة في بعض النواحي، وعن طريق الضغط على الحكومة والسيطرة عليها لفتح أسواق خارجية لتصريف

مـا يزيـد عـلى القـوة الشرائيـة للسـوق المحليـة وذلـك في النواحـي التـي يكـون في مصلحتهـم زيـادة الإنتـاج فيهـا.

ولكـن مـصر بلـد صغـير محـدود مـوارده، فهـي لا تسـتطيع أن تمـضي في الطريـق الـذي مضـت فيـه الـدول الرأسـمالية الكُـبرى، كإنجلـترا وفرنسـا والولايـات المتحـدة.

وحتـى يمكـن للاحتـكار المـصري، أن يفـوز بـأي نصيـب في السـوق العالميـة فمِـن الـضروري لـه أن يدخـل في اتفاقيـات مـع الاحتـكارات الاسـتعمارية الكُـبرى وبمـا أن هـذه الأخـيرة أقـوى عـشرات الأضعـاف، فالاحتـكار المـصري لـن يفـوز في النهايـة إلا بنصيـب ضئيـل.

ومـن ثـمَّ سـينتهي الأمـر بالاقتصـاد المـصري إلى فقـدان تطـوره المسـتقل، وفقـدان اسـتقلاله، ومـا يتبعـه مـن فقـدان الاسـتقلال السـياسي.

إن إنجلـترا وفرنسـا ذاتهـما، وهـما دولتـان كبيرتـان ذات اقتصـاد متقـدم، مضطرتـان اليـوم، لـو مضيتـا في الطريـق الاحتـكاري لاقتصادهـما، أن يكونـا مجـرَّد ولايتـين أمريكيتـين لا أكـثر ولا أقـل. فـما بالـك بمـصر!

أي أن مـصر لـو تابعـت سـبيل التطـور الرأسـمالي لاقتصادهـا، فسـينتهي بهـا الأمـر إلى أن تصبـح منطقـة نفـوذ لدولـة اسـتعمارية كُـبرى، وسـينتهي بهـا الأمـر إلى أن تفقـد عطـف ومـودة الشـعوب العربيـة جاراتهـا، وإلى إبقـاء جماهيرهـا العامـة في مسـتوى مـن المعيشـة، يـزداد سـوءً يومـاً بعـد يـوم.

*التطور الاشتراكي:

فليـس أمـام مـصر، إذا أرادت رفـع مسـتوى شـعبها المـادي والثقـافي، وإذا أرادت أن تكـوِّن جبهـة عربيـة حقًّـا، إلا أن تسـلك طريـق التطـور الاشـتراكي، في اقتصادهـا.

وليـس هنـاك مـن طريـق واحـد لتحقيـق الاشـتراكية. فهنـاك عـدة طـرق، كل طريـق منهـا يتفـق وظـروف البلـد وطبيعـة اقتصـاده ومـدى تقـدُّم أو تخلُّـف هـذا الاقتصـاد وعلاقـات القـوى الاجتماعيـة والسياسـية في داخلـه.

ولكـن مهـما تعـددت طـرق التطـور إلى الاشـتراكية، إلا أن جوهرهـا الاقتصـادي يسـتمر واحـداً، هـو أن تصبـح المصانـع والتجـارة الخارجيـة ومعظـم التجـارة الداخليـة

ملكاً لدولة العمال الفلاحين، وأن تصبح الأرض بالتدريج ملكية جماعية للمزارعين الذين يفلحون الأرض بأنفسهم.

ولكن هل معنى هذا أنه من الممكن اليوم، التحول فوراً إلى الاشتراكية في مصر؟

إن مثل هذا الأمر ليس من السهل حدوثه... فاقتصادنا متخلِّف ولا زال من الممكن أن يلعب النظام الرأسمالي والملكية الفردية لبعض وسائل الإنتاج دوراً في نهضة البلاد الاقتصادية.

ولكنَّ فرقاً هنالك بين الرأسمالية الطليقة من كل قيد، التي تتطور حتماً إلى نظام احتكاري، وبين الرأسمالية المقيَّدة التي تُحاط بألوان من التوجيه والتشريع والقيود، مما يجعلها تعمل لما فيه صالح الاقتصاد القومي بشكل عام، رغم أساليبها الاستغلالية لعُمَّالها وموظَّفيها.

فماذا ينبغي لمصر أن تصنعه حالياً لتمضي في طريق النمو، غير الطريق الرأسمالي؟

أولاً: المحافظة على استقلالنا:

إن المسألة الرئيسية لتطور اقتصادنا السياسي الذي فزنا به الجملة ناقصة. فمن غير الممكن حدوث نهضة اقتصادية سليمة، إذا عادت السيطرة الاستعمارية إلى بلادنا .

ونحن لا نظن أن الاستعمار سيسكت أبداً عن الهزيمة الساحقة التي لحقته في مصر،وعن الاستقلال السياسي الذي فزنا به، فها هو مبدأ إيزنهاور يهدد باستخدام القوات المسلحة الأمريكية، للسيطرة السياسية والاقتصادية والعسكرية على بلادنا والبلاد العربية الأخرى.. وها هي إسرائيل ومن ورائها الدول الاستعمارية،تصرُّ على عدم الجلاء التامِّ عن غزة وعن جزء من أراضي بلادنا، وها هي مشاريع تُقدَّم لتحويل صفة القوات الدولية لتكون آداة لتنفيذ المآرب الاستعمارية الصهيونية، وها هي مناوراته سواءٌ في الداخل أوالخارج لا تنقطع.

فعلينـا أن نمـضي إذاً، في إعـداد جيـش مـصري وطنـي، مـزود بأحـدث الأسـلحة، مـدرب أقصى تدريـب، متوفـر لـه العلـم الحـربي والفنـون الحديثـة في القتـال، مكـوَّن مـن أكـثر العنـاصر صلابـة وفتـوَّة.

ولا يقـل أهميـة عـن هـذا، أن يُـدرَّب جيشُـنا تدريبـاً سياسـيًّا، أي برفـع الوعـي السـياسي الوطنـي للقـوات المسـلحة، وأن يكـون في كل وحـدة مسـؤول سـياسي، يـشرح للجنـود والضبـاط الـدور الخطـير الملقـى عـلى عاتـق الجيـش المـصري الباسـل، وطبيعـة المعركـة، ومَـن هـم أعداؤنـا وأصدقاؤنـا وأن يـدرس تاريـخ كفاحنـا الوطنـي المجيـد، والـدروس المُسـتخْلَصة مـن هـذا الكفـاح.

وبجانـب الجيـش، يجـب أن يـدرَّب الشـعب المـصري، شـبابه وشـيوخه، نسـاؤه وغلمانـه، عـلى حمـل السـلاح وحـرب العصابـات والمقاومـة السريـة.

لقـد أثبتـت معركـة العـشرة أيـام ضـدَّ العـدوان الأنجلـو - فرنـسي الإسرائيـلي أن الشـعب المسـلح والمـدرب جنبـاً إلى جنـب مـع الجيـش الوطنـي هـو قـوة لا يمكـن قهرهـا في الظـروف الدوليـة الراهنـة.

كـما أن معركـة بورسـعيد الخالـدة، والبطولـة التـي أبداهـا الشـعب لـدرس عظيـم ولـو كان لشـعب بورسـعيد تـدرب أكـبر عـلى السـلاح، وتدريـب أتـمُّ عـلى حـرب العصابـات، وقيـادة محليـة واعيـة لأتى بمعجـزات أكـبر مـن المعجـزة التـي قـام بهـا.

كـما يتعـيَّن علينـا أن نتابـع السياسـة الجريئـة، التـي جـرى عليهـا، الرئيـس عبـد النـاصر تعبـيراً عـن مصالـح الشـعب وأمانيـه، فندعـم روابطنـا الاقتصاديـة والسياسـية والثقافيـة بالمعسـكر الاشـتراكي وبالـدول الآسـيوية والأفريقيـة، ففـي هـذا تدعيـم لاسـتقلالنا السـياسي ولاشـك، ومعاونـة لنـا في تطـور اقتصادنـا تطـوراً مسـتقلًا. وهـذه السياسـة الجريئـة التـي اتبعهـا الرئيـس عبـد النـاصر، قـد برهنـت في أزمـة القنـال عـلى نجاحهـا تمامـاً، فلـو اسـتمر ارتباطنـا التجـاري والاقتصـادي وقفـاً عـلى المعسـكر الاسـتعماري وحـده، ثـم جمَّـد هـذا المعسـكر أرصدتنـا، كـما فعـل إثـر تأميـم القنـاة، لانهـار اقتصادنـا، ولكـن تَحَطُّـم هـذه الروابـط، مكننـا مـن أن نقـاوم الضغـط الاسـتعماري، بـل أن نحطـم هـذا الضغـط دون ثمَّـت عَنـاء.

كـما علينـا أن ندعـم الجبهـة العربيـة، لقـد أصبحـت الجبهـة العربية خـلال المعركة البطوليـة التـي خضناهـا أخـيراً ضـدَّ الاسـتعمار جبهـة قائمـة فعـلاً، كـما قـال الرئيـس

جـمال عبـد النـاصر، فنسـف أنابيـب البـترول في سـوريا والبحريـن، بـل في العـراق وقطـع سـوريا العلاقـات الدبلوماسـية مـع فرنسـا وإنجلـترا، هـذه كلهـا حقائـق تـدل دلالـة سـاطعة عـلى قـوة هـذه الجبهـة.

كـما أن ميثـاق التضامـن العـربي الـذي وقَّـع أخـيراً، فيـه تدعيـم للجبهة، ومسـاعدة لـلأردن عـلى التخلُّـص التـام مـن النفـوذ البريطاني.

كـما أن تكويـن الاتحـاد الفيـدرالي فـوراً مـع سـوريا، وفتـح بـاب هـذا الاتحـاد للـدول العربيـة المسـتقلة، يعتـبر خطـوة خطـيرة مـن أجـل تدعيـم الجبهـة العربيـة في كفاحهـا ضـدَّ العـدو المشـترك، ألا وهـو الاسـتعمار.

إن تخـاذل بعـض الدوائـر الحاكمـة العربيـة عـن الجبهـة، ليـس مـن شـأنه أن يجعلنـا نتشـكك في ضرورة هـذه الجبهـة وإمكانيـة قيامها فعـلاً؛ لأنَّها تعـبِّر فعـلاً عـن مصالـح مشـتركة اقتصاديـة وسياسـية ووطنيـة للشـعوب العربيـة.

ولكـن يتعـيَّن علينـا أن ندعـم الجبهـة العربيـة، بحيـث لا تصبـح جبهـة دول فحسـب، وإنمـا جبهـة شـعوب أيضـاً، لهـا تنظيماتهـا الشـعبية، فاتحـاد عـمال العـرب، يجـب أن يتسـع ليشـمل كافـة تنظيـمات العـمال النقابيـة، كـما يجـب أن يعقبـه اتحـاد الطلبـة العـرب والشـباب العـرب، والمحامـين والمعلمـين والعلـماء، واتحـاد للفلاحـين العـرب.

فالجبهـة العربيـة، جبهـة الـدول والشـعوب مـن شـأنها أن تدعـم اسـتقلال الشـعوب العربيـة، بمـا فيهـا مـصر.

إن الشـعوب العربيـة قوميـات، لـكل منهـا خصائصهـا واقتصادهـا ونظمهـا الاجتماعيـة والسياسـية، ولكـن لهـذه القوميـات مصالـح مشـتركة وعـدو واحـد يهـدد كيانهـا، ألا وهـو الاسـتعمار.

ولهـذا يتعـين عليهـا أن تتلاصـق أشـدَّ التلاصـق، حكومـات وشـعوباً لمواجهـة هـذا العـدو، ولتدعيـم روابطهـا الاقتصاديـة والثقافيـة والسياسـية عـلى أسـاس المسـاواة التامـة والمنفعـة المتبادلـة.

كـما علينـا مناصرة الشـعب العـربي الفلسـطيني المسـتميت مـن أجـل رد الجـزء المُغْتَصَـب مـن أراضيـه، فمُناصرتنـا لـه وفـوزه هـو بمطلبـه الحيـوي، فيـه إضعـاف للصهيونيـة، وحـدّ لمطامـع دولـة إسرائيـل، ومـن ثـمَّ تدعيـم لاسـتقلالنا نفسـه.

ثـم علينـا تدعيـم الروابـط بالقُطْـر الشـقيق: السـودان.. فالروابـط التاريخيـة والاقتصاديـة والسياسـية والثقافيـة بـين مـصر والسـودان، تجعـل للسـودان معنـا وضعـاً خاصًّـا ممتـازاً.. عـلى أن تكـون علاقـات مـصر بالسـودان قائمـة عـلى أسـاس المسـاواة التامـة بـين البلديـن، وتخـدم مصالـح الشـعبين، وتسـاعد عـلى تطـور اقتصادهـما تطـوراً مسـتقلًا..

إن نـداء الجبهـة السـودانية المعارضـة للاسـتعمار بالنسـبة لإقامـة تحالـف مـع مـصر، عسـكري واقتصـادي وسـياسي، لهـو خـير معـبِّر عـن مصالـح الشـعبين حقًّـا.

فالسـودان الحـرُّ القـوي الديمقراطـي، إنمـا هـو دعامـة وطيـدة لاسـتقلالنا وحريتنـا، والسـودان الضعيـف، الواقـع تحـت نفـوذ أيـة دولـة اسـتعمارية، فهـو مهـدِّد لمصالـح الشـعب المـصري واسـتقلاله، السـياسي منـه والاقتصـادي. والتحالـف الوثيـق بـين مـصر والسـودان هـو خـير ضـمان لاسـتقلالهما، وللقضـاء عـلى أيـة مؤامـرات اسـتعمارية تهـدد هـذا الاسـتقلال.

كـما أن اسـتقلالنا وحريتنـا وتطورنـا الاقتصـادي مرتبـط أشـدَّ الارتبـاط، بقضيـة السـلام العالمـي، فـلا نظـن أن حربـاً عالميـة ثالثـة سـتحترم اسـتقلال أحـد. ولـن يتأخـر الاسـتعمار في حالـة حـرب عالميـة ثالثـة عـن اسـتخدام أرضنـا بكافـة الوسـائل وبـكل مـا لديـه مـن قـوة في حربـه العدوانيـة، مـما يعـرِّض أرضنـا وديارنـا وشـعبنا لخـراب شـامل وإبـادة بالجُملـة في حـرب ذريـة هيدروجينيـة.

فمِـن مصلحـة شـعبنا وحريتنـا واسـتقلالنا السـياسي وتطورنـا الاقتصـادي المسـتقل بـل مـن أجـل حياتنـا وعُمْراننـا، يجـب أن نؤيـد مبـدأ التعايـش السـلمي بـين الـدول...

ولهذا يتعيَّن علينا أن نساهم بنصيبنا في الكفاح من أجل هذا السلام.

وفي كفاحنـا مـن أجـل السـلام العالمـي، نقـط التقـاء مـع كافـة القـوى السـلامية في العـالم، كالمُنـاداة بتحريـم التجـارب الذريـة وتدمـير الأسـلحة الذريـة والهيدروجينيـة وتحريـم اسـتخدام الأسـلحة الذريـة. وتخفيـض الجيـوش والأسـلحة للـدول الكُـبرى، كخطـوة مـن أجـل نـزع السـلاح، واسـتنكار وسـائل الضغـط والتهديـد وأسـاليب القـوة في حـلِّ المشـاكل الدولية،وتأييـد الحـركات التحريريـة. والتمسـك بقـرارات باندونـج.

ولكـن في كفاحنـا مـن أجـل السـلام بعـض نقـاط اختـلاف بالنسـبة لحـركات السـلام في الـدول الكـبرى. وخاصـة الـدول الاسـتعمارية. فبينـما تعمـل حـركات السـلام في

الدول الاستعمارية من أجل تخفيض ميزانية الحرب في بلادهم، وإنقاص القوات المسلحة، تجدنا نحن أنصار السلام في مصر والشرق العربي والدول الصغيرة بشكل عام مضطرين إزاء التهديد الاستعماري المستمر إلى المناداة بمزيد من اليقظة والاستعداد المسلَّح للدفاع عن أرضنا فكفاحنا الوطني التحريري ضدَّ الاستعمار جزءٌ لا يتجزأ من الكفاح من أجل السلام.

كما أن كفاحنا من أجل السلام العالمي، هو كفاح من أجل استقلالنا القومي، وخلق الظروف الدولية المناسبة التي تساعد على النهضة السريعة لاقتصاد بلدنا.

ثانياً: تحطيم العوائق في سبيل تطوير اقتصادنا:

والاستقلال السياسي وحده، لا يمكن ضمانه إلا بالاستقلال الاقتصادي وحجر الزاوية في تطوير اقتصادنا، في تطوير زراعتنا نفسها، إنما يكون بتصنيع البلاد والاهتمام بشكل خاص بالصناعة الثقيلة، كصناعة الصلب والحديد وصناعة الآلات والصناعات الكيمائية، وزيادة القوى الكهربية في البلاد أضعاف مضاعفة.

والمتتبع للاستثمار في العامين الأخيرين، يجد أن الاستثمارات الفردية في مصر، بالرغم من المبالغة الكبيرة في تقديرها، لم تتجاوز 46 مليوناً مِن الجنيهات عام 1955. أي بنسبة 12% من الداخل القومي.. بينما تجد أن هذه النسبة في بعض البلاد المتقدِّمة نسبيًّا تصل إلى 25% أي ضعف النسبة الحالية عندنا.

وقد قدرت بعض المصادر الأمريكية، أنه يلزم لمصر 47 مليوناً من الجنيهات كلَّ عام في استثمارات جديدة، كي يزيد دخل الفرد بنسبة 2% . أي أن الاستثمارات السابقة بالرغم من التجاوز في ارتفاعها لا تزيد الدخل القومي إلا بنسبة ضئيلة.

وهذه الزيادة الضئيلة لا تتكافأ مع مستوى معيشتنا من جهة، ولا مع سوء توزيع الدخل القومي من جهة أخرى.

كما أن الاستثمارات في العامين الأخيرين (1954 - 1955) لم تكن موجَّهة توجيهاً سليماً .

فقد بلغت الاستثمارات في المباني، حسب تقرير اتحاد الصناعات قرابة 82.5مليون جنيه في عامي 1954، 1955 . بينما لم تزد الاستثمارات هذين العامين عن 16.6 مليون جنيه في الصناعة، ثم 7.2مليون جنيه في التجارة... ويدخل في

هـذا الاسـتثمار الزيـادة في الإنفـاق عـلى السـياحة! وقـد بلغـت مليونـين مـن الجنيهـات عـام 1955 وحـده.

أي أن نسـبة الاسـتثمارات في المبـاني بلغـت مـا يزيـد عـلى 77يزيـد% مـن جملـة الاسـتثمارات الفرديـة الخاصـة! في عامـي 1955-1954.. وأكـثر مـن هـذا، فـإنَّ النسـبة الكُـبرى مـن المبـاني، التـي أقيمـت كانـت مـن النـوع الـذي يسـكنه المُترفـون وأصحـاب الدخـول العاليـة نسـبيًّا، وهـي تكلِّفنـا كثـيراً في بـاب الاسـتيراد مـن الخـارج، سـواء مـن أخشـاب أو حديـد أو مصاعـد أو أدوات كهربيـة، وكان مـن الممكـن أن توجـه هـذه الاسـتثمارات، حتـى تخـدم أغراضـاً أهـم، لتعزيـز القـوى الإنتاجيـة وتحسـين وسـائل الإنتـاج الزراعـي.

ولـو اسـتمر الاسـتثمار في مـصر عـلى هـذا النمـط، وبنفـس النسـبة الضئيلـة، فسـيكون تقدمنـا الاقتصـادي شـديدَ البُـطء، محـدودَ النطـاق، لا يتفـق مـع الزيـادة المضطـردة في حاجـات سـكاننا، وفي حجـم هـؤلاء السـكان، كـما لا يتفـق مـع ضرورة تخصيـص قـط متزايـد للاتفـاق عـلى مشروعنـا الدفـاع عـن كياننـا ضـدَّ الاسـتعمار، ومـن ثـمَّ يُخـشى أن يـزداد مسـتوى المعيشـة للجماهـير سـوء.

فنهضـة اقتصادنـا القومـي، ورفـع مسـتوى المعيشـة للشـعب، يتطلـب العمـل عـلى تحطيـم كافـة العقبـات التـي تقـف في سـبيل زيـادة الاسـتثمار، زيـادة تتفـق والحاجات المُلحـة للبـلاد كـما يتطلـب توجيـه الاسـتثمار وفـق مصالـح جماهـير الشـعب، لا مصالح أقليـة مترفـة. فـما هـي هـذه العقبات؟

1. تصفية بقايا الإقطاع:

إن قانـون الإصـلاح الزراعـي، ومصـادرة أمـلاك الأسرة المالكـة، كان ضربـة ولا شـك للإقطـاع، ضربـة لنفـوذه الاقتصـادي والسـياسي. ولكـن لا زال هنـاك بقايـا إقطاعيـة، تتجـلَّى أساسـاً في نظـام إيجـار الأرض، نظـام الاسـتغلال عـن طريـق الإيجـار.

هذه البقايا الإقطاعية تقف عقبة في سبيل تطور اقتصادنا القومي.

فقـد قـدرت مصلحـة الاقتصـاد والتشريـع بـوزارة الزراعـة، أن قرابـة خمسـين مليوناً مـن الجنيهـات مـن الداخـل الزراعـي في عـام 1954، كانـت مـن نصيـب المُـلاك غـير المشـتغلين بالزراعـة! أي أن هـذا المبلـغ الضخـم قـد ذهـب إلى جيـوب قـوم لم يقومـوا بـأي مجهـود، ولا بـأي تحسـين لوسـائل الزراعـة، بـل ولا حتـى بمجـرد الإشراف عليهـا!

وهـذا المبلـغ الضخـم الـذي اسـتولوا عليـه، يزيـد عـلى 16% مـن الدخـل المسـتمَد مـن الزراعـة، ويزيـد عـلى نصـف الدخـل المسـتمَد مـن كافـة الصناعـات التحويليـة.

وهـو مبلـغ إمَّـا ينفـق عـلى مـواد تـرف، مسـتورد معظمهـا مـن الخـارج، وإمَّـا في إقامـة مبـاني للمترفـين، أو شراء أراض جديـدة لتكبـير المـزارع الكبـيرة. فـكأن هـذا المبلـغ الضخـم لا يُنفـق فيـما يطـوِّر اقتصادنـا القومـي، أو يزيـد مـن قوتنـا الإنتاجيـة، سـواء في الصناعـة أو الزراعـة.

كـما أن هـذه البقايـا الإقطاعيـة، مسـؤولة جزئيًـا عـلى الأقـل، عـن تفـشي البطالـة في الريـف. فقـد قـدر المجلـس الدائـم للخدمـات العامـة، أن الفائـض مـن العـمال الزراعيـين، كان بنسـبة 42% عـام 1947. وارتفـع إلى 47% عـام 1954، أي أنَّ الزراعـة في مـصر، تسـتطيع أن تسـتغني عـن نصـف العُـمال الزراعيـين الموجوديـن حاليـاً، دون أن تُصـاب بسـوء.

كـما أن بقايـا الإقطـاع مسـؤولة أيضـاً عـن الانخفـاض الكبـير لمسـتوى المعيشـة لصغـار الفلاحـين وفقرائهـم، بمـا تسـتقطعة مـن دخلهـم في شـكل إيجـار مرتفـع للأرض، ولـو ذهـب هـذا الإيجـار إلى الذيـن يفلحـون الأرض، لترتـب عليـه زيـادة القـوة الشرائية في الريـف، وتوسـع في السـوق لمنتجاتنـا الصناعيـة. إن بقـاء القـوة الشرائيـة لجماهـير الفلاحـين عـلى حالهـا، معنـاه تعـرُّض صناعتنـا لأزمـات تـزداد عنفـاً بتطـور إنتاجنـا. إذ لا يُتـاح لهـا الطلـب الفعـلي المحـلي، القـادر عـلى امتصـاص ماتنتجـه مصانعنـا.

فالقضـاء عـلى بقايـا الإقطـاع أمـر ضروري، إذا أردنـا السرعـة لنهضتنـا الاقتصاديـة، ورفـع مسـتوى شـعبنا. وقـد يتـم ذلـك عـلى خطـوات، وقـد يتخـذ أشـكالاً مختلفـة، ولكنـه أمـر ضروري لنهضـة صناعتنـا وتوسـيع السـوق المحـلي أمامهـا، ورفـع مسـتوى المعيشـة للشـعب.

وإلى أن يتم التخلص التام من بقايا الإقطاع، نقترح خطوات مباشرة.

تتلخص في الآتي:

- التمســك تمامــاً بتطبيــق قانــون الإصــلاح الزراعــي نصًــا وروحــاً بالنســبة للإيجــارات.
- إعطــاء الأولويــة في توزيــع الأراضي المصــادرة. لفقــراء الفلاحــين والعُــمال الزراعيــين.

- توزيـع كافـة الأراضي الحكوميـة والأراضي البـور عـلى فقـراء الفلاحـين والعـمال الزراعيين.
- التمسك بتطبيق قانون الثمانية عشر قرشاً كحدٍّ أدنى للأجور الزراعية.
- توزيع الأقساط على المُلاك الجُدد على مائة عام بدلاً من ثلاثين عاماً .
- إلغـاء حـق التجنيـب لمـلاك الأرض، حتـى لا يسـتخدم كوسـيلة للضغـط عـلى المسـتأجرين وزيـادة الإيجـار عـن الحـدِّ القانـوني بشـتَّى الحِيـل.
- إيجـاد شـبكة واسـعة للتسـليف الزراعـي للمسـتأجرين ولصغـار المزارعـين عـلى أسـاس المحصـولات لا ملكيـة الأرض...
- تشـجيع الصناعـات الزراعيـة الريفيـة حتـى تسـتغرق بعـض الأيـدي العاملـة المعطَّلـة، إلى أن تسـتوعبها نهضـة صناعيـة شـاملة.

2. تصفية الاحتكار:

عانـت مـصر مـن قبضـة الاحتـكار الأجنبـي طويـلاً. فاحتـكارات البـترول الأجنبيـة مثـلاً لم تكتـف بـأن تعـوق إنتـاج البـترول المـصري عـلى نطـاق واسـع وبأسـعار أقـل، بـل عملـت عـلى تخفيـض إنتـاج البـترول، إذ هبـط هـذا الإنتـاج مـن 2.351.000طـن عـام 1953 إلى 1.970.000 طـن عـام 1954 ثـم إلى 1.808.000 طـن عـام 1955، وقـد قـدَّر الدكتـور عبـد الـرازق حسـن مقـدار الأمـوال التـي تحتفـظ بهـا إحـدى شركات البـترول (شركـة آبـار الزيـوت البريطانيـة) بحـوالي 6.1 مليـون جنيـه. في شـكل نقـد أو اسـتثمارات ليـس لهـا اتصـال بالبـترول، إنهـا تـكاد تكـون أمـوال مجمـدة في خزائـن الشركـة، لا ينفـق منهـا شيئ عـلى استكشـاف آبـار جديـدة أو تحسـين لوسـائل الإنتـاج القائمـة!

وقـد قـال الدكتـور القيسـوني وزيـر الماليـة، إن الحراسـة التـي فرضـت خـلال العـدوان المسـلح، قـد كشـفت عـن توجيه هـذه المؤسسـات لمصلحـة الاقتصـاد الأجنبي، ضـد رأس المـال، ورجـال الأعـمال الوطنيـين، لقـد كانـت تتوسـع في إقـراض الأجانـب، حتـى ترفـع مـن شـأنهم وتزيـد مـن قوتهـم وسـيطرتهم عـلى الاقتصـاد المـصر. بينـما تـترك المصريـين دون التمويـل المناسـب للقيـام بالأعـمال الإنتاجيـة المختلفـة!

وكانـت معظـم تجـارة الجملـة تقـع بأكملهـا في أيـدي رعايـا الأعـداء مـن الإنجليـز والفرنسيين.

وطبعـاً كانـت هـذه الرعايـة توجِّـه تجـارة الجملـة لصالـح إنجلـترا وفرنسـا! لا لصالـح مـصر.

وإذا تصورنـا أن الودائـع في البنـوك عـام 1955، بلغـت قرابـة 250 مليـون جنيـه، ذلـك بخـلاف مـا في صناديـق التوفـير والادخـار وحسـاب شركات التأمـين، التـي بلغـت قرابـة 90مليـون جنيـه، أدركنـا خطـر القبضـة الاحتكاريـة عـلى الاقتصـاد القومـي، واسـتطاعتها إفسـاد وعرقلـة أي تخطيـط، أو أي توجيـه لنهضـة الاقتصـاد القومـي...

وبهـذا نـرى أن الخطـوة التـي خطاهـا الرئيـس جـمال عبد النـاصر بتمصـيره البنوك وشركات التأمـين والتوكيـلات التجاريـة، خطـوة هامـة جـدًّا نحـو تحريـر اقتصادنـا القومـي مـن القبضـة الاحتكاريـة الأجنبيـة.

فجعـل الأسـهم لهـذه الـشركات اسـمية تكـون مملوكـة لمصريـين ، يمنـع تلاعـب الاحتـكار الأجنبـي ويقطـع عليـه الطريـق. واشـتراط أن يكـون أعضـاء مجالـس إدارتهـا والمسـئولون عـن الإرادة فيهـا أن يكونـوا مصريـي المولـد، ليسـد البـاب أمـام سـيطرة العنـاصر الاحتكاريـة الأجنبيـة، وذيولهـا مـن المتمصريـن اسـماً، والأجانـب فعـلاً.

إن تمصـير الاقتصـاد القومـي، تمصـير اتحـاد الصناعـات والغـرف التجاريـة والبورصـة وسـوق الأوراق الماليـة، واختيـار العنـاصر الوطنيـة الجريئـة التـي لا روابـط لهـا بالـشركات الاحتكاريـة، في مراكـز قيادتهـا، هـي خطـوة هامـة ولا شـكّ للقضـاء عـلى الاحتـكار الأجنبـي.

إن التقديـرات مختلفـة بالنسـبة لـرؤوس الأمـوال الأجنبيـة والفرنسـية الموضوعـة تحـت الحراسـة، إن نـشرة البنـك الصناعـي تقدِّرهـا بمبلـغ 70 إلى 80 مليـون جنيـه، ومجلـة تايـم الأمريكيـة تقدرهـا بـ170مليـون جنيـه، كـما تقـدر مجمـوع رؤوس الأموال الإنجلـو فرنسـية في مـصر بمبلـغ 250 مليـون جنيـه ورؤوس الأمـوال الأمريكيـة بمبلـغ 21 مليـون جنيـه.

إن هـذه الأمـوال كلهـا، إن كان حقًّـا هـذا التقديـر، تسـتحق لمـصر كجـزء مـن التعويـض عـن الخسـائر الفادحـة التـي ألحقهـا العـدوان الإنجلـو فرنـسي الإسرائيلي على

مـصر، وكمقابـل لتجميـد أرصدتنـا لـدى كل مـن إنجلـترا وفرنسـا والولايـات المتحـدة، وكتحريـر لاقتصادنـا المـصري مـن قبضـة رؤوس الأمـوال الاحتكاريـة الأجنبيـة.

ثالثاً: زيادة القطاع الحكومي:

لقـد خصصـت الحكومـة منـذ حركـة الجيـش في يوليـو سـنة 1952، جـزء مُتزايـداً مـن ميزانيتهـا للمشـاريع الإنتاجيـة. وهـذا معنـاه زيـادة دور الحكومـة في الاقتصـاد الوطنـي. وهـو أمـر ضروري لنهضتنـا الاقتصاديـة.

فالرأسـماليون الوطنيـون، مهـما توفـر لديهـم مـن أربـاح واحتيـا طـي، لا يملكـون في مـصر مـن التسـهيلات الفنيـة ولا المَقْـدِرة الماليـة لبنـاء صناعـة ثقيلـة، ومـصر في أشـدِّ الحاجـة إلى هـذه الصناعـة.

لقـد كان يكفـي الأمـس مليـون جنيـه مثـلاً، لإنشـاء مصنـع ضخـم للنسـيج أمَّـا أقـلُّ مصنـع للصلـب فـلا يحتـاج لأقـلِّ مـن عـشرة أو عشريـن مليونـاً مـن الجنيهـات، وليـس مـن السـهل أن ننتظـر مـن الأفـراد القيـام بمـشروع كهـذا، إمَّـا لقلـة مـا في أيديهـم مـن مـال ينفـق وضخامـة هـذه المشروعـات، وإمَّـا لأنـه لا يقـل ربحـاً عاجـلاً ... فلابـد مـن تحمـل الحكومـة العـبء الأكـبر في بنـاء مثـل هـذه المشروعـات.

لقـد اتخـذت الهنـد هـذا السـبيل، فبلـغ مجمـوع الاسـتثمارات في قطـاع الدولـة الهنديـة 48 ألـف مليـون روبيـة في مـشروع السـنوات الخمسـة، مقابـل 24 ألـف مليون روبيـة في القسـم الخـاص.

وهـذه الزيـادة للقطـاع الحكومـي في الصناعـة، في ظـروف مـصر الحاليـة، أي في ظـروف بلـد متخلِّـف كبلدنـا لا يمكـن تصويرهـا بأنهـا احتـكار حكومـي، رغـم بقـاء النظـام الرأسـمالي. فـلا يمكـن أن نسـمِّي القطـاع الحكومـي احتـكاراً، إلا إذا كانـت الرأسـمالية الوطنيـة في مـصر قـد بلغـت مرحلـة الاحتـكار، وخطـأ بالـغ أن يصـور بعـض الاقتصاديـين المصريـين، بنـك مـصر وشركاءه، عـلى أنـه رأسـمالي مـالي أو رأس مـالي احتـكاري. إذ يشـترط أولاً حتـى نصـل إلى درجـة الرأسـمالي المـالي، بلـوغ الصناعـة الوطنيـة مرحلـة الاحتـكار. وهـذا الشـيئ لم تبلغـه مـصر، فالاحتـكار في مـصر كان أساسـاً احتـكاراً أجنبيًّـا يسـيطر عـلى الاقتصـاد المـصري.

وكـما يقـول الدكتـور مودسـت روبنسـتين: إنـه في البـلاد المتخلِّفـة التـي شـقت طريقها حديثاً إلى تطـور مستقل، نجـد أن رأسـمالية الدولـة تتخـذ سـمة خاصـة، فمِن الخطـأ أن نسـميها رأسـمالية دولـة احتكاريـة، كـما هـو الشـأن في الولايـات المتحـدة أو أوروبـا الغربيـة، فالرأسـمالية الاحتكاريـة للدولـة، إنَّمـا هـي نموٌّ تابـع لتطورالاحتـكارات الخاصـة، المتطلعـة لا إلى اسـتغلال شـعبها فحسـب. وإنما إلى اسـتغلال البـلاد الأخـرى أيضـاً... ولهـذا نـرى الرأسـمالية الاحتكاريـة للدولـة في تلـك الحالـة خادمـاً لسياسـة توسـعية اسـتعمارية، فدورهـا في هـذه الحالـة رجعـي تمامـاً.. ومـن ناحيـة أخـرى، نجـد أن رأسـمالية الدولـة في بلـد كالهنـد، إنَّمـا مهمتهـا هـي تسـهيل التصنيـع والتنميـة الاقتصاديـة العامـة، فهـي تسـاعد في تدعيـم اسـتقلال الهنـد، وإضعـاف مركزالاسـتعمار. فالمؤسسـات الرأسـمالية، ملـك الـدول في الهنـد تختلـف عـن مثيلتهـا في الصـين، التـي تسـتخدمها حكومـة الشـعب هنالـك مـن أجـل الإسراع في بنـاء الاشـتراكية.

فزيـادة نصيـب القطـاع الحكومـي اليـوم في مـصر، وزيـادة عـدد المؤسسـات الصناعيـة وغيرهـا، التـي تملكهـا الدولـة أو تسـاهم فيهـا، أمـر ضروري، مـن أجـل تطويـر اقتصادنـا وإضعـاف مركـز الاسـتعمار.

كـما أنـه في ظـروف خاصـة، ظـروف ازديـاد النشـاط السـياسي للشـعب بشـكل عـام والطبقـة العاملـة بشـكل خـاص، وفي ظـروف التوظيـف الكامـل لمـوارد البـلاد، وزيـادة الدخـل القومـي، ورفـع مسـتوى المعيشـة، يمكـن أن يكـون خطـوة في سـبيل التطـور غـير الرأسـمالي لاقتصادنـا القومـي.

رابعاً: تخطيط الاقتصاد القومي:

إن اتجـاه حكومـة عبـد النـاصر الوطنيـة نحـو تخطيـط الاقتصـاد القومـي، وتعبئـة جميـع الجهـود للنهـوض الاقتصـادي والاجتماعـي للبـلاد، وفـق خطـة شـاملة طويلـة الأجـل، يعتـبر ولا شـك خطـوة تقدميـة.

وعلـم التخطيـط للاقتصـاد القومـي لا زال علـماً ناشـئاً، والخـبرة فيـه تـكاد تكـون قـاصرة عـلى البـلاد الاشـتراكية: الاتحـاد السـوفيتي بشـكل خـاص، ثـم الصـين الشـعبية وبقيـة الديمقراطيـات الشـعبية.

والشيئ الذي يمكن أن يستنبط من الخبرة الاشتراكية أنه:

أولاً: يستحيل التخطيط دون الإشراف على التجارة الخارجية والهيمنة بشكل أو آخر على التجارة الداخلية والبنوك وشركات التأمين ووسائل التمويل المختلفة وتوجيها في خدمة التخطيط، كما أنه يستحيل هذا التخطيط دون الإشراف أيضاً على سياسة الإنشاء والمشروعات الجديدة لزيادة القوى الإنتاجية للبلاد وإخضاعها بدورها للخطة الاقتصادية العامة.

إن عدم الإشراف على هذه النواحي من شأنه أن يفتح ثغرات خطيرة، تهدم كافة الخطط الاقتصادية.

ثانياً: إنَّ الشيئ الأساسي في أي تخطيط اقتصادي، هو تعبئة وتنظيم القوى البشرية للبلاد.

فيقول س.ج ستروميلين، مُلخِّصاً خبرة الاتحاد السوفيتي: إن الاقتصاد الموجَّه ممكن فقط في ديمقراطية عُمالية ثابتة، تتضمن الوحدة الكاملة ومصالح الشعب كله، كما تضمن في الوقت نفسه الثقة التامة من جانب الشعب في حكومتهم المختارة، وفي التوجيهات الاقتصادية التي تقرِّرها هذه الحكومة.

إنه حين وجود هذا الشرط، وحين تستقبل الخطة الاقتصادية بالاعتراف العام والتأييد الكامل للجماهير العاملة... إنه عندئذ فقط، يصبح التخطيط آداة قوية للتقدم الاقتصادي.

لقد قال لينين في عام 1920: إني أقولها مرة ثانية، إنه من الضروري إثارة حماسة جماهير العُمال والفلاحين الواعين، لتحقيق البرنامج العظيم.

وعاد لينين مرة أخرى إلى القول: إن أهم شيئ، هو أن نكون قادرين على إثارة التنافس بين الجماهير، وأن تستطيع الجماهير أن تعبِّر عن نفسها، كي يمكن أن تقوم بالعمل فوراً.

ثمَّ يستطرد ستروميلين قائلاً: إنَّ أهمَّ شيئ، هو أن نكون قادرين على إثارة التنافس بين الجماهير، وأن تستطيع الجماهير أن تعبِّر عن نفسها، كي يمكن أن تقوم بالعمل فوراً.

ثمَّ يستطرد د ستروميلين قائلاً: إن أهم الأدوات في تنفيذ الخطة هم العُمال الذين يقومون بتنفيذها... وهؤلاء العمال يجب أن يوفر لهم وسائل العيش وأدوات العمل بكميات متزايدة. ومن ثمَّ يجب على التخطيط الاقتصادي أن

يُراعي بجانبِ خطةِ الإنتاج، برنامجاً خاصًّا للتعمير يضمن إمداد المُنشآت بأدوات فنية أكثر تقدماً، وبقوى كهربائية متزايدة.

حقًّا إن ظروف الاتحاد السوفيتي والمعسكر الاشتراكي بشكل عام مغايرة للظروف المصرية، من حيث الأساس الاقتصادي، فملكية وسائل الإنتاج هناك هي ملكية جماعية، فهي إمَّا ملكية دولة العمال والفلاحين أو ملكية المزارع الجماعية، بينما لا زال أساس الملكية هنا، هو الملكية الفردية الخاصة، ومن ثمَّ تختلف أساليب التخطيط للاقتصاد القومي في مصر اختلافاً جذريًّا عنها في المعسكر الاشتراكي، إلا أن التجربة المصرية، شأنها شأن التجربة الهندية، تجربة جديدة ولا شك، وتعتبر خطوة تقدمية، ولا شك أنه يمكنها أن تستفيد بعض الشيئ من تجارب الأمم الاشتراكية التي سبقتنا في ميدان التخطيط الاقتصادي.

خامساً: تدعيم النظام التعاوني:

ولا شك أن نهضتنا الاقتصادية في أمس الحاجة إلى نظام تعاوني: جمعيات تعاونية في الريف وأخرى في المدن، جمعيات تعاونية للإقراض وأخرى للاستهلاك، وثالثة للتسويق ورابعة للإنتاج.

ولا زال يشوب النظام التعاوني لدينا، سواء منه ما كان في الريف أو ما كان في المدن أوجه نقص ضخمة: فلا زال هذا النظام قاصراً، إذ أن عدد الجمعيات التعاونية وفق إحصاء سنة 1952 لم يتجاوز 2103 جمعية، لا يزيد عدد أعضائها عن 747 ألفاً، وتقل رؤوس أموالها عن واحد ونصف مليون حنيه،ولا يتجاوز احتياطهاعن مليون جنيه.

ولا يكفي قط هذا العدد من الجمعيات ولا ذاك العدد من الأعضاء، إنما تريد نظاماً تعاونيًّا شاملاً في الريف والمدن، يضمُّ الملايين من الفلاحين وأبناء المدن.

كما أن الجمعيات القائمة ينقصها الإشراف الشعبي والإشراك الحقيقي لأعضائها في مجالس إدارتها، فإداراتها إمَّا محصورة في يد بعض موظفين في حالة الجمعيات التعاونية للإصلاح الزراعي، وإمَّا في يد قلة توجه الجمعية لمصلحتها الخاصة،

لمصلحة الأثرياء وكبار الملاك والمحظوظين، لا لمصلحة الكثرة الغالبة من أعضائها، ومن ثم عدم حماسة الفلاحين وأبناء المدن لهذه الجمعيات.

بينما لو أشرك الشعب في إدارتها والإشراف عليها إشرافاً حقيقيًّا لاستطاعت أن تكون موضع حماسة بين الجماهير وموضع إقبال شديد.

كما أن نُظُمَها المالية ونظام الإقراض فيها لا زال يراعي أصحاب الأملاك وحدهم، ويكاد يهمل المستأجرين وفقراء الفلاحين، وهم الكثرة الغالبة من المزارعين، فيجب أن يوجد نظام للقروض بضمان المحصول، لا بضمان الملكية وأن تكون الفوائد قليلة حقًّا، وأن يوضع نظام واضح لتحصيل هذه القروض بشكل لا يضرُّ المقترضين.

كما أن الجمعيات التعاونية لو أمدت بالقروض من البنوك والدولة، لاستطاعت أن تلعب دوراً في إقامة صناعات ريفية ، وريفنا اليوم في أشد الحاجة إليها.

كما أن الجمعيات تستطيع أن تضع نظاماً لتسويق المحصولات الزراعية للقرى حتى تُباع في الوقت المناسب وبالكمية المناسبة وبالثمن المُجْزي، هذا في الوقت الذي يمكن فيه أن تحصل للفلاحين على ما يحتاجون إليه من سلع استهلاكية بالثمن المعقول..

كما أن الجمعيات التعاونية بانتشارها، يمكن أن تنظم التجارة الداخلية، وأن تكون وسيلة فعالة لمحاربة الزيادة المصطنعة في تكاليف المعيشة ومحاربة السوق السوداء في مواد التموين أو التقاوي والسماد..

حقًّا إن الجمعيات التعاونية في ظل العلاقات الرأسمالية، لن تستطيع أن تلعب نفس الدور الذي تلعبه هذه الجمعيات في ظل العلاقات الاشتراكية للإنتاج، ولكنها تستطيع أن تكون عاملاً إيجابيًّا له قيمته في التطور الاقتصادي لمصر.

سادساً: المساعدات الأجنبية:

ولا شك أننا بمواردنا الخاصة نستطيع أن نتقدم تقدماً اقتصاديًّا على ضوء الأسس التي أشرنا إليها سابقاً، ولكن ضعف مواردنا الخاصة سيجعل هذا التقدم بطيئاً، ونظرية التمهل في مسألة التطور الصناعي، تهدد ببقائنا في مستنقع التأخر

والعَوَز، ففـي إمكاننـا أن نـسرع مـن تصنيـع بلادنـا ورفـع تقدمهـا الاقتصـادي رفعـاً جوهريًـا، اسـتناداً إلى مسـاعدات خارجيـة.

ولكن أي مساعدات؟ ومَن الذي يستطيع أن يمدنا بهذه المساعدات؟

هـل هـي مسـاعدات فرنسـية أو إنجليزيـة مثـلاً؟ لا شـك أننـا نسـتبعد هـذه المسـاعدات، وخاصـة بعـد العـدوان السـافر عـلى أرض بلادنـا، بـل حتـى قبـل هـذا العـدوان ؛ فـإن إنجلـترا وفرنسـا في حاجـة هـي نفسـها إلى مسـاعدات خارجيـة.

تبقى أمامنا المساعدات الأمريكية.

ولكـن المسـاعدات الأمريكيـة تتطلـب أولاً خلـق مـا تسـميه بالجـو السـياسي المُلائم أي كـما يقـول ليمـين: إقامـة نظـام سـياسي يناسـب أهدافهـم النهَّابـة، ويعنـي تشريعـاً خاصًّا يقـدم ضمانـات وامتيـازات للمسـتعمرين الأجانـب، ويعنـي في جوهـره الإشراف الكامـل عـلى الحيـاة الاقتصاديـة والماليـة لبلادنـا، كـما يعنـي حقوقـاً سياسـية خاصة. أي أنَّ الاسـتثمارات والمسـاعدات الأمريكيـة ليسـت سـوى شـكل آخـر للاسـتعمار الحديـث.

وقـد اتضـح هـذا بجـلاء في الـشروط التـي أرادتهـا أمريـكا عنـد عرضهـا تمويـل السـد العـالي. فتمويـل السـد العـالي كان يشـترط شروطـاً تحقـق للاسـتعمار سـيطرة تامـة عـلى اقتصادنـا القومـي مـن شـأنه أن يحوِّلَنـا مـرة أخـرى إلى شـبه مسـتعمَرة.

كـما يتضـح هـذا مـرة أخـرى مـن المسـاعدات الاقتصاديـة المقدَّمة بموجـب مشروع إيزنهـاور، فهـي تشـترط شروطـاً سياسـية، تجعل مـصر شـبه مسـتعمَرة أمريكية.

ولو درسنا الاستثمارات الأمريكية في الخارج لاحظنا عليها الآتي:

أن المبالـغ التـي تحصـل عليهـا الاحتـكارات الأمريكيـة مـن البـلاد الأجنبية في شـكل دخـل لاسـتثمارات هـذه المبالـغ، أضخـم بدرجـة كبـيرة مـن رأس المـال الجديـد الـذي يسـتثمر، فقـد بلغـت الاسـتثمارات الأمريكيـة الجديـدة 1300 مليـون دولار سـنويًّا فيما بـين 1948، 1952 بينـما بلـغ متوسـط الدخـل الـذي تحصـل عليـه الولايـات المتحـدة 2.300مليـون دولار كلَّ عـام! أي قرابـة ضِعـف الأمـوال التـي تسـتثمرها!

والمسـاعدات الأمريكية توجَّه بشـكل متزايد للمسـاعدات العسـكرية. فالمسـاعدات العسـكرية تبلـغ 67% مـن مجمـوع المسـاعدات في الفـترة مـن عـام 1952 إلى عـام 1955!

والمساعدات التي تستخدم للأغراض العسكرية لها أثر اقتصادي سلبي. فهي لا تشجِّع التقدم الاقتصادي، وإنما تحمِّل البلاد المتخلِّفة بحمل عسكري جديد يعوق تقدمَها الاقتصادي ويثبت تأخرها وتبعيتها للبلاد الأجنبية.

فنحن إذاً في حاجة إلى المساعدات الفنية والآلية والمالية بشرط ألا ترتبط بأي اشتراطات سياسية أو عسكرية أو اقتصادية، وبشرط أن تمنح على أساس المساواة الكاملة في الحقوق والمنفعة المتبادلة، وعدم تدخل أي بلد في شؤوننا الداخلية.

هذا النوع من المساعدات الذي يمكن أن يتخذ شكل اتفاقات تجارية طويلة الأمد، من السهل الحصول عليه من الاتحاد السوفيتي والديمقراطيات الشعبية ودول باندونج الشعبية ودول باندونج المستقلة.

سابعاً: سياسة الضرائب:

لا زالت سياسة الضرائب في مصر تحمل آثار الماضي الاستعماري والإقطاعي والاحتكاري، فالضرائب غير المباشرة كالرسوم الجمركية والدمغة ونقل الملكية والرسوم القضائية لا زالت تمثل 45% من إيرادات الدولة، كما هو واضح في ميزانية 1955.

فإيراد الدولة من هذه الضرائب قد بلغ في تلك السنة116.7 مليون جنيه.

والضرائب غير المباشرة يقع عبؤها أساساً على الجماهير الكادحة؛ لأنَّها تفرض بغض النظر عن وضع المستهلك ودرجة فقره .. ونظراً لأن الأسر الفقيرة تمثل الأغلبية الساحقة من المصريين، وهي التي تقوم بمعظم الاستهلاك، نجد نصيب الفقراء من الضرائب غير المباشرة يبلغ أضعاف أضعاف ما يبلغه نصيب الأغنياء.

ولا شك أنَّ نظام الضرائب في حاجة قُصوى إلى تعديل جوهري ليتحمل القادرون عبئاً أكبر، وليخفف بعض العناء على غير القادرين.

حقًّا إن هناك ضرائب على فروع الدخل ولكنها لا تزيد أعلى نسبة لها عن 17%، وحقًّا أن هناك ضرائب تصاعدية، ولكنها لا تفرض إلا بعد أن يصل صافي الدخل 1000جنيه فأكثر.

فنحن في حاجة ملحة إلى زيادة النسبة التصاعدية على الإيراد، وزيادة معدل الضريبة بالنسبة للدخول العالية، وأمَّا بالنسبة للضرائب غير المباشرة فيجب أن

تُعفَى منها المواد الأساسية التي تستهلكها جمهرة الشعب، وأن تزاد الضرائب زيادة أكبر على سلع الترف.

إن مثل هذه السياسة من شأنها أن تزيد إيرادات الحكومة من جهة، وأن تخفف من العبء الواقع على الجماهير الكادحة من جهة أخرى؛ فتزيد بذلك - ولو إلى حد - من قوتها الشرائية فينفسح مجال السوق المحلية للصناعة المصرية.

ثامناً: الأرباح والأجور:

كما يجب أن يكون لنا سياسة واضحة بالنسبة للأرباح والأجور، إذا ما أردنا نهضة اقتصادية حاسمة وارتفاعاً لمستوى المعيشة لشعبنا.

وأول ما يلفت النظر أن نسبة الأرباح، وخاصة في الصناعات الكبيرة مرتفعة ارتفاعاً لا مبرر له، فقد جاء في تقرير للبنك الصناعي عام 1955 أن قيمة الأرباح والفوائد الموزَّعة عام 1955، بلغت 13.9 مليون جنيه، أي بنسبة 13.2% من رؤوس الأموال المستخدمة.

وقد قدرت الأرباح التي وزعتها الشركات خلال النصف الأول من عام 1956 بمبلغ عشرةِ ملايين وربع مليون جنيه خالصة الضريبة.

وليس بمستبعد أن تبلغ الأرباح الموزَّعة هذا العام ما ينيِّف على عشرين مليون من الجنيهات. قد يفوز بالنصيب الأكبر منها ما لا يتجاوز 10 آلاف شخص من كبار أصحاب الأسهم والسندات.

وهذا في الوقت الذي قدَّر الإحصاء الصناعي لعام 1952، قيمة الأجور للعمال الذين يعملون في المصانع التي تستخدم عشرة عمال فأكثر بما يقل عن عشرين مليون جنيه موزَّعة على 234 ألف عامل!

هذه السياسة غير المتكافئة بين الأرباح والأجور تؤدي إلى انكماش السوق الداخلية، فانخفاض مستوى الأجور معناه انخفاض القوة الشرائية للعُمال، والطبقة العاملة المصرية تكون جزءً هامًّا من القوة الشرائية اليوم، وبقاء الأجور على حالها معناه اصطدام صناعتنا بأزمات تزداد حدة على مرِّ الأيام بزيادة القوى الإنتاجية لمصانعنا، إذ لا تجد السوق الداخلية الكافية لتصريف منتجاتها.

فمـن مصلحـة الاقتصـاد القومـي نفسـه، بـل مـن مصلحـة الرأسـمالية الوطنيـة المصريـة نفسـها، في الأمـد الطويـل أن تـزداد القـوى الشرائيـة للعـمال، أي أنْ تـزداد الأجـور.

ومـن العبـث القـول بـأن زيـادة الأجـور يترتـب عليهـا زيـادة التكاليـف الصناعيـة مـما يسـتتبع ارتفـاع أسـعار المـواد المصنوعـة، فارتفـاع تكاليـف المعيشـة.

إنـه مـا أمكـن تخفيـض نسـبة الأربـاح الموزَّعـة إلى 5% مـن الرأسـمالى الموظـف في مـصر مثـلاً بـدلاً مـن 13%، وقـد يُقـال: إن هـذه النسـبة قـد لا تغـري أصحـاب رؤوس الأمـوال عـلى اسـتخدام أموالهـم في الصناعـة أو التجـارة.

والواقـع أن السياسـة التـي تسـير عليهـا الصناعـة المصريـة سياسـة جامـدة ضيقـة الأفـق ومحـدودة النظـرة، فهـي تسـعى إلى تحقيـق ربـح عـال عـن السـلعة الواحـدة بغـض النظـر عـن جملـة الربـح!

وإليـك مـا يقـرره الدكتـوران: شربينـي وشريـف في بحـث لهـما نُـشر في مجلـة مـصر المعـاصرة: إن سياسـة الأسـعار قائمـة في أغلـب الأحيـان عـلى الرغبـة في الحصـول عـلى أكـبر ربـح ممكـن عـن كل صفقـة في حـدٍّ ذاتهـا، وقـد يـؤدي هـذا إلى أقـصى ربـح ممْكـن في المـدى القصـير، ولكنهـا لا تـؤدي إلى أقـصى ربـح ممكـن في المـدى الطويـل، فالسياسـة بالنسـبة للأسـعار، سياسـة انكماشـية، لا تسـعى إلى زيـادة المبيعـات عـلى نطـاق واسـع، أسـعار الوحـدة.

بينـما لـو اتبعـت سياسـة تمـدد، وخفضـت الصناعـة المصريـة نسـبة الربـح عـن السـلعة الواحـدة، ورفعـت أجـور عمالهـا، لاسـتطاعت أن تبيـع أضعـاف أضعـاف مـا تبيعـه اليـوم، ولتحقـق لهـا آخـر الأمـر ربحـاً أكـبر في جملتـه مـن الربـح الـذي تحققـه اليـوم.

كـما أنـه مـن العبـث القـول بـأن العامـل المـصري لا يسـتحق أجـراً أكـبر لنقـص كفاءتـه.. إذ أن مـدى الاسـتغلال الواقـع عـلى الطبقـة العاملـة يبلـغ نسـبة 200% عـلى الأقـل، إذ أن صـافي القيمـة المضافـة في الصناعـات الهامـة وفـق الإحصـاء الصناعـي لسـنة 1952 لا يقـل عـن 37 مليـون جنيـه، مقابـل 19 مليـون جنيـه للأجـور.. أي إذا قدرنـا أن متوسـط سـاعات العمـل في اليـوم يبلـغ تسـع سـاعات، فـإن العامـل المـصري

ينتج ما يوازي قيمة أجره فيما لا يزيد عن ثلاث ساعات في اليوم وتذهب باقي الساعات التي يعملها في شكل فائض قيمته يناله صاحب العمل.

وإذا كان هناك ثمت نقص في كفاءة العامل المصري، فمرجعه طول ساعات العمل وانخفاض الأجور. وسوء الأدوات التي يترك ليعمل بها، أو سوء التنظيم نفسه.

فساعات العمل في المتوسط تتراوح، حسب الإحصائيات الرسمية، ما بين 51.50 ساعة عمل في الأسبوع. وتخفيض ساعات العمل وزيادة الأجور، يكفل للعامل وقتاً أكبر للراحة، وفراغاً يستطيع فيه استكمال تدريبه المهني، وتحسيناً لمستوى معيشته مما يجعل العامل المصري أقوى جسماً وأرفع ثقافة، فيجوِّد عمله ويتقنه.

لقد أصبحت الحاجة ملحة. لنهضة اقتصادنا القومي، أن يزيد الحد الأدنى لأجر العامل المصري، مع هبوط معدل الربح إلى 5% مثلاً مع التمسك بنظام ثماني ساعات للعمل في اليوم، مع عدم زيادة تكاليف المعيشة.

فتطبيق سياسة كهذه يحتاج فعلاً إلى زيادة نصيب القطاع الحكومي من الاقتصاد القومي، ومراعاته لهذه السياسة بالنسبة للأرباح والأجور، كما يحتاج إلى مزيد من التوجيه والتشريع في مصلحة الطبقة العاملة، ودون إجحاف بمصلحة الرأسماليين الوطنيين..

هذه هي الخطوط العريضة للسياسة الواجب اتباعها، إذا ما أردنا نهضة سريعة لاقتصادِنا القومي، وارتفاعاً للمستوى المادي والثقافي للجماهير الكادحة وتعاوناً مخلصاً مع جارتنا العربية على قَدَم المساواة.

تاسعاً: الجبهة الوطنية المتحدة:

ولكن السياسة الاقتصادية وحدها لا تكفي، إذ أن أية نهضة اقتصادية حقة للبلاد، لا يكفي قط، خطط توضع وتشريعات تصدر وأوامر من أعلى، وإنما لابد لها من إشراك حقيقي للجماهير، فيما نحن مقبلون عليه من بناء لاقتصادنا وسياستنا القومية.

فكيف يتمُّ هذا ؟

إننـا نعتقـد أن مفتـاح نهضتنـا السياسـية التـي هـي شرط لازم لنهضتنـا الاقتصاديـة هـو مـا قالـه عبـد النـاصر.. الجبهـة الوطنيـة المتحـدة، التـي كـرَّر النـداء بهـا أكـثر مـن مـرة في خُطَبِـه..

فماذا نقصد بالجبهة؟

إن أول مـا يطـرأ عـلى الذهـن، أن نكـوّن جبهـة أحـزاب، الأحـزاب التقليديـة التـي عرفتهـا مـصر.

ولنتكلّم في صراحة:

إنـه ليـس مـن مصلحـة الحركـة الوطنيـة، أن تعـود الأحـزاب القديمـة بكيانهـا وقيادتهـا التقليديـة .. إن هـذه الأحـزاب إنمـا تمثِّـل مرحلـة متخلِّفـة مـن تطورنـا الاقتصـادي والسـياسي، فأصبحـت لا تتفـق مـع التقـدم الاقتصـادي والسـياسي الـذي أحرزتـه الحركـة الوطنيـة.

وقـد تجـلَّى هـذا بشـكل واضـح وخاصـة في المعركـة الأخـيرة ضـدَّ العـدوان الاسـتعماري.

ونحـن لا ننكـر في الوقـت عينـه، أن مـن بـين هـذه الأحـزاب التقليديـة، عنـاصر مخلصـة لبلادهـا، ولكـن عـلى العنـاصر أن تخـرج مـن عزلتهـا وسـلبيتها لتقـوم بـدور إيجـابي في بنـاء الجبهـة الوطنيـة المتحـدة.

فماذا نقصد إذا بالجبهة الوطنية المتحدة؟

نقصـد بهـا جبهـة طبقـات، جبهـة تضـم الطبقـات والفئـات والعنـاصر المعاديـة للاسـتعمار والصهيونيـة في الخـارج، والمعاديـة للإقطـاع والاحتـكار في الداخـل، جبهـة تضـم الطبقـة العاملـة والفلاحـين والمثقفـين، والطلبـة، وصغـار أصحـاب المتاجـر والمصانـع الصغـيرة والرأسـماليين الوطنيـين بكافـة أقسـامهم، سـواء كانـوا أصحـاب مصانـع متوسـطة أو كبـيرة، وأثريـاء الريـف الذيـن يشرفـون عـلى إدارة أملاكهـم ويسـتخدمون العمـل المأجـور... ثـم أي عنـاصر أخـرى وطنيـة، طالمـا هـي مسـتعدة للكفـاح ضـدَّ الاسـتعمار والصهيونيـة، وطالمـا هـي مُعاديـة للإقطـاع والاحتـكار.

هـذه الجبهـة يجـب أن تنظـم صفـوف صغـار التجـار وصغـار أصحـاب المصانـع والقـرى والأحيـاء وفي كل بقعـة مـن بقـاع مـصر.

ولجـان المقاومـة الشـعبية وللجبهـة الوطنيـة المتحـدة للمقاومـة الشـعبية في بورسـعيد أمثلـة حيَّـة نابعـة مـن المعركـة نفسـها للشـكل الـذي يمكـن أن تتخـذه الجبهـة الوطنيـة المتحـدة - هـذه الجبهـة، ونقولهـا في صراحـة تامـة، هـي اليـوم جبهـة الشـعب مـع حكومـة عبـد النـاصر بالـذات؛ لأن عبـد النـاصر ليـس مجـرد رئيـس جمهوريـة، وإنمـا هـو اليـوم قائـد الكفـاح للوطـن ضـدَّ الاسـتعمار والصهيونيـة هـذه الجبهـة لابـدَّ أن ينبثـق منهـا مـا أسـماه عبـد النـاصر في خطابـه في مؤتمـر التعـاون أول يونيـو 1956: القيـادات الجديـدة، قيـادات تحـسُّ بإحسـاس الشـعب.

والجبهـة الوطنيـة جبهـة سياسـية بـكل معـاني الكلمـة، فهـي ليسـت مجـرد جبهـة اقتصاديـة أو اجتماعيـة أو ثقافيـة فالقيـادات التـي سـتبرز لا يمكـن أن تكـون شـيئاً آخـر سـوى قيـادات سياسـية لهـا برامجهـا وأهدافهـا وأسـاليب كفاحهـا.

وهـذه القيـادات السياسـية تجمعهـا جميعـاً أهـداف واحـدة في المرحلـة الحاليـة مـن كفاحنـا الوطنـي: المحافظـة عـلى اسـتقلالنا وتدعيـم هـذا الاسـتقلال بتطويـر اقتصادنـا ورفـع مسـتوى الملايـين مـن أبنـاء هـذا الشـعب، والكفـاح مـن أجـل السـلام العالمـي.

إلا أنه رغم الوحدة بينها. لابد أن تقوم بينها تناقضات وصراع طبقي.

ولكـن ليـس حتـماً أن ينقلـب هـذا الـصراع إلى خصومـة تتمخـض عن حـرب أهلية، وخاصـة إذا مـا سـاد البـلاد حكـم ديمقراطـي سـليم، واتسـعت الحريـات الشـعبية، فالـصراع في هـذه الحالـة يكـون في حـدود سـلمية، صراع أقـرب مـا يكـون إلى التنافـس بـين القيـادات السياسـية المختلفـة، أيهـا أكـثر خدمـة للشـعب وأحـرص عـلى مصالـح الملايـين، دون مصالـح فئـة محـدودة أو قليلـة صغـيرة.. ثـم أيهـا أبعـدُ نظـراً وأسـلمُ تقديـراً للأمـور؟

إن قيـام جبهـة كهـذه وتمثيلهـا في الحكـم، يسـتطيع أن يحقـق للبـلاد مزيـداً مـن الديمقراطيـة ومزيـداً مـن الحريـات.. ويسـتطيع أن يشـعل حماسـة الشـعب ويجمـع صفوفـه حـول الأهـداف التـي وضعتهـا، وكـما يسـتطيع أن يقطـع دابـر أيـة مؤمـرات اسـتعمارية، وأن يكشـف ألاعيـب أي عنـاصر معاديـة أو متخلِّفـة.

هـذه الجبهـة في ظـلِّ ديمقراطيـة سـليمة! تسـتطيع فعـلاً أن تدعـم اسـتقلالنا السـياسي والاقتصـادي. بـل تسـتطيع أكـثر مـن هـذا أن تُمهِّـد الطريـق نحـو تطـور غـير

رأسمالي لاقتصادنا، فكما يقول بير ديبون: إن خطط التطور الاقتصادي، تتطلب كي تتحقق، تأييد الجماهير العريضة، والتعاون الفعَّال لكافة القوى الحية في البلاد، فالمشاكل التي تواجه مصر اليوم لا يمكن حلُّها إلا باتحاد وثيق لكافة الفئات الاجتماعية المختلفة المصمِّمة على المحافظة على الاستقلال السياسي لبلادها وعلى بناء أسس الاستقلال الاقتصادي.

مراجع تاريخية

- الثورة العُرابية والاحتلال الإنجليزي - عبد الرحمن الرافعي
- مصر والسودان أوائل عهد الاحتلال - عبد الرحمن الرافعي
- مصر كامل - " " "
- ثورة سنة 1919 (جزءان) - " " "
- في أعقاب الثورة (ثلاثة أجزاء) - " " "
- المسألة المصرية في دورها الأخير - تقرير ملنر مارس سنة 1921
- القضية المصرية: سلسلة وثائق المفاوضات، مطبوعات الحكومة المصرية سنة 1956 .
- تراجم مصرية وغربية - محمد حسين هيكل
- تاريخ مصر قبل الاحتلال وبعده - تأليف تيودور رونستين، وترجمة علي أحمد شكري سنة 1927.
- تطور الصحافة المصرية (1951-1798) - الدكتور إبراهيم عبده، الطبعة الثالثة.
- سعد زغلول. محمد إبراهيم الجزيري - طبعة دار أخبار اليوم
- أدب المقالة - الجزء الخامس - مصطفى كامل - الدكتور عبد اللطيف حمزة.
- نقابات العمال في مصر - الدكتور حسين خلاف، الطبعة الأولى سنة 1946
- أيام لها تاريخ - أحمد بهاء الدين - الجزء الأول، مطبوعات روزا اليوسف
- في أصول المسألة المصرية - صبحي وحيدة سنة 1950.
- قصة الثورة كاملة - أنور السادات - مطبوعات دار الهلال
- كفاح الشعب والجلاء - عدة مؤلِّفين (سلسلة اخترنا لك)
- مصر بين ثورتين - محمد مصطفى عطا (" " ")
- العدوان الثلاثي على مصر - عدة كُتَّاب (" " ")

- الاستعمار اليوم - أ.م. ليمين، مطبوعات دار الفكر
- هـذه الأحـلاف - عبـد القـادر حاتـم وآخـرون (سلسـلة اخترنـا لـك) سـنة 1956
- معركة القتال - سعد زغلول فؤاد سنة 1956
- قضية قناة السويس - الدكتور مصطفى الحفناوي سنة 1956
- تأميم القناة - إبراهيم عامر، سنة 1956
- خطب الرئيس جمال عبد الناصر أول يونيو 1956
- المؤتمـر اللآسـيوي الأفريقـي الأول - تقريـر محمـد عبـد الخالـق حسـونة، أغسـطس سـنة 1955
- نحن النساء المصريات - إنجي أفلاطون.

مراجع أجنبية

- Modern. The Earl of Gromer.2vol.(New york 1916).
- Egypt gince Cromer. (2 Vol. Lpndon 1933034) Lord Milner.
- Anglo. Egyptian Relations (1800-1953)London 1954.
- Great Britain and Egtpt ((1914-1951) Information papers No 19 Royal Inter. Affairs.
- The MiddIe East, 2nd Edition, Royal Inst. Of Inter. Affairs.
- Seven Fallen Pillars, Jon Kimche.
- The Middle, W.B.Fisher, London 1956.
- The Fellaheen, Ayrout, Alex. 1953.

دوريات

- جريدة الوفد المصري: أعدَاد ما بين سبتمبر 10-1945يوليو 1946
- جريدة صوت الأمة: أعداد ما بين أكتوبر 1951- مارس 1953
- أخبار اليوم: أعداد ما بين أكتوبر 1951- مارس 1953
- جريدة المساء: أعداد ما بين أول نوفمبر - أول يناير 1956

مراجع اقتصادية

- مشـاكل مـصر الاقتصاديـة ووسـائل علاجهـا - الدكتـور محمـد عـلي رفعـت سـنة 1951 الجـزء الأول.
- مشـاكل مـصر الاقتصاديـة ووسـائل علاجهـا - الدكتـور محمـد عـلي رفعـت سـنة 1951 الجـزء الثـاني.
- حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية- الدورة الثانية، سنة 1950.
- تاريخ مصر الاقتصادي والمالي في العصر الحديث.
- أمين مصطفى عفيفي عبد الله، سنة 1952.
- أزمتنا الاقتصادية - الدكتور عبد الرازق حسن.
- بناء الاقتصاد المصري - دكتور جاد لبيب. الطبعة الخامسة سنة 1954.
- اقتصاديات مصر - جمال الدين محمد سعيد، القاهرة سنة 1951.
- ترجمة التقرير الرسمي لمؤتمر القطن الدولي 1929، طبعة وزارة الزراعة.
- البنك الأهلي المصري (1898- 1948).
- بيان وزير المالية والاقتصاد عن مشروع ميزانية 1954.
- سياسة الغد - مريت غال القاهرة سنة 1938.

مراجع أجنبية اقتصادية

- Egyt at Mid. Century -Charles Essawi 1954
- The Economic Develeopmie of Modern Egyt -Crouchley, A.E- London 1938.
- L Egyte. Moment Economique- Instt. Nat. de Ia Statistique et des Etudes Eeo.1950.
- Economie Developments 1955- American Embassy despatch, No. 780.195.
- Eco. Develop. In the Middle East- 1945-1954 - Supplement to world Eco. Report, United Nations.
- The Stucture of Modern Industry in Egypt - 1948.
- The Eco. Development of the Middle East - Alfred Bonne - planning the U.S.S.Rby S.G Stumelin. 1954.
- Statistical Year Book -1954 - United Nations.
- Marketing problems in an Underdeveloped Country, Egypt - pared by Abdel Aziz al Sherbini & Ahmed Fouad Sherif.

دوريات

- مصر المعاصرة، عدد يوليو 1956.
- الإحصاء السنوي للجيب، سنوات 1948، 51 ، 53، 1954.
- إحصاء الإنتاج الصناعي سنة 1950، 52، 1954 - مصلحة الإحصاء والتعداد.
- الكتاب السنوي لاتحاد الصناعات المصرية سنوا ت 1952، 53، 1954.
- النشرة النصف شهرية للبنك الصناعي – أعداد مختلفة.
- النشرة الاقتصادية للبنك الأهلي، الأربعة أعداد عام 1955 وعددان 1956.
- التعـداد العـام للسـكان سـنة 1947، الجـزء الثـاني، جـداول عامـة مصلحـة الإحصـاء والتعـداد.
- تحليل للواردات المصرية من 1945 – 1954، للدكتور نزيه أحمد ضيف.
- الإحصاء السنوي العام 1952؛ مصلحة الإحصاء والتعداد.
- الإحصاء السنوي العام 1938- 1939؛ مصلحة الإحصاء والتعداد.
- إحصاء الشركات المساهمة، يونيو سنة 1947، يونيو51، 1952.
- تقرير لجنة الصناعات، وزارة التجارة والصناعة سنة 1948
- المجلس الدائم لتنمية الإنتاج القومي، تقرير سنة 1955.

دوريات أجنبية

- The Egyptian Economie and political Review Vol-l - Sep. 1954- August 1955.
- L Egypte Cotemporaine- 1953-54-55 - Raceuil de Statistiques Banque Belge en Egypte (1929-1954).
- New Times No 19 . 52 (1956).
- International Affairs No 4. 6-6-10 (1956), Moscow.

إن التاريخ لا يمكن أن يكون علمًا حقًا، إذ قصر نفسه على دراسة أعمال الملوك وقواد الجيوش، وأخبار الغزاة، وتفاصيل المفاوضات والمعاهدات.

نعم، إن الزعماء والقادة دورهم فى التاريخ، ولكنهم لا يستطيعون أن يلعبوا هذا الدور إلا بمقدار ما يمثلون مصالح شعوبهم، إلا بمقدار إدراكهم لقوانين التطور للمجتمع، إلا بمقدار ما يمثلون قوة متقدمة قد تهيأ لها ظروف النضج، بحيث تستطيع أن تسير بالمجتمع خطوة إلى الأمام.

ومع هذا يستمر المحرك الحقيقى للتاريخ هو الشعوب، وتحركاتها، وثوراتها، وتنظيماتها، ولا نعنى بها هذه التحركات العفوية الطارئة، التى ما إن تهب حتى تخمد، إنما هذه التحركات العميقة المنتظمة التى تعبر عن أن نظامًا اقتصاديًا وسياسيًا معينًا أصبح لا يصلح للبقاء، أصبح معرقلًا لتقدم القوى الإنتاجية، أصبح محطمًا لمستوى المعيشة للشعب وثقافته، ومن ثم يتعين وجود نظام آخر سياسى، ونظام آخر اقتصادى، تهب الملايين بقيادة زعمائهم من أجل تحقيقه.

ISBN 978-977-313-736-6
9 789773 137366
المحروسة
مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية و المعلومات
تصميم الغلاف: